الثقافة الواحدة

هل الثقافة هي الحضارة ؟ ام الحضارة هي الثقافة ام هي علاقة جدلية بين حدي معادلة لا يقوم احدهما بغير الآخر ؟

في بعض اللغات ثمــة كلمة واحــدة لذينك الحدين ، فكلمــة Culture في الانكليزية ، كما في الفرنسية ، تعني ثقافة وتعني حضارة في آن معاً فهل ادرك الناس منذ قديم الازمان ان الحضارة والثقافة وجهان لعملة واحدة وانهما تتكاملان تكامل الليل والنهار والصيف والشتاء ؟

الكلمة الأولى التي استهل بها القرآن هي ((اقرأ)) ، فقد جاء الوحي ليقول لمحمد ((اقرأ)) ثم يكررها مثنى وثلاث مؤكداً بذلك انه ((في البدء كان الكلمة)) وان ((اقرأ)) هذه هي الطريق الوحيد للمعرفة ، والثقافة . . . ومن ثم الحضارة .

من ((اقرأ)) هذه صنعت حضارة بعد جاهلية وقوة بعد ضعف ووحدة بعد فرقة لتحمل امتنا ولقرون عدة مشعل المدنية والرقي محققة اروع ما يمكن لأمة ان تحققه ، يشهد على ذلك ما انجزت من ابتكارات وما طورت من علوم وما ابدعت مــن آداب حتى غدت ، طوال عصر الظــلام ، منارة تهتدي بها الأمــم ومركزاً للإشعــاع الحضاري يستقطب جميع البشر .

وماذا كان يتوج ذلك كله ؟ إنها الثقافة العربية التي كانت ثقافة العصر .. كل دارس ينبغي ان يدرس الثقافة العربية ، كل باحث ينبغي ان ينهل من الثقافة العربية وكل كاتب ينبغي ان يكتب باللغة

العربية ، وهكذا ازدهر الكتاب العربي ، فانتشر في كل مكان معلماً ومرجعاً ، كما ازدهرت صناعته وتراكمت مجلداته اكداساً اكداساً جعلت مياه دجلة تزرق وتسود اياماً وليالي وهولاكو يلقي فيها الكتب .

بالثقافة الواحدة بني الانتماء الواحد والتراث الواحد ، فالمتنبي يمت لابن المشرق كما يمت لابن المغرب وهكذا الكندي وابن هاني وابن رشد ... وبالثقافة الواحدة بنيت الحضارة الواحدة تلك التي اسهم فيها الجميع وانتمى إليها الجميع .

حينذاك لم تكن هناك حدود او قيود .. جمارك او حواجز ... الكتاب الذي يكتب اليوم في دمشق ينسخ الغداة في القاهرة والشعر الذي ينشد في القيروان تردده بعد ايام بغداد ... وابن خلدون يولد في تونس ويعمل وزيراً في المغرب ثم يعين قاضياً في القاهرة وحين يحاصر تيمورلنك دمشق يختاره اهلها ليفاوض عنهم تيمورلنك ، اليست هذه هي وحدة الثقافة ؟ وحدة الحضارة ؟ وحدة الانتماء ؟

وإذا كان الاستعمار قد مزق وطننا الواحد فجعل منه اوطاناً وفرق امتنا محاولاً ان يجعل منها امماً ، فما علينا ان نفعله اليوم ، كي نفوت مآربه ونخيب آماله ، إلا أن نرتق ما مزق ونلحم ما فرق ولا لحمة كلحمة الثقافة ... فالثقافة الواحدة هي الفكر الواحد ، والمطامح الواحدة ولسنا احوج لشيء في هذه المرحلة كحاجتنا للفكر الواحد ، والمطامح الواحدة .

إننا بالثقافة الواحدة نهدم الحدود التي نصبت والحواجز التي رفعت ، بالثقافة الواحدة نصنع الانسان العربي الواحد الذي يطاول بهامته الشمس ، بالثقافة الواحدة نصنع الحضارة الواحدة ، وبالحضارة الواحدة فقط نعود من جديد خير امة اخرجت للناس ..

رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

الصراع العربي - الصهيوني في قرن

د. محمد حرب فرزات

ما حصاد قرن في هذا الصراع العربي - الصهيوني ؟ ما حصاد هذا القرن الذي مضى من الصراع بين أبناء أصحاب الأرض ، و بين الغزاة المستعمرين المستوطنين ؟ .

لقد مضى أكثر من قرن على المشروع الصهيوني في فلسطين ، لنقل منذ عام ١٨٧٠ ، عندما بدىء بتأسيس أول مدرسة زراعية ، ميكفه قرب يافا ، لتدريب العاملين في القرى اليهودية المحدودة العدد آنذاك ، والتي لم تكن لتضم إلا آلافا معدودة لا تشكل إلا نسبة قليلة من السكان .

كان أولئك اليهود المحليين الذين لم يكن لهم قضية

سياسية خاصة ، ولكن انضم اليهم فيما بعد عدد قليل من اليهود المتدينين أكثرهم من الأوروبيين الذين اتجهوا الى فلسطين في القرون الاخيرة . ولكن في عام ١٨٨٠ أخذ حجم هذه الهجرة و طبيعتها يتغيران . فبعد ذلك العام حدثت هجرة اليهود من روسية و اتجهت اكثرية هذه المهاجرين الناجين بأنفسهم الى أوربة الوسطى والغربية، و تابع معظم هؤلاء التحرك نحو أمريكا . ووصل عدد قليل ممن خرجوا الى فلسطين التي كانت تعد في المراجع العربية و الأجنبية جزءا من بلاد الشام التي كانت تدعى باسم سورية في التقسيمات الادارية العثمانية ، و تذكر في الوثائق العثمانية باسم بلاد فلسطين و أرض فلسطين .

و كانت أكثرية القادمين من هؤلاء اليهود الأوروبيين من أصحاب النزعة الدينية القومية ومن المنتمين الى حركة «محبي صهيون» وهي من أولى الحركات الصهيونية ، نشأت في الربع الاخير من القرن التاسع عشر واستطاعت في عام ١٨٨٢ أن تقيم أول منشأة زراعية لها في فلسطين . ثم بديء بتشكيل مجتمعات ثقافية متميزة ضمن المجتمع العربي ، بادخال اللغة العبرية الفصحى لافي التعليم الديني فحسب بل في التعليم العام و الصحافة اليومية على يدي اليعازر بن يهودا . لم يكن عدد اليهود في البلاد ليزيد آنذاك عن أربعة وعشرين الفا . ولكن منذ ذلك العام تتابعت حملات منظمة للهجرات الصهيونية نحو فلسطين بوتائر مختلفة و متناسبة مع الظروف الدولية .

بهذه القاعدة السكانية اليهودية الصهيونية على أرض فلسطين استطاعت الحركة الصهيونية السياسية المتنامية في أوربا في خضم الحركات

القومية التي شهدها القرن التاسع عشر ، الانطلاق نحو اهداف محدودة ، في مراحل معينة خطط لها ، و ترافقت كل مرحلة منها مع برنامج للهجرة والاستيطان على أرض فلسطين تمهيداً للانتقال الى مراحل تالية.

و نذكر فيما يلي بعض الأمثلة الناطقة و المؤشرة :

أولا : موجة الهجرة الصهيونية الأولى : (١٨٨١ — ١٩١٧) .

بدأت تحركات هذه الموجة في الثمانينات وامتدت الى سنوات الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨). وقد تزامنت هذه الموجة مع ظروف الانقلابات و الثورات الدامية في روسية القيصرية ، كما حدث بعد فشل ثورة ١٩٠٥ التي كان لليهود ضلع فيها .

أدت هذه الموجة الى رفع عدد السكان اليهود في فلسطين من ٢٤٠٠٠ — ٨٥٠٠٠ و ربما الى ١٠٠،٠٠٠ ، كان ما يقرب من نصفهم من سكان المستوطنات اما الباقون فيشكلون نسبة ضئيلة من المقيمين في المدن الهامة : القدس و الخليل و طبرية و صفد و يافا . ولكن نسبتهم لم تكن لتزيد عن ١٠/١ من مجموع سكان فلسطين ولم يكونوا ليملكوا أكثر من ٢٪ من الارض .

الا ان الخطوة الحاسمة في هذه المرحلة كانت في تكوين زعامة صهيونية عامة لحركة صهيونية شاملة عندما تمكن تيودرو هرتسل (اليهودي المجري ومن رعايا امبراطورية النمسا و المجر) في عام ١٨٩٧ و تحت مظلة حكومة القيصر الالماني (غليوم الثاني) من صوغ المطامع الصهيونية في برنامج سياسي ، و باللغة الالمانية في المؤتمر الصهيوني

الاول في بال في سويسرة ، و هو ينص على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين يؤدي الى اقامة دولة يهودية .

و بعد وفاة هرتسل تمكنت القيادة الصهيونية بزعامة حاييم وايزمن (اليهودي البريطاني) ، بعد انحيازها الى جانب بريطانيا في الصراع الدولي من الحصول على وعد بلفور من حكومة بريطانيا (١٩١٧) ومن ادخال الصهيونية عنصرا أساسيا في السياسة الدولية للمنطقة على أيدي الدول العظمى المؤثرة فيها . و بخاصة بعد وقوع الشرق العربي تحت الاحتلال البريطاني – الفرنسي .

ثانيا : موجة الهجرة الصهيونية الثانية : (١٩١٧ – ١٩٤٧) :

أوجد تصريح بلفور الشهير غطاء رسميا دوليا لادخال أعداد كبيرة من اليهود الى فلسطين في الفترة الاولى من الاحتلال البريطاني(١٩١٨ ١٩٢٣) . و كان من نتيجة فرض قيود اقتصادية – سياسية على اليهود في بولندا بين (١٩٢٤ – ١٩٣٠) استقبال جماعات كثيرة من المهاجرين من أوربة الوسطى ومن المانيا على دفعات كان أكبرها استقدام اكثر من ١٠٠،٠٠٠ من يهود أوربة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وذلك بتأييد الدول الظافرة و بخاصة الولايات المتحدة الامريكية و رئيسها الصهيوني هاري ترومان .

و كان من نتيجة السياسة الانتدابية البريطانية الاستعمارية قبل الحرب العالمية الثانية ، و السياسة الامبريالية الدولية للولايات المتحدة الامريكية بعد هذه الحرب رفع عدد المستعمرين المستوطنين اليهود في فلسطين الى نصف مليون نسمة في نحو العام (١٩٤٦ – ١٩٤٧) وهو

رقم يقل عن نصف عدد السكان العرب في فلسطين آنذاك . و بهذه القاعدة الأرضية السكانية تمكنت الحركة الصهيونية من فرض نفسها قوة منتصرة في الحرب عملت على تحصيل أكبر المكاسب الى صفها وفي الجو الدولي السائد بعد الحرب التي انتهت باندحار النازية، استحصلت القيادة الصهيونية بتأييد حماتها الامريكيين بصفة خاصة على توصية دولية من الجمعية العامة للامم المتحدة عام ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين الى دولتين يهودية و عربية .وفي عام ١٩٤٧ ، اعلن الكيان الصهيوني باسم «دولة اسرائيل» التي كان بشر بها هرتسل في مؤتمر بال قبل خمسين عاما ، و دون ان تعلن دولة عربية فلسطينية بالمقابل .

ولم يكن لدى العرب الفلسطينيين ولا لدى الدول العربية أية خطة لمواجهة التغيير الديموغرافي في البلاد ، الناجم عن ظروف الصراع العشوائي — المسلح الذي أدى الى خروج الفلسطينيين العرب من ديارهم بأعداد كبيرة من المدن و القرى التي و قعت بعد خروج الانتداب البريطاني في أيدي قوات الاحتلال الصهيوني . ولم يتمكن العرب بعد الجولات الاولى من الصراع من الاحتفاظ بكل ماكان بأيديهم من أرضهم المقسمة .

هكذا كان تنفيذ التقسيم عسكريا و على أرض فلسطين . و بخاصة بعد الوصول الى خليج العقبة لا تقسيما لفلسطين ، و حسب ، بل بل تقسيما فعليا لأرض الوطن العربي ، بقطع الاتصال البري بين شبه الجزيرة العربية و المغرب العربي كله .

ثالثا : موجة الهجرة الصهيونية الثالثة :

التي استمرت ببطء بين ١٩٤٧ – ١٩٦٧ ثم تعاظمت حتى ١٩٨٢ في هذه المرحلة نجحت القيادة الصهيونية في تكوين مجتمع صهيوني مسلح من نحو ثلاثة ملايين من السكان استطاعت ان تقوم بسلسلة من الضربات العسكرية المتوالية اهمها في عام ١٩٥٦ ، ثم عام ١٩٦٧ وأدت الى بسط سيطرة الدولة الصهيونية على فلسطين كلها و الى اختراق حدود الدول العربية المحيطة بفلسطين ثم الانتقال دوليا من وضع الدولة المعتدية الى وضع القوة الدولية الاقليمية المتدخلة بمعونة قوى أمبريالية ، منسحبة ومتقدمة ، فرنسا وبريطانيا ، من جهة و الولايات المتحدة من جهة أخرى ، و بالنيابة عنها و لمصلحتها أحيانا ، وعلى الرغم من تلبس الكيان الصهيوني بالعدوان عام ١٩٨٢ عند اجتياح لبنان و عاصمته بيروت فان الموقف الدولي لم يتعد الادانة اللفظية . و تركت لاسرائيل فرص لجني ثمار العدوان دون رادع دولي فعال لولا المقاومة الباسلة العربية اللبنانية – السورية التي أدت الى منع تكرار أسلوب كامب ديفيد مع لبنان .

رابعا : نحن في أيامنا هذه أمام حملة الغزو الصهيوني الرابعة :

وهي حملة تهجير منظمة لنقل مئات الالوف من مواطني الاتحاد السوفييتي الى أرض فلسطين و هو ان وصل الى نهايته، سيؤدي بالنتيجة الى نتائج ديموغرافية كمية و نوعية ، تؤثر في الطاقة البشرية العسكرية و المدنية و تكون لها انعكاسات خطيرة، عندما سيبلغ عدد السكان من اليهود الصهيونيين ٥ – ٦ ملايين نسمة لا على أرض فلسطين وحسب بل على الوطن العربي كله .

أفلا يجب في هذه المرحلة الجديدة من المواجهة ، الوقوف أمام حصاد الصراع في قرن مضى ، لعلنا نتبين كيف سيكون المستقبل العربي امام هذا التهديد الخطير للوجود القومي ؟ اننا لنسمع أنه بينما يتبلور هذا التهديد في صورة هذا الغزو البشري الجديد ، تدور المساعي الدبلوماسية لحل الصراع العربي — الصهيوني في اطار التسويات الدولية التي يشهدها العالم في هذه الايام للقضاء على بؤر التوتر في العالم ، من منظور الدول الكبرى و القوى الاقتصادية المتصارعة . فكيف سيكون موقف العرب وهم في وضعهم الدولي الراهن تجاه هذه التسويات المطروحة القادمة ؟

أمام هذا التحدي المصيري الجديد ليس من المبالغة ان نقول ان الوطن العربي كله يواجه في هذه المرحلة أشد درجات التحدي قسوة في كل تاريخه الحديث و المعاصر ، ان الوطن الآن امام اختيار صعب بين التطلع الى المثل العليا و الاهداف القومية التي تبلورت خلال أكثر من قرن من الزمان و بين الاقرار بما سيؤول اليه الواقع الجيوسياسي الراهن الذي ترتسم صورته على أرض المشرق العربي منذ الحرب العالمية الثانية .

يبدو ان مواجهة الخيار الذي لن يكون منه مفر أخيرا ، هي مواجهة مصيرية بالنسبة للعرب كلهم أو بعضهم و ربما أكثر بالنسبة الى سورية ، التي تجد نفسها بحكم صلتها الخاصة بالصراع ؛ تاريخيا و جغرافيا ، ، الدولة العربية التي ورثت في تربية أجيالها كل عبء التاريخ القومي ، بل وكل عقد المسألة الشرقية واشكالاتها عبر القرون وما لحق ذلك من تنافس القوى الدولية و صراعاتها على النفوذ في

بلادنا ووطننا و منطقتنا في مادعي حسب الاصطلاح الدارج بمسألة الشرق الاوسط التي تشكل القضية العربية جسمها المركزي .

لقد كانت أرض الوطن العربي ضمن موضوع المسألة الشرقية القديمة التي انتهت في سلسلة من المؤامرات و الظروف الدولية الى انحلال الدولة العثمانية . أما في أيامنا هذه فان الدول العربية أن تواجه بنفسها تحركات السياسات الدولية الخبيثة التي تديرها دول قوية تقبض بقوة على مفاصل التحرك السياسي عن طريق التحكم بمعادلات التسلح و التعامل المصرفي و النقدي و بتسويق المواد الاولية و الاستهلاكية الغذائية الضرورية وحتى الخبرة العملية و التقنية .

ليس بدعا ، بل إنه من الضروري في هذا المقام أن يقال إنّ العرب مجتمعين الذين ترسم لهم مخططات السياسة الدولية ، يواجهون التحديات المفروضة متفرقين ، نتيجة ، لعوامــل كثيرة يتعذر معها الوصو ل الى تحقيق المشروع العربي السياسي — الاقتصادي الثقافي المنشود على صعيد قومي حتى الآن ، و لتعذر تحقيق ما حلم به الرواد من وحدة عربية او اتحاد عربي حقيقي . حتى غدا الحديث عن هذه الامال و الأحلام الآن من أناشيد الماضي و أحاديثه .

و لكننا و نحن على مقربة من نهاية هذه القرن العشرين الذي لم يبق منه سوى عقد واحد ، لكي يبدأ بعده القرن الحادي و العشرون نشهد مع تقلب الزمان تزامن تغيرات فكرية و سياسية خطيرة في هذا العالم ، أخذت فيما يبدو ، تمهد للنظام الدولي للعالم المقبل الذي سنعيش فيه و ستعيش فيه الاجيال القادمة .

اننا و نحن نواجه كل يوم قضيتنا الكبرى ، قضية الصراع العربي — الصهيوني بأحداثها اليومية الجزئية و بصورتها الكلية ، وحين نرقب في الوقت نفسه هذا التغير المثير في صورة الجغرافية السياسية لهذا العالم نجد انفسنا في لجة أمواج قديمة و جديدة تصطرع فيها بعض عوامل التاريخ المنسي بوقائع الحاضر القلق و المتحرك الذي ترجع أبعاده على الاقل الى قرن مضى بين اواخر القرن التاسع عشر و أواخر قرننا العشرين .

نظرة على الماضي : المواجهة مع الاستعمار الأوروبي — الصهيوني :

اعتقد و ربما يشاركني كثيرون بأن المفكر العربي نجيب عازوري كان على حق عندما حدد بفطنة دقيقة و فكر سديد منذ مطلع هذا القرن طبيعة الصراع العربي — الصهيوني و بعده ، بادراكه لوجود حركتين متعارضتين ناشئتين على أرض المشرق العربي ، توقع آنذاك أنه سيترتب على تصادمهما مصير المنطقة كلها: الحركة القومية العربية والحركة الصهيونية، وذلك في كتاب « يقظة الامة العربية(١) الذي نشر في باريس بالفرنسية عام١٩٠٤ ولم ينقل الى العربية وياللاسف الا بعد أكثر من نصف قرن بعد كارثة ١٩٦٧ . و المهم ، هو أن تحليلات عازوري السياسية — التاريخية ، ورؤيته المستقبلية جاءت من ادراكه العميق لقوة الحركة الصهيونية و تصميمها بعد سنوات قليلة من المؤتمر الصهيوني الاول الذي عقد في بال في سويسرا (١٨٩٧) ، وفيه تبلور الرد الصهيوني على تيارات معادات السامية المناهضة لليهود في أوربة و بخاصة عند بروزها في قضية دريفوس المشهورة ، تبلور هذا الرد بقيادة تيودور هرتسل الصحافي الكاتب السياسي الهنغاري — اليهودي

الذي تمكن من صوغ برنامج سياسي لحركة قومية لليهود في أوربة . على أن أخطر ما في هذا البرنامج الصهيوني هو النص على **انشاء دولة يهودية في فلسطين** . و هكذا غدت الصهيونية التي هي بالاصل حركة قومية اوربية باستهدافها الارض العربية ، حركة معادية للعرب وتهديدا خطيرا للوحدة الجغرافية للوطن العربي و لسلامة الوجود القومي ، عندما تطور هدفها من المطالبة بوطن قومي في فلسطين الى العمل بكل الوسائل على استعمار فلسطين و انتزاعها من أهلها و اصحابها .

هذا هو **أساس الصراع بين الحركة العربية القومية** ، **وبين أهداف الحركة الصهيونية** ، أما ما **نجم** عن **ذلك** من آثار **وتطورات فهو نتائج وتفرعات** . ولا أريد أن آسى بل أعنى أن أدعو الى التأمل عندما نستذكر أنه بعد سنوات قلائل سيكون قد مضى قرن على المؤتمر المذكور ، و ستكون الخريطة السياسية للمنطقة في اواخر القرن غيرها في بداياته و ستكون بعض الحقائق السياسية الغائمة **الآن** ، قد اتضحت واستقرت أمام أبصارنا و على مشهدنا و نحن نتأمل بدهشة أو قلق و ربما بلامبالاة ،وانه لما يدعو الى العجب و التساؤل كيف تقبل الوجدان العالمي حل المسألة اليهودية في علاقتها مع القوميات الاوربية على حساب الارض العربية و الشعب العربي . ففي مرحلة من التاريخ لم تشهد أوربة مثيلا لها اصطرعت فيها المبادىء والايديولوجيات و القوميات ، أضحت الصهيونية ملجأ لليهود المنتشرين من روسية الى بولندة ،. و ينحدر هؤلاء اليهود من اصول متعددة ، وقد انتقلوا الى أوربة الشرقية في ظروف مختلفة من الدول و الامبراطوريات الكبرى القديمة و بخاصة بيزنطة فانتشروا حول البحر الاسود بخاصة في أديسة

على أن الكثير منهم ينحدرون من شعب الخزر الذي تهود في القرن السابع للميلاد . ويحسن أن نتوقف هنا عند هذه النقطة لمحاولة جلائها بايجاز :

من هم يهود الخزر ؟

في القرن السابع قامت حركة تهويد كبرى بين الخزر وهم شعب تركي و فيني (كالفنلنديين) ، كان استقر عند ضفاف الفولغا ، بين البحر الاسود و البحر القزويني . و في اواسط القرن السابع للميلاد اعتنق الملك بولاق و النبلاء في دولته الديانة اليهودية بتأثير مبشرين و معلمين يهود وصلوا الى المنطقة في ظروف التدهور الساساني والبيزنطي و التقدم العربي في بلاد الشرق الأدنى القديم . ثم اضحت مملكة الخزر اليهودية قوة يحسب حسابها الى ان أضعفت بعد حروب خاضها ضدها الامير الروسي ياروسلاف في أواخر القرن الحادي عشر ، . ثم زالت **هذه المملكة من الوجود مع غزوات التتار في ١٢٣٧** . ولكن المجتمعات اليهودية بقيت في البلاد وانتشرت في اصقاع اخرى وقد قامت اتصالات بين وزراء من هذه المملكة و بين حاصدي بن شابيروت وزير عبد الرحمن الثالث الامير الاموي في قرطبة كما ورد ذكرها عند الفيلسوف اليهودي الاندلسي يهوذا هاليفي في كتابه سفرها كوزاري . وقد ذكرت أخبار هذه المملكة و تطورات تاريخها في المصادر العربية و الصينية و في وثائق الكنيس اليهودي في القاهرة و قد تمكنت هذه الدولة في بعض الفترات من فرض نفوذها على القبائل المجاورة . ولا يستبعد انه كان لها تأثير على الحركات السياسية و الدينية وهو أمر يحتاج الى

تتبع و دراسة دقيقة ، وعندها قد يتضح شيء من طبيعة الانشقاقات و النزاعات التي وقعت في المنطقة في العصر العباسي و ما بعده .

ولكن ما مصير هذه المجتمعات الشرقية المتهودة أو اليهودية ؟

اننا نجد في أواخر القرن التاسع عشر مجتمعات يهودية كبيرة في روسية و أوربة الشرقية و بخاصة في بولندة . فقد تشكل حزب للعمال اليهود في روسية ، هو حزب البوند ، بنزعة اشتراكية نمت في وسط ثوري ، كما ظهرت منظمات دينية يهودية متطرفة و متزمتة بين الحاصيديين . و تكونت مجتمعات صهيونية مبكرة باسم محبي صهيون كما ذكرنا كان من بينهم اول المستعمرين في المستوطنات التي عمل ادمون دور وتشيلد على تأسيسها بين الربع الاخير من القرن التاسع عشر و حتى ١٩١٤=٣٢ مستعمرة اشهرها تل أبيب (١٩٠٩) ولم يلب اليهود الغربيون دعوة الصهيونية للقدوم الى فلسطين في ذلك الوقت حذرا من ان يفقدوا حقهم بالمواطنة ، الذي حصلوا عليه في الدول التي ينتمون اليها . وهكذا استبيحت ارض فلسطين للغرباء من اليهود الاشكنازيم المتعصبين و اليهم يتحدر من يقود مصائر الحركة الصهيونية اليوم .

الحركة العربية :

اما الحركة العربية فقد تطورت بدورها من الدعوة الى الاصلاح السياسي والاستقلال الذاتي ضمن الدولة العثمانية الى صياغة اول برنامج معلن للاستقلال في المؤتمر العربي الاول في باريس (١٩١٣) و هو تاريخ يمكن ان يعد اعلانا عن قيام حركة قومية عربية متميزة

من المسألة الشرقية العثمانية ، اتخذت مسارها الخاص منذ ذلك التاريخ لانشاء البنيان السياسي للامة العربية .

و لكن بينما كانت الحركة الصهيونية تحظى بتأييد اقوى الاوساط الدولية في ألمانيا و بريطانيا و فرنسة و ايطاليا و الولايات المتحدة الامريكية ، و حتى في بعض الاوساط الانقلابية في الدولة العثمانية كان على العرب الذين كانوا يتطلعون بشوق و قلق الى الحرية والاستقلال مواجهة لخطر التحديات واشدها قوة و إيلاما ، و هم يتعاملون مع هذا النوع الجديد من التهديد للبنية القومية المتمثل في الحركة الصهيونية في ظروف كان العالم فيها على شفا الحرب العالمية الاولى .

العرب والصهيونية حتى الحرب العالمية الأولى :

ليس دقيقا ان يقال إن العرب واجهوا حقيقة البرنامج الصهيوني مع اعلان وعد بلفور عام ١٩١٧ . فان الوقائع تدل على ان العرب واجهوا التحدي الصهيوني منذ بدايته . فقد كان لحركة الهجرة اليهودية الى فلسطين صدى في الصحافة العربية منذ عام ١٨٨٢ وكان المهاجرون يمرون من بيروت الى فلسطين، فقد كان النصف الشمالي من فلسطين (سنجقا عكا و نابلس) يرتبطان بولاية بيروت المستحدثة بعد اقتطاعها من ولاية سورية و مقرها دمشق و تناولت الصحافة العربية في القاهرة ، وهي بالحقيقة صحافة سورية مهاجرة ، المقتطف و المنار ، الحركة الصهيونية و اهدافها ، كما واجه الفلاحون العرب في أريافهم الغزاة المستعمرين في مستوطناتهم الجديدة كما حدث في كفر كاما و لوبية و عبادية و عرب الصبيح ، بتأييد بعض الاداريين المستنيرين مثل قائمقام طبرية امين ارسلان . و تحرك التجار في المدن

في القدس ويافا لمجابهة العملاء وفعالياتهم ، وشركاتهم ومصارفهم التي كانت تتعامل مع رجال الادارة التركية في القدس .

لم تكن الاهداف الصهيونية اذن خفية عن العرب ففي عام ١٩٠٢ أعلن المفكر رشيد رضا في جريدة «المنار» أن هدف الصهيونية هو «انشاء دولة فلسطين» و ذلك بعد الاطلاع على أعمال المؤتمر الصهيوني الخامس المنعقد أيضا في مدينة بال / بازل في سويسرة .

وكان يوسف ضيا الخالدي المفكر العربي الفلسطيني و السياسي نائب القدس في مجلس المبعوثين (النواب) العثماني قد خاطب كبير حاخامي فرنسة بالفرنسية في رسالة شهيرة مؤرخة في ١٨٩٩/٣/١ محاورا في معنى الصهيونية ، و ليطالبه بالعمل على التخلي عن المعنى الجغرافي للصهيونية و ترك فلسطين لأهلها العرب (مسلمين و مسيحيين) ليعيشوا بسلام ، ولم يكن عددهم يزيد آنذاك عن ٧٠٠،٠٠٠ .

على أن نظرة عازوري في المسألة كانت أبعد واكثر شمولا عندما تنبأ باصطدام الصهيونية الحتمي بالقومية العربية الناهضة (يقظة الامة العربية /١٩٠٥/) . . في وقت كان يدور فيه البحث في المشروعات الصهيونية على الصعيد الدبلوماسي وفي كواليس السياسة الدولية و صفقاتها . الا أن الحركة الصهيونية كانت تموه على أغراضها بالاعلان عن السعي لانشاء وطن قومي وحسب لليهود في فلسطين دون مساس بحقوق السكان ولا شيء غير ذلك .

أما رجال الحركة العربية في دمشق و بيروت و القاهرة وفي القدس و مدن فلسطين فقد تابعوا تنامي حركة الهجرة اليهودية

و التوسع في بناء المستوطنات ولم يكن بوسعهم أن يفعلوا شيئا سوى ارسال برقيات الاحتجاج الى السلطات العثمانية لحضها على الوقوف بحزم أمام هذه التحركات الصهيونية المريبة .

كان الموقف الرسمي للحكومة العثمانية معارضة الهجرة اليهودية و ذلك من وجهة نظرها منعا لمواجهة حركة قومية نامية كالحركات القومية التي كانت تواجهها في البلقان و منعا لتزايد اعداد افراد الجاليات الاوربية التي تعيش في البلاد بحماية الامتيازات الاجنبية للدول الكبرى التي كانت تهدد سياسة الدولة .

تمكن هرتسل عن طريق وسطاء في الحكومة العثمانية نفسها من مقابلة مسؤولين كبار في الباب العالي و من مقابلة السلطان عبد الحميد الثاني نفسه عام ١٨٩٦ ، قبل مؤتمر بال في سويسرا بسنة واحدة ، وطرح عليه برنامجه لانشاء دولة يهودية في فلسطين ، وطالب بتخفيف القيود القانونية المنشورة عام ١٨٩٢ لمنع دخول اليهود المهاجرين الى فلسطين و لمنع بيع الاراضي . ولكن عبد الحميد على الرغم من استقباله لهرتسل على مستوى رفيع ، ومن تقليده وساما فقد رفض العروض المالية المغرية ، دون أن يكون لهذا الرفض من نتائج حاسمة . لان التدابير الحكومية الفعلية كانت ضعيفة ، فما حدث بالفعل هو انه بين ١٨٩٢ — ١٩٠٨ تزايد عدد اليهود في فلسطين الى أرقام تتراوح بين ٧٠ — ٨٠ الفا و أنشئت ٢٦ مستعمرة . وكانت أولى المؤسسات الاقتصادية الصهيونية المصرف الانكليزي الفلسطيني (APC) في يافا (١٩٠٣) الذي كان له دور كبير في متصرفية القدس زمن كاظم بك و رشيد بك .

وعلى الرغم من مرور عقد على اعلان البرنامج الصهيوني فان موقف العرب لم يكن حاسما حتى ١٩٠٨ وان كانت العلاقات بين اليهود و العرب قد تدهورت ، بعد ان ظهرت للهجرة اليهودية من اوربة الى فلسطين أبعاد اقتصادية . وكان يراد تغطية الهجرة بغطاء قانوني يمنح اليهود القادمين الجنسية العثمانية ولكن القليل منهم نال هذه الجنسية ، فقد آثرت اكثريتهم الاحتفاظ بالجنسية الاصلية ليكونوا مستعمرين مستوطنين يتمتعون بالامتيازات و الحماية الدولية في دولة مترنحة مهتزة الاركان .

و بعد اسقاط عبد الحميد و مجيء جماعة تركية الفتاة ، كانت الحكومة العثمانية تعلن معارضتها للصهيونية ، كما كان يعلن السلطان عبد الحميد . وأعلن الانقلابيون سياستهم بصراحة بعد ١٩٠٨ ولكن الحكومة لم تستطع أن تحافظ على موقف حازم وبدت مترددة بين١٩١٣ ١٩١٤في خضم ظروف دولية هوجاء،أفاد ربابنة الصهيونية منهالتحريك سفينتهم فيها الى الاهداف المقصودة . فازداد عدد اليهود قبيل الحرب ليبلغ ٨٥ — ٩٠ الفا و ارتفع عدد المستعمرات الى ٤٠ مستعمرة .

و كان على العرب الغارقين في السياسات المحلية و في غمار السياسة العثمانية ان يحددوا موقفا : فقد فرق بعضهم بين يهود غرباء قوميين اوربيين متعصبين ، اشكنازيم ، و يهود عثمانيين ، سفارديم و كان المتنورون منهم حريصين على التفريق بين اليهودية و الصهيونية وهو ما عبر عنه مسؤولو حزب اللامركزية وهو الحزب الذي كان واجهة السياسة السورية قبل الحرب العالمية الأولى ، و في هذا الاتجاه كان موقف راغب النشاشيبي من القدس ، الذي طالب بوضع قيود على اليهود الغرباء ولكن رضخ بمعاملة اليهود العثمانيين كسائر المواطنين .

و بمقابل هذا الموقف المعتدل كان هناك الموقف الراديكالي الذي عبر عنه اثنان من كبار رجال الحركة العربية نجيب نصار من فلسطين و شكري العسلي من دمشق وهو الاداري المرموق قائم مقام الناصرة الذي قاوم بيع الاراضي ، و ناهض الصهيونية علنا في البرلمان العثماني فقد عارض الرجلان أية هجرة يهودية تحت أي غطاء قانوني او اتفاق دولي خوفا من تطور الهجرة الى تبدل في النسبة السكانية ثم الى تأسيس دولة يهودية على أرض فلسطين ، و المعروف ان العسلي دفع حياته ثمناً لمواقفه في معارضة السياسة التركية في ٦ أيار ١٩١٦ .

ثم أخذت تتبلور المعارضة للصهيونية في البلاد العربية و في الدولة العثمانية عامة على مستويات تراوحت بين الولاء للدولة العثمانية و الوطنية المحلية في فلسطين و سورية و القومية العربية . فقد كان واضحا أن قدوم مهاجرين من اليهود الاوربيين (الاشكناز) ليستوطنوا أرض فسطين في مستعمرات تقام لهم برأسمال أوربي سيوجد طليعة لبسط نفوذ الدول الكبرى المتنافسة على السيطرة على الدولة العثمانية المتقهقرة وبخاصة المانيا و روسيا ثم بريطانيا و فرنسة .

و كان من التدابير التي اتخذت تأسيس حزب عثماني ضم بعض الشخصيات من فلسطين، ثم جمعيات و نوادي للاخاء العربي — العثماني . ولكن الأهم من ذلك ظهور ملامح وطنية في **تأسيس شركات فلسطينية**، **وتأسيس جريدة فلسطين**، وظهور مقالات وبيانات بتوقيع فلسطيني ،وبدأ منذ١٩١١ التفكير بتنظيم مقاطعة للمستوطنين اليهود.وتحدث الخطباء و الشعراء كثيراً عن الخطر الصهيوني ومن أشهر هؤلاء سليمان التاجي الذي أشار الى الدور المالي للصهيونية و حين كانت هناك خطورة في

ان تتزلق الحركة العربية من مناهضة الصهيونية الى معاداة السامية كما كان شائعا في أوربة، صرح المفكر روحي الخالدي في ١٩١١ بأنه ليس ضد السامية بل ضد الصهيونية و طالب نائب عكا الشيخ سعد الشقيري باستصدار تشريعات لايقاف بيع الاراضي و الحد من الهجرة .

ومنذ ١٩١٢ اشتدت الدعوة الى اتحاد العرب في حركة واحدة لمواجهة تسرب الصهيونية الى الصحافة التركية في سالونيك و استانبول والى القيادة و الحكومة عن طريق الصهيونية المستترة وراء المحافل الماسونية . و كان الرأي العام العربي على علم بما كان يجري ، فتشكلت جمعيات و نواد لمناهضة الصهيونية و منها جمعية الازهر في القاهرة عام ١٩١٤ و في القدس و يافا و حيفا و نابلس و بيروت و القسطنطينية فعلى الرغم مما بذله عملاء الصهيونية و رسلها الى المنطقة سوكولوف و جاكوبسن و كالفارسكي في اتصالاتهم لابراز وجه تقدمي للصهيونية بدعوى الاعمار و نقل الحضارة، فان أهداف الصهيونية كانت واضحة وهي تكوين شخصية قومية لليهود خاصة بهم و رفض الجنسية العثمانية وبناء المؤسسات الاقتصادية و الاجتماعية و التعليمية و نشر العبرية لكي تصبح لغة عامة قومية لا لغة للطقوس الدينية و حسب للوصول الى الهدف الاخير و هو اقامة الدولة اليهودية في فلسطين . ولم تقتصر المناهضة على الصعيد الاعلامي و السياسي فقد وقعت مصادمات في صيف ١٩١٣ أدت لاول مرة الى مصرع عربي وصهيوني مستوطن . و فيما بين ١٩١٣ — ١٩١٤ جرت اتصالات قام بها مبعوثون صهيونيون مع عدد من الشخصيات العربية : محمد كرد علي ، و شكري العسلي و عبد الوهاب الانكليزي و الشهبندر و جرجي فاخوري لاستطلاع

الآراء لتحقيق تفاهم عربي – صهيوني ، و للالتفاف على الحركة العربية و زعمائها في بيروت والقاهرة و باريس . و يسجل ان موقف العسلي و عبد الوهاب الانكليزي من العروض الصهيونية كان واضحا .
كما جرت اتصالات و عقدت اجتماعات في برمانا (١تموز ١٩١٤) حضرها من العرب ناصيف الخالدي واحمد مختار بيهم ورزق الله أرقش وحسن الاسير وكرد علي والشهبندر وأحمد حبش وعبد الله مخلص ويوسف العيسى وجمال الحسيني ،ولم تؤد هذه اللقاءات الى اتفاق على أن أبعاد الخطر الصهيوني المتعاظم عبر عنها الكاتب العربي الفلسطيني خليل السكاكيني بدقة وعمق في تناوله المسألة بصورة لم يسبقه اليها احد حين قال: اذا ما احتل اليهود فلسطين فان الوحدة الارضية الجغرافية للوطن (العربي) ستحطم والقضية العربية ستضعف. ونبه السكاكيني الى ماسيحدث بالبنية الاجتماعية للجماهير العربية بادخال عامل لغوي جديد و عادات جديدة . وكتب في ٢٣ شباط ١٩١٤ متابعا ماكان صرح به نجيب عازوري قائلا: **ان الحركة الصهيونية هي حركة قومية أوربية المنشأ قامت لاخضاع حركة قومية أخرى ولتقوية نفسها لقتل أمة بكاملها وللوصول إلى استقلال موهوم يقوم على الرشوة واستغلال الدول الأخرى.....»** .

و بعد النزوع الى التفاهم و الاتفاق حتى عام ١٩١٤ ، وجدت قيادة الحركة العربية في تراخي السلطات التركية من الاتحاديين أمام حركة الهجرة الصهيونية الى فلسطين تحالفا بين هذه السلطات و بين الصهيونية فأخذت تدعو الى النهضة أي الى الانتفاضة و الثورة . ووصل أمين حزب اللامركزية حقي العظم الى حد المطالبة بمقاومة الاستيطان الصهيوني بالعنف . أما رشيد رضا فقد أعلن ان الساعة

قد دقت للمقاومة . و نشرت مجلة فلسطين ترجمات للبرامج الصهيونية ثم نشر رشيد رضا في مجلة المنار لسان حال اللامركزية خلاصة عن هذا البرنامج ، ثم علق في ١٩١٤/٩/١٧ : عندما سينفذ هذا البرنامج لن يبقى أحد من أهل فلسطين في فلسطين ، و أنذر بما تبيته المطامع الصهيونية لاقامة اسرائيل التي تمتد الى الفرات وأشار الى ما في سفر العدد من وصايا بالقضاء على سكان الارض الموعودة و أشار الى احتمال تكرار ذلك مرة أخرى لكي يبقى الصهيونيون وحدهم على هذه الأرض .

ولمقاومة هذا الخطر نصح رشيد رضا آنذاك بالتدبر و بالحزم و الاستعداد و الاعتصام بالقوة و تنظيم الدفاع بالأفعال و الأعمال لا بالاقوال . وبعد مضي قرن تقريبا هل هناك سبيل للتصدي للتحدي الصهيوني بغير هذا؟

أما الموقف العربي فقد تطور من المستوى الاعلامي الذي كان يمثله رضا في القاهرة و مخلص و يوسف العيسى في نابلس ، الى المستوى السياسي حين كتب حقي العظم في جريدة «إقدام» التركية محذرا (بين ١٢ — ١٩١٤/٩/١٧) من مغبة التساهل في تأييد الهجرة اليهودية و مساعدة السلطات و غيرها لليهود المهاجرين ضد السكان المحليين و حذر الحكومة بأن العرب بدأوا يفكرون بطرق لمقاومة الصهيونية و مشاريعها ، كما حذر أولئك العرب الذين باعوا أراضيهم و الذين سيعرفون يوما ما في أية هاوية سيسقطون .

على أن موقف حزب اللامركزية و أمينه العام على الاخص ، يبدو

بوضوح ، بعد هذه التطورات في الرسالة التي وجهها حقي العظم من القاهرة الى محمود المحمصاني (بيروت) في ١٩١٤/٦/٢٠ نشرت هذه الرسالة بعدئذ في ١٩١٥/٩/١ ، و المحمصاني هو كذلك من شهداء الارهاب العثماني عام ١٩١٦ كما هو معروف .

يقول الامين العام لحزب اللامركزية ما مضمونه : اعلم يا أخي ان الصهيونيين يسيرون الى تحقيق أهدافهم بسرعة بمساعدة الحكومة العثمانية و بلا مبالاة الناس . انني على يقين باننا ان لم نفعل ما يتطلبه الوضع الراهن فانهم سيصلون الى تحقيق اهدافهم في سنوات قليلة حتى إقامة دولة يهودية في فلسطين، ثم سيتحولون الى سورية ثم إلى العراق ، و عندها سيتحقق برنامجهم السياسي . ولكن باستخدام كل ما نستطيع من وسائل التهديد و القهر وهو ما يجب ان نفعله ، بدفع السكان العرب للقيام بتدمير مزارعهم و احراق مستوطناتهم و بتشكيل العصابات المسلحة لتنفيذ هذه الاعمال ، يمكن ان نرغم المستعمرين على المغادرة و الخروج للنجاة بأرواحهم هكذا دعت الحركة العربية الناس الى الانتفاض و الثورة منذ ذلك الحين .

لم تحقق الحركة العربية بالتأكيد كل اهدافها ، لكنها نجحت مؤقتا في الحد من حركة الدولة العثمانية ومناوراتها في علاقاتها مع الصهيونية . فمنعت الحكومة من ان تتصرف بعلانية في تسهيل القيود على اليهود في صيف ١٩١٣ ، و بدأت تنظر الى الموقف العربي بالاعتبار . و قد بدا واضحا منذ ذلك الوقت أن الصراع المفتوح بدخول الصهيونية الى المنطقة لم يكن صراعاً صهيونياً — فلسطينياً

بل صهيونياً - عربياً . وما يزال باب البحث مفتوحا لمعرفة دور الصهيونية في دفع السلطة العثمانية التركية الى البطش بقيادة الحركة العربية واعدام نخبة الامة من المفكرين و السياسيين في محاكمات كيفية بين ١٩١٥ - ١٩١٦ ، و بينهم كبار رجال السياسة و الادب و الصحافة الذين كانت لهم أدوار مشهودة في بيروت و دمشق و القاهرة والاستانة . و منهم عبد الكريم الخليل و عبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي و عبد الوهاب الانكليزي و محمد و محمود المحمصاني و عبد الغني العريسي وحافظ السعيد و أحمد طبارة وسليم الجزائري فحرمت الحركة العربية من أهم عناصر قيادتها في أكثر الظروف حراجة عندما كانت يد الصهيونية تقرع ابواب قصور رجال الدولة في عواصم العالم لتستقبل فيها بالترحيب و التأييد .

الحركة العربية بعد الحرب العالمية الأولى :

و باندلاع الحرب العالمية الاولى في اوربا كان على الحركة العربية الدخول في تعامل خطر مع دهاة السياسة الاستعمارية البريطانية الذين كانوا يعملون على جر العرب الى صفوف الحلفاء ، بعد وقوف الحكومة العثمانية التركية الى جانب ألمانيا . ولم يجن العرب من هذه الاتصالات سوى وثائق و مراسلات رسمية بقي مضمونها حبرا على ورق ، و ضرب بها عرض الحائط في حين كانت فيه خريطة الوطن العربي ترسم في الصفقات الدولية التي عقدت بين الدول التي كانت تتنافس فيما بينها لتنفيذ مخططاتها الاستراتيجية المرسومة لمستقبل المنطقة وهي : بريطانية و فرنسة و روسية :-

و كان أبرز هذه المخططات شأنا و أشهرها و أبعدها تأثيرا في الوطن العربي المعاصر : اتفاقيات سايكس — بيكو (أيار ١٩١٦) لتقاسم النفوذ في سورية و العراق بين الدولتين العظميين آنذاك بريطانية و فرنسة ، ووثيقة تصريح بلفوز وزير خارجية بريطانية (٢تشرين الثاني ١٩١٧) ، وهي تنص على تأييد بريطانيا لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين مع المحافظة على الحقوق الدينية و المدنية للسكان . وهكذا لم يقتصر التهديد الموجه للوطن العربي على الصهيونية ، بل أضيف اليه التنازع الاستعماري لتقاسم النفوذ .

ضمن تلك المتغيرات الدولية الجارية في جغرافية الشرق العربي وفي غياب الولايات المتحدة الامريكية عن الساحة بعد انتهاء رئاسة ويلسون ، تمكنت الدولتان الاوربيتان العظميان من الانفراد بالسيطرة على الموقف بعد انهيار تركية و سقوط الشرق العربي بين يدي قواتهما فأضحى المشروع الصهيوني في فلسطين رهنا بارادة بريطانية صاحبة وعد بلفور ، و بمتطلباتها الاستراتيجية في المنطقة ما بعد الحرب العالمية الاولى ، بينما قبضت فرنسا باسم الانتداب على عنق البلاد في سورية الّتي التفتت الى مصابها بالاحتلال و مقاومته .

لقد انهارت الامال بالاستقلال بعد ذلك و تبددت الاحلام بالوحدة العربية ، بعد استقرار لورنس في دمشق و برسي كوكس و غروتر ودبل في بغداد ، و غورو في بيروت ،و اللنبي في القدس. و خيم على البلاد ظلام نظام الانتداب المفروض باسم جمعية الامم الشقيقة البكر لمنظمة الامم المتحدة . ولم يبق بعد ذلك في الوطن العربي قطر واحد لم تطأه أقدام قوات الاستعمار سوى داخل الجزيرة العربية في نجد و الحجاز و عسير و اليمن .

لم يكن وعد بلفور بداية الصراع العربي الصهيوني ولكنه الخطوة التي ازالت كل عقبة امام تنفيذه . وانه لمن المدهش أن يعلن نظام الانتداب البريطاني على فلسطين بقرار من جمعية الامم المتحدة في جنيف في ٢٤ تموز ١٩٢٢ ، بعد سنتين من دحر قوات الجيش العربي السوري في ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠ ، و دخول القوات الفرنسية دمشق في ٢٥ تموز من العام نفسه .

العرب أمام التسويات الدولية بعد الحرب العالمية الأولى :

لقد بدأت منذ ذلك الوقت مرحلة أخرى من النضال الوطني و القومي ، و اندلع صراع سياسي اقليمي و دولي نشهد اليوم على الارض العربية حلقة جديدة من تطوراته و تقلباته .

لقد تحقق جانب من المشروع الاستقلالي العربي ولكن على حساب تنازلات و تسويات أدت آنذاك الى قبول لبنان عربي بقبعة أوربية في أسرة جامعة الدول العربية ، بينما علقت القضية الفلسطينية التي لم يكن بامكان العرب ، وهم بانقسامهم و ضعفهم و تخلفهم العلمي و العسكري، بت مصيرها و الحفاظ على هويتها العربية تجاه المطامع الصهيونية . كان هذا الواقع الذي فرضته الظروف الدولية قهرا مريرا للارادة القومية ، ولم يكن أبدا كما كانوا يتصورون سلاما دائما قابلا للبقاء .

لقد كان المثل الأعلى العربي المنشود أبعد ما يكون عن الواقع السياسي و الدولي الذي شهدته البلاد و فرضته المعادلة الدولية في المنطقة بعد الحرب العالمية الاولى . ان القاء نظرة سريعة على هذه التسويات

قد يمكن من تفهم كثير من ألغاز الصراع الدائر اليوم على ساحة المشرق العربي .

لقد أراد الحلفاء المنتصرون بعد الحرب العالمية الاولى اقامة سلام نهائي فيما بينهم بتشييد امبراطوريتين استعماريتين لبريطانية و فرنسة على انقاض الامبراطورية التركية العثمانية المنهارة ، و ظنوا أنهم بتسوية كهذه يختتمون صراعا بين الدولتين احتدم منذ حملة نابليون بونابرت على مصر و سورية في أواخر القرن الثامن عشر ، فماذا كان مصير هذه التسوية المفروضة لمصلحة الدول المنتصره وعلى حساب شعوب المنطقة التي تجرعت كؤوس المرارة بحرقة وأسى و خيبة أمل واحداً بعد آخر ؟ .

كان السلام الذي ظنوا أنهم وضعوا قواعده سرابا ، كان كما قيل سلاما مزيفا أنهى كل سلام ، إنه اقيم على اساس واه من الاستعلاء و الاستخفاف بالشعوب و تجاهل حقوقها ، فقد ظلت الاوساط الدبلوماسية الغربية التي استمرت في تحكمها برسم مقدرات المنطقة العربية حتى مابعد الحرب العالمية الثانية تنظر الى هذا الشرق العربي بعيون المغامرين من أمثال مارك سايكس و جورج بيكو اللذين يتحملان مسؤولية الصورة الحالية لخريطة الشرق العربي و هرتسل و حاييم وايزمن و دافيد غرين (بن غوريون) ، وكذلك فلبي و لورنس وأمثالهم .

و بقيت صورة النضال العربي صورة مشوهة مرتبطة بالاذهان بأعمدة الحكمة السبعة كما نقلها عميل المخابرات البريطانية الرومانسي العاثر الكولونيل لورنس ، الذي وضع العرب كل آمالهم فيه ، وهو

الذي كان هدفه الحقيقي أن يجعل جزيرة العرب في المرتبة الاولى بين ممتلكات الامبراطورية . و بقي الصوت العربي خافتا و الرأي العربي مجهولا أو متجاهلا في الاوساط الدبلوماسية و السياسة العليا التي كانت ترسم مصائر المنطقة العربية .

كانت تلك الفترة من الحرب العالمية الاولى وحتى ١٩٢٢ هي الفترة الحاسمة في تاريخ الشرق العربي المعاصر عامة و سورية بصفة خاصة ، حين غدا مصير سورية بكل أقطارها جزءا من اللعبة الدولية الكبرى حول هذا المشرق العربي ، و جزءا من الصراع الدولي الذي تتوالى جولاته و حلقاته حتى أيامنا هذه،دون ان يكون بالمستطاع بعد الاعلان عن اسم الفائز الأخير في هذا السباق الدولي المنهك ؟ ! وقد يكون من غير الممكن التكهن بنتيجة في أمد قريب . اما فيما يتعلق بمصير فلسطين فقد كان عام ١٩١٧ عاما حاسما ، فبينما كان رجال فلسطين و ممثلو مدنها و مناطقها : القدس و الخليل و نابلس و غزة و عكا و حيفا و يافا يشاركون ممثلي مدن و مناطق سورية الاخرى في وضع أسس أول حكومة عربية في دمشق منذ قرون ، كان دخول القوات البريطانية بقيادة الجنرال ادموند اللنبي القدس في كانون الاول ديسمبر ١٩١٧ ايذانا بتطبيق سياسة حديثة في الشرق العربي ، بوضع فلسطين تحت الاحتلال المباشر تمهيدا لتنفيذ وعد بلفور الذي كان قد صدر قبل ذلك بفترة وجيزة ، (في ٢ تشرين الثاني نوفمبر ١٩١٧) .

و بتوسع بريطانية من مصر و قناة السويس و تحركها لبسط سيطرتها على فلسطين ، و بنزول القوات الفرنسية في الاسكندرونة و كيليكية على سفوح جبال طوروس و السواحل السورية الشمالية أضحت

سورية رهنا للتوازن الدولي ، وأضحى مستقبلها السياسي كله بين يدي بريطانية و فرنسة ورهن ارادة قيادتيهما . فقد كانت المانيا دولة مهزومة آنذاك ، وكانت روسية غارقة في بحران الثورة ، وكانت الدولة العثمانية منهارة و فيها مصطفى كمال الذي كان يحاول انقاذ ما يمكن انقاذه منها ؛ أما الولايات المتحدة الامريكية فكانت متوقفة عند شواطىء الاطلسي تتقدم دبلوماسيا باستحياء الى عالم البحر المتوسط .

ان من يعود الى قراءة تاريخ تلك الفترة وهي فترة ينبغي اعادة قراءتها و دراستها يجد كيف تحكمت ارادات الساسة الاستعماريين المتغطرسين و نظراتهم الخبيثة في مصائر البلاد و تاريخها . لقد عملت بريطانيا على جر العرب الى جانبها في الحرب وأطلقت لهم وعودا وعهودا وخدعت قيادة الثورة العربية بعهود براقة . اما العرب فقد آوفوا بما وعدوا و قاموا بكل ما يستطيعون القيام به في الحرب ، فأنجزوا اعمالا حربية أثرت في سير المعارك و في تغيير الموازين في الشرق العربي كله و لكن لمصلحة بريطانيا و حلفائها لا لمصلحتهم .

كانت المأساة آنذاك عند تقاسم الغنيمة في ضعف العرب العسكري و السياسي ، و كانت بريطانيا تعرف الواقع بحذافيره ، فكانت تنظر الى العرب بمكر ،و كانت ترى انهم لم يكونوا جديرين بأن يديروا انفسهم بأنفسهم . وكان المكتب العربي البريطاني في القاهره يعتقد بضرورة ادارة بريطانية فعلية وراء الواجهة العربية ، ولم يكن يهم بريطانية من شأن العرب سوى الموقع الاستراتيجي لبلادهم . وان كل الشواهد تدل على ان الدوافع الحقيقية وراء هذه السياسة

البريطانية في المنطقة خلال الحرب العالمية الاولى رتبني اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، يؤدي بالفعل الى تأسيس دولة يهودية مرتبطة باستراتيجية هي من وجهة النظر البريطانية كما يلي :

١ – حماية مصر و قناة السويس .

٢ – السيطرة على طريق المواصلات بين أوربة و أفريقية وآسية (الطريق الى الهند) عبر البحر الاحمر و مضيق باب المندب و عدن وبوابة الخليج العربي .

أما التطلعات العربية لاقامة دولة عربية من طوروس الى عدن فقد كانت على النقيض من هذه الاهداف الاستراتيجية البريطانية ، وهي لذلك لم يكن من الممكن ان تنال تأييدها او تشجيعها كما توهم زمنا كثيرون من الساسة العرب .

كانت مصيبة العرب منذ البدء هي أنهم خرجوا الى ميدان الصراع الدولي للدفاع عن قضيتهم وهم يؤمنون بالحق و بالعدل و بشرف الوعد ، لكنهم واجهوا في الغرب رجالا كانوا يختلفون عنهم كثيرا رجالا يفكرون بعقول ليست عقولنا و ينطقون بألسنة ليست ألسنتنا . فللعرب لغتهم ، أعني لغتهم السياسية ، ولكن لممثلي السياسة في الغرب ممن بيدهم مقدرات الأمور لغات أخرى لها قواعد ثقافية و يشكل الفكر الصهيوني ركنا من أركانها ، وهي قواعد ملموسة منذ بداية الصراع العربي وحتى اليوم .

يصف دافيد فرومكين D. Fromken وهو مؤلف بريطاني صدر له كتاب هام حديثا ، يصف صهيونية لويد جورج رئيس

وزراء بريطانية اثناء الحرب العالمية الاولى بقوله :«كان لويد جورج يعتقد ان انشاء دولة يهودية سيكون أمرا يرضاه الاله ايضا مناسب للمصالح البريطانية» وفي مناقشات مجلس الوزراء البريطاني كان يرجع الى التوراة في استشهاداته بينما كان يرجع زملاوءه الى شواهد الأدب الافريقي — اللاتيني (الكلاسيكي) . كان يعتقد أن على بريطانية ان تعمل على اعادة الماضي الذي يؤمن به على أرض فلسطين ، و في ذلك خدمة للحضارة و المدنية . و هكذا كان لايحاء التاريخ فعله في رؤوس لويد جورج و كلمنصو و الجنرال اللنبي و الجنرال غورو الذين كانوا يرون في دخول القدس و دمشق تجديدا لتحركات اوربية تاريخية سابقة نحو الشرق العربي .

أما صهيونية تشرتشل فكانت تبدو في صورة أخرى . كان ونستون تشرتشل ينظر الى العرب دائما باستخفاف ، كان يرى أنهم متخلفون و أنهم لن يكونوا قادرين على نقل التكنولوجيا الاوربية الى فلسطين بألف عام . وهو لم يكن يتردد في مخاطبة العرب بقسوة جارحة .

ففي عام ١٩٢١ و كان آنذاك وزيرا للمستعمرات في الحكومة البريطانية ، قال لوفد عربي :

«ان الحكومة (البريطانية) ستنفذ وعد بلفور ، قلت لكم هذا مرة بعد مرة ، قلت ذلك لكم في القدس و أعلنته في مجلس العموم وأعود اليوم لأقوله لكم مرة أخرى ، ان الحكومة ستنفذ تصريح بلفور و ستفعل ذلك» .

كان تشرتشل كذلك ، يزين للعرب المستقبل المنتظر على أيدي الصهيونية ، كان يقول : ان انشاء وطن لليهود في فلسطين فيه خير لليهود و للعالم و للامبراطورية البريطانية و فيه خير للعرب» .

لقد ظن البريطانيون و انصارهم في الشرق العربي بما خططوا له ورسموه في الحرب العالمية الاولى أنهم جلبوا الخير و السلام الى الشرق العربي ولكن الحقيقة المرة تكتشف بعد الحرب العالمية الثانية ، فبانت حقيقة هذا الخير الموعود و السلام المشبوه الذي أدى الى اقامة (اسرائيل) و تشريد أهل فلسطين و نشر الدمار و الخراب من القناة الى لبنان و الجولان . لقد رسمت خريطة هذا الشرق العربي بأيدي اناس لم يكونوا يعرفون هذه المنطقة و شعوبها معرفة حقيقية على الرغم من جهود الرحالة و الباحثين المستشرقين الاستكشافية فكانوا المسؤولين عما يجري فيه الآن من أحداث جسام وما يتعقد فيه من المشكلات و المعضلات . لقد خرجت بريطانيا عسكريا من الشرق العربي بعد أن دقت فيه اسفينا شطر المشرق عن المغرب و بعد أن زرعت في جسم الوطن العربي جسما غريبا هو الكيان الصهيوني الاسرائيلي المفروض ، وهي تحمل وزرا لا تستطيع التنصل منه . و كان على العرب بعد ذلك مواجهة الحركة الصهيونية و الاستعمار الصهيوني لفلسطين و نتائجهما .

العرب والاستعمار الصهيوني في فلسطين :

لئن لم تستطع بريطانية الابقاء على احتلالها لفلسطين فقد صدق وعيد تشرتشل للعرب فنفذت بريطانية وعد بلفور و نقلت المسألة اليهودية المستفحلة في اوربة الى فلسطين و أُحيين في التعامل الدولي

مصطلحات تاريخية قديمة ربطت بمؤسسات دولية حديثة ورسمت حدود فلسطين التي وضعت تحت الانتداب البريطاني بوحي من رؤى توراتية ميثولوجية عدت من الحقائق التاريخية .

و قامت البعثات الاثرية و العلمية الأوربية لتنبش أرض فلسطين و لتبحث عن آثارها ولتعمل على ربط تاريخها بالتفسير الصهيوني السياسي للتوراة . و ترتبت على ذلك نتائج مقلقة على الصعيدين العلمي و الاعلامي .

و في ظل الانتداب البريطاني وجهت التنقيبات الاثرية و الدراسات اللغوية و التاريخية لخدمة المنظور الصهيوني للتاريخ القديم ووظفت الدراسات التوراتية اللغوية واللاهوتية لتأييد مادعي بالحق التاريخي لليهود في فلسطين في وقت كان ينظر فيه الى تاريخ العرب على انه التاريخ القريب منذ ظهور الاسلام او منذ العصر الجاهلي على أبعد تقدير .

و هكذا وضع التاريخ القديم في خدمة وعد بلفور و لتأييد الصهيونية السياسية ، فربطت حلقات التاريخ القديم بتاريخ بني اسرائيل و بمملكة اسرائيل ، و ما لايشكل الا حلقات محدودة من تاريخ الوطن العربي القديم العريق و العريض من وادي النيل الى بلاد الرافدين اذا نظرنا الى هذا التاريخ القديم نظرة شاملة و كلية و موحدة .

و لكن كما كانت تنسق الجهود لتقاسم النفوذ في الوطن العربي و تقسيمه سياسيا ، كانت تبذل جهود موازية لتجزئة التاريخ العربي و لفصل التاريخ القديم منه عن التاريخ العربي الاسلامي ، و كان تاريخ الامم تاريخ مرحلي مجتزأ مقتطع و ليس تاريخا عاما شاملا

لماضي الأمة بكل عصوره . فتاريخ بلادنا هو تاريخ حضارتها كلها بكل ما تعاقب عليها منذ أقدم عصورها حتى أيامنا هذه .

هكذا اوجدت قضية خاصة بفلسطين ما بين الحربين العالميتين وضعت في صيغة دولية منفصلة عن قضية سورية و لبنان التي نجمت عن فرض نظام الانتداب الفرنسي . و في أكبر عملية تزييف للتاريخ ربط تاريخ فلسطين ببني اسرائيل و بالمجتمع اليهودي في فلسطين و بالحركة الصهيونية الغربية و حسب . و تجاهلت مؤسسات علمية أكاديمية في الغرب عامة دور اقوام فلسطين القديمة ، و قلص الدور العربي الفلسطيني فيها .

و لتنفيذ هذه الصيغة أوجد في البلاد واقع جديد ، ديموغرافي و ثقافي و سياسي ـ اقتصادي ، نجم عن هجرة اليهود المنظمة من أوربة الى فلسطين ، واقامة المستعمرات و شراء الاراضي ، وفرض اللغة العبرية والتعليم العبري الى جانب تعليم الانكليزيةو العربية و الاعتراف بالوكالة اليهودية للتعامل مع حكومة الانتداب و هكذا أوجد لليهود واقع سياسي في فلسطينفرض على العرب مواجهته و التعامل معه .

ولم تجد المقاومة العربية في تغيير هذا الواقع على الرغم من المساعدات التي تلقتها المقاومة الفلسطينية من الدول العربية المجاورة بين عامي ١٩٢٠ ــ ١٩٤٧ و بعد الحرب العالمية الثانية اخذت القضية الفلسطينية تتجه في منحى جديد بعد انتصار الحلفاء و نظرا لتعاظم الدور الذي اخذت تحتله الوكالة اليهودية على الصعيد الدولي و بخاصة في الولايات المتحدة الامريكية . فما هي ملامح هذا التطور الجديد ؟ .

فلسطين في السياسة الدولية منذ الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم :

بعد الحرب العالمية و منذ صدور قرار عن الجمعية العامة للامم المتحدة (١٩٤٧) بتقسيم فلسطين الى دولتين عربية و يهودية و بخاصة بعد اعلان قيام دولة لليهود في فلسطين باسم دولة اسرائيل و بعد نشوب الحرب عام ١٩٤٨ أخذت فلسطين تحتل موقعا خاصا في قائمة المشكلات العالمية الكبرى . فلقد نجم عن موقف بريطانيا من فلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية وضع جديد . اذ اعلنت بريطانيا و هي الدولة المنتدبة التي ادارت حكومة فلسطين مدة ثلاثين عاما عملت على تدعيم الوجود الصهيوني اليهودي و اضعاف الوجود العربي ، عجزها عن الاستمرار في ادارة حكومة البلاد بعد اندلاع اضطرابات عنيفة قام بها العرب و اليهود على السواء ، فأعلنت قرارها بالتخلي عن مهمتها الانتدابية عام ١٩٤٨ كان هذا الموقف محسوبا لتمكين الوكالة اليهودية بأجهزتها المنظمة من السيطرة على مقدرات البلاد ، في وقت كان فيه العرب غير قادرين على القبض على زمام الأمور بعدما عانوا من قهر و عنت و اضطهاد على أيدي البريطانيين و الصهاينة و كانت بداية الكارثة في خلق ظروف أدت الى الطرد الجماعي للفلسطينيين. وهي ظروف خطط لها من قبل ثم اضحت جزءا من السياسة الاسرائيلية نفذت على مراحل و ترافقت مع الحروب العربية — الإسرائيلية .

أما الولايات المتحدة الامريكية فلم يكن لديها موقف واضح في البداية ولم تكن قد تبلورت أهدافها في المنطقة و لذلك لم تكن لها سياسة محددة تجاه الازمة الناجمةعن الموقفالبريطاني المعلن بالتخلي عن التهديدات ، فانه على الرغم من الدور الحاسم الذي قامت به

امريكا في الحرب العالمية الثانية فانه لم يكن بقدرتها على اعتراف جون كامبل : The U.S. in the World Affaire 1947/48
ان تفرض سلاما شاملا في العالم بعد انتهاء الصراع العالمي الطاحن عام ١٩٤٥ و كانت الامم المتحدة منظمة دولية ناشئة ، ولم تكن آنذاك في وضع يمكن من اتخاذ موقف حازم نظرا لاختلاف السياسات الدولية و لتباين اتجاهات الدول الاعضاء في المنظمة .

و من الطبيعي أنه كان لابد في خلفية أي قرار في المنظمة الدولية من تقدير الابعاد الاستراتيجية و السياسة الدولية لكل من الكتلتين السوفياتية و الغربية . ولم يكن لفلسطين آنذاك موقع هام في الصراع بين الكتلتين الدوليتين اللتين تكونتا بعد الحرب ، كما كان لبعض مناطق أوربة (كاليونان مثلا) ، و كورية و الهند الصينية . ولم يكن للعرب ثقل سياسي — اقتصادي يمكن ان يحسب له أي حساب في موازين القوى قبل دخول النفط سوق السياسة الدولية .

و لذا لم يكن من المستحيل آنذاك حدوث تفاهم بين الولايات المتحدة الامريكية و الاتحاد السوفياتي حول هذا الموضوع المصيري بالنسبة للعرب ، و الجانبي بالنسبة للاخرين . هكذا أيد الطرفان انطلاقا من وجهتي نظر مختلفتين التوصية الدولية بتقسيم فلسطين في الجمعية العامة للامم المتحدة في تشرين الاول ١٩٤٧ على اساس ان القرار تسوية لاحدى نتائج الحرب ، ولكن تفاهمهما لم يستمر حتى تنفيذ تلك التوصية . كما يلاحظ أن أمريكا و بريطانيا لم تتمكنا من الاتفاق حول تطبيق سياسة واحدة تجاه فلسطين في تلك المرحلة

التي كان يحكم فيها حزب العمال البريطاني الذي كان بين زعمائه البارزين من كان يؤيد الجانب العربي كوزير الخارجية ارنست بيفن .

ولم يستطيع العرب آنئذ الافادة من بعض الفرص المتاحة فقد بقي موقفهم ضعيفا على الصعيد العسكري و السياسي و الدولي و بقي يستند الى التعامل مع القوة الدولية التقليدية المتراجعة في المنطقة وهي بريطانية ومع حلفائها من العرب بينما كانت القيادة الصهيونية تقتحم أبواب الولايات المتحدة الامريكية وأبواب مفاتيح اتخاذ القرارات الدولية في مجلس المنظمة الدولية للامم المتحدة .

لهذا كانت نتائج الصراع العربي ـ الاسرائيلي في ظل انعدام التوازن الذي كان ملحوظا على الساحة الفلسطينية و خارج فلسطين سلسلة من التراجعات و الانتكاسات الناجمة من الطرف العربي منذ ١٩٤٨ أدت الى نقل الصراع العربي ـ الصهيوني الى مستوى آخر على الصعيدين الاقليمي و الدولي .

على أن العرب خاضوا بعدئذ عام ١٩٧٣ أول حرب حقيقية مشرفة في تاريخهم الحديث ، و في هذا الصراع العربي ـ الصهيوني على الجبهتين المصرية و السورية و بتأييد عسكري اقتصادي ـ سياسي عربي استخدم فيه لأول مرة البترول العربي عاملا في دعم الموقف العسكري و السياسي . ولكن الانتكاسات التي وقعت في الايام الاخيرة من الحرب ، قلصت النتائج الباهرة للانتصارات العربية التي تحققت في الايام الاولى ، وتحولت الحرب من حرب تحريرية كما أريد لها في البدء الى حرب تكتيكية محدودة الاهداف لتغيير الخريطة التي نجمت عن حرب ١٩٦٧ لمصلحة الطرف العربي .

لكن انقسام الموقف العربي و انشطار القيادة العربية بعد المبادرات المنفردة للرئيس المصري السادات و اقدامه آخر الامر على عقد الصلح مع العدو الصهيوني (اسرائيل) قلب الوضع رأسا على عقب و اضطرت الدول العربية المحاربة الى القبول بخطوط جديدة في سيناء و الجولان حلت محل خطوط الهدنة المرسومة سابقا .

و بعد ان تمكنت اسرائيل من تهدئة الجبهة المصرية نهائيا ، نقلت كل فعالية قواتها الى الجبهة الشمالية الى الخطوط السورية — اللبنانية التي تمثل الخطوط الحقيقية في المواجهة التاريخية العربية — الصهيونية . و كانت ذروة التحدي الصهيوني للعرب كلهم ، في اجتياح لبنان عام ١٩٨٢ . و قد أفلت لبنان ببسالة المقاومة و بموقف سورية الحازم و الحاسم من قيود المعاهدة التي فرضت عليه ، ليدخل بعد ذلك في اتون صراع داخلي ماحق و فاجع لما يخرج منه بعد ، و لاسرائيل وعملائها دور فيه .

بعد هذه التطورات المتلاحقة منذ مطلع هذا القرن ما هو الواقع الراهن الآن ؟ لقد نجم عن سلسلة الحروب و المواجهات العسكرية العربية — الاسرائيلية النتائج التالية :

تم تنفيذ المشروع الصهيوني بالفعل ، و أقيمت (اسرائيل) على الارض العربية ، محققة بالنتيجة انتصارات استراتيجية تجاوزت كل التوقعات و الاحتمالات السابقة :

— واجهة عريضة على البحر المتوسط تصلها بأوربة .

— سيطرة على مصادر المياه في شمال البلاد .

ـ نافذة على خليج العقبة والبحر الاحمر تؤدي الى المحيط الهندي و تفتح الطريق الى افريقية و الشرق الاقصى .

ـ سيطرة عسكرية على كل مرتكزات الدفاع العربي بالوصول الى قناة السويس و المرور عبر مضيق باب المندب و السيطرة في وادي الاردن و احتلال جنوب لبنان و مرتفعات الجولان .

وأخيرا شطر فعلي للوطن العربي باقامة حاجز جيوسياسي بين مشرق الوطن العربي و مغربه .

أما الجانب العربي فقد أخفق في معالجة القضية الفلسطينية اخفاقا ذريعاً و تكبد في الصراع خسائر اليمة . اذ ظل نظام الدفاع العربي المشترك المعلن عام ١٩٥٠ حبرا على ورق ، لأن الدول العربية التي كانت آنذاك مقيدة بارتباطات دولية مختلفة لم تستطع التوجه الى أي اتحاد استراتيجي فعال ، بل ان دول الغرب زادت من تدخلها وأعلنت في البيان الثلاثي البريطاني ـ الامريكي ـ الفرنسي (١٩٥٠) رداً على معاهدة الدفاع العربي المشترك ، ضرورة الابقاء على الوضع القائم آنذاك ، أي على الحدود الناجمة عن اتفاقيات الهدنة التي تمنح اسرائيل مكاسب عسكرية تتجاوز الحدود المرسومة لها في قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين . و أيدت هذه الدول نفسها اسرائيل في الحصول على مكاسب اخرى في أعقاب كل من الأزمات الدولية التي توالت على المنطقة : بعد العدوان الثلاثي على قناة السويس ١٩٥٦ و بعد عام ١٩٦٧ و بعد عام ١٩٧٣ و بعد اجتياح لبنان ١٩٨٢ . وأسقطت الوحدة العربية بين مصر و سورية بعد تجربة فاشلة بين (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) ولم يستطع العرب بعد ذلك تعويضها رغم المحاولات المتكررة .

و فشل المشروع العربي لتحويل مياه نهر الاردن في الستينات بينما قدمت كل المساعدات الدولية لانجاح المشروع الاسرائيلي بالسيطرة على شبكة المياه في فلسطين و نقل المياه الى النقب .

و في خضم هذه التقلبات الخطيرة التي تمس الأرض العربية ومصيرها بصورة مباشرة تكشف مدى ضعف الكيان السياسي الفلسطيني الذي استمر حتى ١٩٦٥ . فلم تكن اللجنة التنفيذية السورية الفلسطينية ولا الهيئة العربية العليا في مستوى الوكالة اليهودية في زمن الانتداب ولم تستطع حكومة عموم فلسطين ان تواجه حكومة اسرائيل المعلنة في ١٩٤٨ . و نجم عن هذا الفراغ السياسي ــ العسكري الفلسطيني وضع قطاع غزة تحت الادارة المصرية وضم الضفة الغربية الى شرقي الاردن و تشكيل المملكة الاردنية الهاشمية . و بذلك تم تفتيت فلسطين و محو اسمها من الخريطة السياسية .

اما الانجاز الايجابي الوحيد الذي تحقق بتضافر جهود عربية و بتأييد مصر و سورية بصفة خاصة فهو انشاء منظمة التحرير الفلسطينية التي أصبحت الهيئة الدستورية و الدولية التي عملت على لم شتات الشعب الفلسطيني الشريد و أضحت تعبيرا عن وجوده السياسي و كيانه المعترف به دوليا و هويته الوطنية في مواجهة الاغتصاب الصهيوني .

الانتفاضة :

و أخيرا بعد أربعين سنة من انشاء (اسرائيل) و بعد عشرين سنة من كارثة ١٩٦٧ و بعد خمس سنوات من اجتياح لبنان و تقويض قواعد منظمة التحرير الفلسطينية فيه عام ١٩٨٢ أعلنت انتفاضة الشعب العربي الفلسطيني في الاراضي العربية الفلسطينية عام ١٩٨٧ .

وجاءت هذه الانتفاضة المعجزة لتخاطب المحتل الاسرائيلي والعالم كله بأسلوب جديد مستوحى من ذكريات الكفاح القديم بالحجارة و حسب للمطالبة بحقوق انسانية و سياسية و بتحرير الارض الفلسطينية المحتلة و بتحرير الشعب الفلسطيني من ربقة الاحتلال و نير الاضطهاد ردا على جهود الصهيونية و حلفائها من اجل تدمير البنى الاساسية الذاتية للمجتمع الفلسطيني ، و تبلور النضال المتواصل الدامي و الصامد في مشروع سياسي يهدف الى تأسيس دولة فلسطينية على أرض فلسطين على أساس القرارات الدولية من قرار التقسيم ١٨١ الى القرارات الصادرة بعد ذلك و بخاصة القرار ٢٤٢ .

وعلى الرغم من الجهود الديلوماسية المبذولة الآن من أجل ايجاد ظروف دولية يمكن ان تؤدي الى انصاف الشعب العربي الفلسطيني والاعتراف بحقوقه الدولية المشروعة فان الاوساط الصهيونية تسعى الى تحجيم القضية الفلسطينية لتصبح موضوع الخلاف المطروح حالياً هو طريقة تنظيم انتخابات في الضفة الغربية وقطاع غزة ، أي فيما تبقى للعرب في فلسطين .

ان الموقف الاسرائيلي الان يتلخص في العمل على اخماد الانتفاضة الفلسطينية بالقمع وبمحاولة زرع الانقسام وبذر الشقاق في الصفوف للابقاء على المعادلة الجيوسياسية القائمة التي تضع (اسرائيل) في موقع متفوق ومسيطر .

والخلاصة ان الواقع الجيوسياسي — (الجيوبوليتيكي) هو كما يلي :

اذا نظرنا اليه من الجانب الاسرائيلي : نرى انه بعد سبعين عاما من

اتفاقيات سايكس – بيكو ووعد بلفور ، تقوم الآن دولة يهودية تحتل كل أرض فلسطين وأراض عربية أخرى ، وتتمتع باعتراف دولي على الرغم من اعتداءاتها وتجاوزاتها وقد استطاعت ان تغير لمصلحتها خطوط الهدنة مع مصر الى حدود دولية معترف بها من الطرفين مع اقامة نظام أمني دولي .

ان هذه النتيجة التي توصلت اليها اسرائيل في علاقاتها مع مصر هي النموذج الذي ترغب بتطبيقه مع الدول العربية الاخرى المحيطة بفلسطين .

أما اذا نظرنا الى هذا الواقع من الجانب العربي لرأينا دولا عربية متعددة مختلفة الأنظمة وحدودا اقرب ما تكون الى الحدود المقترحة في اتفاقيات سايكس – بيكو وتطبيقاتها في فترة الانتداب البريطاني – الفرنسي . وقد كشفت التجربة المريرة في لبنان عن درجة صعوبة أي تغيير سياسي جذري في الخارطة المرسومة التي اتفق عليها في الأوساط الدولية المتحكمة في توازن القوى المحلية والاقليمية .

هكذا تبدو الوقائع حتى الآن .

فما هو المستقبل المنظور ضمن المعطيات القائمة ؟

اننا لا نحتاج الى مهارة السحرة وبراعة المنجمين لكي نستطلع المستقبل المنظور ، ولكن التعريف ببعض المعطيات وتصنيفها وتذكر ما يدور في هذه المرحلة ، كل هذا قد يساعد على الدلالة على بعض المؤشرات الى المرحلة المقبلة على الطريق الطويلة التي تسير فيها الحركة العربية بين الايديولوجيات النظرية والواقع الجيوسياسي الراهن .

لقد قامت كل جهود الحركة الصهيونية على السعي لانشاء (دولة اسرائيل) على كل ما يدعى بأرض اسرائيل ، وهي فلسطين ، التي اعترفت بحدودها عصبة الأمم ، المنظمة الدولية التي كانت قائمة بين الحربين العالميتين والتي وضعت تحت الانتداب البريطاني وأقيمت فيها حكومة فلسطين التي كانت تديرها بريطانية .

ثم تطورت جهود الحركة الصهيونية من السعي الى الحصول على وطن قومي للمهاجرين القادمين الى تأسيس دولة اكتسبت اعترافا واقعياً ودولياً ، ولكن في الايديولوجية الصهيونية بقيت حدود الدولة المكتسبة أقل من حدود (الوطن القومي) الذي قد يمتد عند الاتجاهات المتشددة ليشمل ما بين الفرات والنيل .

ومن هنا تأتي مؤشرات الخطر المقبل .

أما جهود الحركة العربية فقامت بالمقابل بالسعي لمنع انشاء اسرائيل ، وبدلا من ذلك لاقامة دولة فلسطين على كل فلسطين . ومن أجل هذا رفضت الحلول المبنية على أساس التقسيم والتي طرحت منذ عام ١٩٣٧ .

لكن الحركة الصهيونية نجحت في تأسيس (دولة أسرائيل) التي أقيمت على الأراضي التي خصصت للدولة اليهودية في قرار التقسيم رقم١٨١لعام١٩٤٧ثم وسعت حدودها في الحروب المتتابعة حتى ضمت سلطتها اداريا وعسكريا كل فلسطين وأراضي عربية في سورية ولبنان .

ولم يتمكن العرب الفلسطينيون من تأسيس دولتهم في فلسطين على الرغم من امتلاكهم لنفس الأساس القانوني الدولي الذي مكن السلطات الصهيونية من اعلان (دولة أسرائيل) عام ١٩٤٨ .

أما على الصعيد العربي ،فهناك فارق كبير يشكل عبئا كبيرا على كاهل الأجيال العربية ومسؤولية مرهقة في التربية السياسية العربية بين الايديولوجيات السياسية التي تنادي بوطن عربي كبير وبين التعدد السياسي الذي يتمثل في وجود دول عربية تجمعها منظمة اقليمية قومية هي جامعة الدول العربية .

وأما على الصعيد الفلسطيني فان اتخاذ موقف من المفارقة المثيرة بين الايديولوجية النظرية والواقع المتاح ، فهو أمر في غاية الصعوبة ويسبب في النفس تمزقا مؤلماً . فهناك وطن محتل هو فلسطين كلها ، وهناك مشروع متعثر أيضاً لإقامة دولة على جزء من هذا الوطن هو ما يعرف بالضفة الغربية وقطاع غزة .

فكيف يمكن الخروج من هذا التمزق الفكري ؟ كيف يمكن ان ينتهي هذا الصراع الحربي السياسي الذي اضحى تاريخاً ؟ ويوشك ان يمضي عليه ما يقرب من قرن ، ليس عندي بالطبع من جواب ، ولكن اذا عدنا الى النظرة الثاقبة في تنبؤات نجيب عازوري حول الصراع العربي — الصهيوني ، ألفينا انفسنا أمام المرحلة الحاسمة من الصراع بين الحركتين الصهيونية والقومية العربية على المنطقة العربية .

نحن الآن أمام موقفين متعارضين تجاه الوطن والأرض والتاريخ والدولة في فلسطين . فالصهيوني الاسرائيلي يرى حدود (أرض اسرائيل) أوسع من حدود (دولة اسرائيل) ولذا فهو يريد المحافظة على الوضع الراهن بل توسيع حدوده ان استطاع الى ذلك سبيلا .

أما العربي الفلسطيني فهو يرى حدود وطنه حدود كل فلسطين التي

هي أوسع من حدود الدولة الفلسطينية المقترحة في مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧ ، والتي هي أقل بكثير مما تبقى من الأرض الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد ان وضعت السلطات المحتلة يدها على أراضي أملاك الدولة = ٣٤٪ من مساحة الضفة الغربية وبعد ان توسعت في انشاء المستوطنات والمستعمرات . فكيف يمكن التفاهم تجاه هذا الواقع؟ .

ان تغيراً جذرياً يمس المبادىء الايديولوجية التي حركت العمل السياسي للعرب خلال هذا القرن أخذ يتطور ويتشكل بالتدريج في الموقف الرسمي المعلن للدول العربية (قرارات مؤتمر فاس مثلا) ثم في الموقف الفلسطيني الرسمي المعلن أولاً في المؤتمر الوطني في دورته المنعقدة في الجزائر والمؤيد بقرارات مؤتمر قمة الرباط . وهو موقف تبلور على اساس القبول بدولتين في فلسطين ، لتصبح هذه البلاد وطنا مزدوج التسمية ، فلسطين عند العرب واسرائيل عند الاسرائيليين وبدولتين وحكومتين . وقد نشرت في الفترات الأخيرة ، وفي اطار تصورات مستقبلية لتسوية سياسية للصراع العربي — الصهيوني ، أفكار منها انه سيكون مقبولا اقامة يهود من المستوطنين في دولة فلسطين كما يقيم فلسطينيون في (دولة اسرائيل) الا ان الأمور ليست بهذه الدرجة من البساطة . ولا بد من تصور حلول للمشكلات التي سيطرحها أي وضع جديد للعلاقات بين دولتين في فلسطين وبينهما وبين الدول العربية المجاورة .

ان تأسيس دولة فلسطينية عربية على رقعة ما من ارض فلسطين ، وهو أمر ليس قريب المنال ، اذا ما أقر دوليا ، ستترتب عليه ممارسة

السيادة على الأرض والاعتراف بهوية فلسطينية ، وبجواز سفر فلسطيني. ولكن سيكون عندها من اللازم تحديد من هو مواطن في هذه الدولة ومن سيكون له حق المواطنة . كما ستطرح مشكلات أخرى كانت لعشرات السنين محل نزاع مرير كالأمن والمياه والمواصلات والتجارة والعلاقات المالية وحقوق الملكية الشخصية والأماكن المقدسة وهي كلها أمور جوهرية يتحكم العدو الغاصب بقوة الاحتلال بمعظم مفاتيحها .

لكن السؤال الذي ما يزال مطروحاً وليس من جواب واضح بعد : هل ستقبل اسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية أيضاً باقامة دولة عربية فلسطينية ؟ فالواقع الاسرائيلي الراهن هو محصلة عسكرية — سياسية لجهود الحركة الصهيونية وبرنامجها السياسي المرسوم وفي هذه الحركة متشددون يرفضون أي شكل من أشكال السيادة العربية في غربي الاردن وغزة ، أو أن يكون للفلسطينيين أي حق في رموز الدولة ومؤسساتها الداخلية والخارجية وفي أن يكون لهم شعار أو علم . ولكن الى متى سيستمر هذا الموقف ؟ وماذا سيستطيع العرب فعله لمواجهته ؟ وماذا سيستطيعون استرداده من اسرائيل في آخر الأمر ؟ واذا ما انسحبت اسرائيل عسكريا واداريا فالى أية خطوط وإلى أية حدود ؟

وهناك فوق ذلك للصهيونية الغازية تصورات وخطط مرسومة لتنظيم الأمن الأقليمي ولتحديد مناطق منزوعة السلاح قد تشمل الدولة الفلسطينية المقترحة كلها (مشروع آلون لعام ١٩٧٠ يعطي العرب نوعا من الادارة الذاتية في مناطق غير متصلة ويقضي بانشاء مستوطنات على طول نهر الأردن) . وهو اساس الاستراتيجية الاسرائيلية .

وهناك مشروعات اسرائيلية أخرى لرسم مستقبل الضفة الفلسطينية تم تنفيذ جزء كبير من مراحلها منها :

مشروع ديان – فايزمان ١٩٧٨ – ١٩٧٩ لربط العرب باقتصاد المجتمع اليهودي الاسرائيلي بتوسيع شبكة المواصلات وتنظيم الاستيطان والعمل والاستخدام . وقد نفذ جزء كبير منه . ومشروع شارون ١٩٨٢ الذي يعد أكثر المشروعات تشددا ويهدف الى التوسع ببناء المستوطنات واستيعاب المهاجرين في كل الأراضي المحتلة . (وشارون هو الان وزير الاسكان والمسؤول عن استيعاب حركة الهجرة) .

فكل المشاريع الصهيونية انما ترمي الى تنفيذ صيغة لما يسمى (أرض اسرائيل) أو اسرائيل الكبرى باستيعاب الهجرة الصهيونية الجديدة لترسيخ أقدام الاحتلال الصهيوني وتقوية ملامح الدولة اليهودية ، التي يقلقها العامل الديموغرافي في الصراع العربي – الصهيوني وقد جاءت التغييرات الجديدة في النظام السوفياتي واوربة الشرقية لتقديم الفرصة المناسبة للحركة الصهيونية لدفع اليهود من مواطني الاتحاد السوفياتي ويقدر عددهم بثلاثة ملايين الى الهجرة الى فلسطين . فاذا ما نجحت القيادة الصهيونية في ادخال مئات الألوف من اليهود الاوروبيين المنظمين والمتعلمين والمدربين على مهارات وفنون واختصاصات مختلفة ، فان عاملا جديدا سيدخل في السنوات القادمة لا في ميدان الصراع الصهيوني – الفلسطيني وحسب بل في الصراع العربي الصهيوني .

وعلى الرغم من كل هذه العوامل المثيرة للقلق فان آراء تطرح في الغرب (ماكس زينغر Max Singer) مثلاً ، مفادها أنه لو كان الفلسطينيون وحدهم أعداء اسرائيل لكان السلام ممكناً . ولكن هل

من الممكن انكار البعد العربي ، لهذا التحدي الصهيوني بعد أن استفحل الخطر الصهيوني ليتجاوز حدود فلسطين الدولية وليخلق عاملاً دولياً مؤثراً في أحداث المنطقة ومهدداً لأمنها ؟ .

لقد أقيمت (اسرائيل) على أرض فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية بتفاهم دولي بين أمريكا وحلفائها من جهة وروسية السوفياتية من جهة أخرى والآن إذا كان تقرر تنظيم مفاوضات دولية لاقامة (دولة فلسطين) على أرض فلسطين فانها لن تقام كذلك إلا في وسط التفاهم الدولي الذي يشهده العالم المتغير اليوم .

فبعد الانتفاضة الفلسطينية الباسلة وبعد المقاومة العربية في فلسطين ولبنان ، وبعد أن اتضحت مقدرة العرب على المواجهة منذ عام ١٩٧٣ ، لابقاء الوضع الدولي الاقليمي مزعزعاً ، ولمنع فرض أي حل خارجي دائم كالنجاح في اسقاط المعاهدة الاسرائيلية ــ اللبنانية) ، فانه بعد من المتوقع التوجه إلى حل سياسي للقضية الفلسطينية خلال السنوات القادمة بناء على المعطيات التالية :

إن اسرائيل لن تستطيع بعد الآن على الرغم من القمع الشرس استرداد سيطرتها التامة على العرب الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة .

إن إدارة فلسطينية فعلية قائمة الآن في المناطق المحتلة ، على الرغم من وجود إدارة اسرائيلية . وان اسرائيل لن تستطيع الاحتفاظ بصفة المحتل في بلد يقاوم أهله الاحتلال أمام أنظار المجتمع الدولي كل يوم في انتفاضة رائعة دخلت عامها الثالث .

وأمام هذا الواقع الراهن فإن الولايات المتحدة الامريكية تتحرك في هذه المرحلة بفعالية أكبر نحو البحث عن حل دبلوماسي – سياسي بعد أن خلا الجو لتحركاتها على المستوى الدولي .

فكيف يبدو هذا الموقف الامريكي في ضوء المعطيات التاريخية أيضاً؟

لقد زرعت بريطانيا الوطن القومي اليهودي في فلسطين وقامت الولايات المتحدة الامريكية بما تملكه من قوة عسكرية واقتصادية هائلة برعاية الدولة اليهودية وحمايتها وتقويتها لتصبح قوة اقليمية ثم آلت كل التطورات إلى القبول بالولايات المتحدة طرفاً في النزاع بل شريكاً وحكماً للتوصل إلى حل دائم فماذا ستقدم أمريكا للعرب ؟

في كتاب للأستاذ الجامعي ستيفن شبيغل حول صياغة السياسة الامريكية تجاه مسألة الصراع العربي – الاسرائيلي يحلل المؤلف تطور السياسة ببراعة وبصورة مثيرة يمكن تلخيصها كما يلي : ... ( )

في أيام الرئيس ترومان كانت فلسطين في قلب القضية العربية ولكنها بالنسبة للسياسة الامريكية كانت تقع على هامش المشكلات الدولية .

وفي زمن الرئيس ايزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دلاس استطاعت أمريكا إبعاد القوى الدولية الاستعمارية التقليدية من الوطن العربي بالدخول في أزمة السويس وفي حل النزاع الجزائري – الفرنسي ، وكانت المسألة الفلسطينية جزءاً محدوداً من حل أمريكي ضمن الاستراتيجية الغربية الموجهة للتصدي للاتحاد السوفياتي وتجلت في مشروعات لتوطين اللاجئين ولتنظيم الأمن الاقليمي في أحلاف عسكرية .

أما موقف الرئيس كيندي فكان تجميد البحث عن حل . وانصرفت أمريكا أيام الرئيس جونسون إلى فيتنام . ووضعت الدبلوماسية الامريكية في الشرق الأوسط بعد ذلك بين يدي الدكتور هنري كيسنجر الذي أضحى واحداً من أهم الدبلوماسيين الاستراتيجيين الذين أثروا في رسم خارطة المنطقة بعد سايكس – بيكو وتشرشل ، ومهّد الطريق للسير في البحث عن حل دائم أيام الرئيس كارتر الذي كان عرّاب ديفيد والصلح بين مصر واسرائيل عام ١٩٧٩ .

لقد مضى عقد من السنين على هذه التطورات ومرت خلال ذلك أحداث كثيرة كان مسرحها لبنان وفلسطين ، لكن السياسة الامريكية بقيت خلال هذه السنوات هي نفسها وهي تقوم على مباديء مرتبة كمايلي :

١) – المصالح الاستراتيجية الامريكية والغربية تجاه السياسة السوفياتية في المنطقة العربية .

٢) – الوقوف بوجه الدول العربية التي تعد متشددة وتوصف بالراديكالية .

٣) – التهيئة لموقف عربي يقترب من التصور الامريكي لحل ما يسمى بمشكلة الشرق الأوسط المركبة من القضية الفلسطينية – الاسرائيلية ، والخليج العربي وأفغانستان .

٤ – أمن اسرائيل وحماية وجودها .

إن امريكا تضع مصالحها الاستراتيجية في المرتبة الأولى ولكن

اسرائيل عملت على رفع أمنها إلى مرتبة المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة الامريكية .

وفي ضوء هذه المعطيات تبين لنا أن امريكا لم تستطع لا بالتدخل المباشر ولا بالتدخل الدبلوماسي أن تفرض حلاً سياسياً لما يدعى بمسألة الشرق الأوسط حتى الآن . ولكن ما جرى منذ صيف ١٩٨٩ وما أطلق من مبادرات من أطراف الصراع المختلفة والمتدخلة فيه ربما يوحي بالتوجه إلى إيجاد صيغة ما للبحث عن حل انتقالي يقتصر في المرحلة الراهنة على الاتفاق على من يمثل فلسطين في مفاوضات قادمة .

هل ستؤدي التغيرات الملموسة في الجو الدولي ومظاهر التفاهم الامريكي السوفياتي في مالطة وما بعدها ، ثم التحولات التدريجية التي تتلاحق من بعض الأطراف المعنية للقبول بأسس متفق عليها للمفاوضات ، إلى السير وراء أمريكا التي تقوم في آن واحد بدور المحرك والحكم ، لفتح الطريق إلى مفاوضات مباشرة بين الاسرائيليين والفلسطينيين ، ثم للتوجه إلى عقد مؤتمر دولي لمناقشة الصراع العربي — الصهيوني برمته ونتائجه .

فاذا ما تحقق ذلك في قابل الأيام هل سيشهد بعد ذلك تحركاً ملموساً لحل واحدة من أعقد المشكلات الدولية في التاريخ ، مشكلة الصراع على الأرض العربية الفلسطينية ؟ إنه إذا ما تحقق شيء من ذلك وهو أمر لا تلوح تباشيره إلا من خلال ضباب كثيف فانه سيكون خاتمة للصراع العربي — الصهيوني في قرن مضى ، في القرن الأول من هذا الصراع ، وسيكون على العرب أن يستعدوا لمواجهة ما يخبئه لهم القرن القادم .

هل ستتجه اسرائيل إلى التنازل عن الصهيونية كما يطالب العرب بالتنازل عن مبادئهم وأهدافهم ومواثيقهم ؟ ستبقى اسرائيل الصهيونية دائماً أسيرة طبيعة تكوينها ؟ فقد جاء المشروع الصهيوني الاستيطاني مترافقاً مع الاحتلال العسكري الاوربي لبلاد العرب ، وقد أريد لهذا المشروع وللكيان الذي نجم عنه أن يكون صيغة جديدة للهيمنة على الأرض العربية « الجديدة القديمة » التي حلم بها مؤسسو الصهيونية ، وقد أوجدت كل الوسائل لبناء هذا الكيان وللمساعدة على تقويته مادياً وبشرياً وعسكرياً . ومن أجل تكوين فكرة صهيونية كبرى قاعدتها (اسرائيل) في فلسطين عملت الحركة الصهيونية بكل مؤسساتها وبخاصة جهازها الفعال ، المنظمة الصهيونية العالمية ، على تحقيق هدفها الكبير وهو احتواء اليهودية العالمية وفرض المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية أولاً ثم (دولة اسرائيل) ممثلا لكل اليهود في العالم . وبهذا المنطق ومن هذا المنطلق فرضت اسرائيل على المانيا الممزقة لكي تقبل ممثلاً لليهود في مفاوضاتها مع حكومة المستشار اديناور بعد الحرب للحصول على تعويضات حرب ، هي أكبر تعويضات حرب دفعت للمنتصرين : ١٨ مليار مارك . وهو مبلغ هائل في الخمسينات كان عاملاً أساسياً في تكوين الأسس البنيوية للدولة الصهيونية .

وبهذا المنطق نفسه تفرض اسرائيل نفسها في أيامنا هذه ناطقاً باسم اليهود في العالم للحصول على تعويضات حرب من المانيا الديمقراطية ، ولفرض وصايتها على اليهود في الاتحاد السوفياتي ، والتدخل أمام الحكومة السوفياتية للتحدث معها باسمهم . وهكذا لم يعد اليهود في العالم طوائف دينية يحمل المنتمون إليها جنسيات البلاد التي يقيمون فيها بل جاليات يهودية وكأنهم رعايا (دولة اسرائيل) المنتشرين في أنحاء العالم .

إننا إذا كنا ننظر إلى سجلات الماضي لاستقرائها فلكي نفتح عيوننا ببصيرة على المستقبل القادم الذي سيطل بألوان جديدة وصيغ جديدة فهل سيكون بوسع العرب في العقد الأخير من هذا القرن العشرين الوصول فيما بينهم إلى صيغة حقيقية للأمن العربي القومي في ظل جامعة عربية حقيقية وفعالة للحد من تمادي التحدي البشري العلمي الصهيوني المتعاظم لمواجهته بالوحدة كما يتحدانا هو بالوحدة ، ولتمهيد السبيل إلى مستقبل آمن ومطمئن للعرب في بلادهم ، ولمحو آثار خطوط سايكس - بيكو التي مازلنا نتمسك بها ونحميها ؟ لكي تتحقق آمال الأجيال العربية بالوحدة العربية المنشودة في وطن عربي حر منيع يحتضن مواطنين عرباً أحراراً أعزة في بلادهم .

إن الزمان يتحرك والتاريخ يرصد هذا التحرك الذي نعيش بعض أشد مراحله حرجاً فهل سنشهد نهاية هذا القرن العشرين نهاية للمشكلات التي نجمت عن التسويات الدولية التعسفية التي رسمت في أعقاب الحربين الأولى والثانية في المشرق العربي ، كما يجري مثلاً بين الالمانيتين ، وهل سيكون للحق والعدل مكان في عالم الغد أم أننا بمواجهة طوباويات جديدة ؟

إننا إذ نتطلع إلى الحاضر والغد بقلق وترقب وحذر واحساس شديد بالخطر لمواجهته بالعلم والمعرفة والتخطيط السليم والاستعداد الشامل ، فان الأمل الكبير يحدونا بأن الشعوب إذا ما استفاقت واستيقظت عندها إرادة الحياة ، فلابد أن يستجيب القدر .

(دمشق) ١٩٨٩ - ١٩٩٠

* * *

علوم الفيزياء :

دانتي وغاليليو واينشتاين

د . بوريس كوزنيتوف
ترجمة : شاهر عبيد
عن مجلة العلوم الاجتماعية

من بين الثلاثة العظام — دانتي وغاليليو واينشتاين — يمثل الأخير تصوراً حديثاً محدداً لاسترجاع نظرية الكم النسبية ، في محاولة لاستقراء الماضي وصولاً إلى مقدمة العلم الكلاسيكي ، في ضوء أفكار غير كلاسيكية جديدة . هذه المحاولة إجابة عن تساؤل يتصل بالرجلين الأولين من هؤلاء الثلاثة .

ترى ما الذي جمع بين دانتي وغاليليو ؟ ما هي الفكرة التي سرى مفعولها من عصر ما قبل النهضة إلى ما بعده ، لتوحّد مصادر هذا العصر مع علوم القرن السابع عشر الكلاسيكية التي نجمت عنها ؟

إن من يرمي إلى الإحاطة بجواب عن هذا التساؤل في ضوء معطيات العلوم الحديثة لابدّ له أن يرد على السؤال الأعم حول الطبيعة الثابتة للأفكار الخاصة بالمكان والزمان والحركة ؛ عليه أن يبحث في الصورة السائدة للكون ، التي تنتقل عبر تاريخ الفكر البشري من « الكوميديا الإلهية » إلى نظرية اينشتاين النسبية .

في بواكير القرن العشرين جرت محاولات لتقريب الفكر الكوني عند دانتي من الأفكار التي قدمتها الهندسة اللااقليدية ، كما حدث لاحقاً ، بصورة غير مباشرة هذه المرّة ، ومن النظرية العامة للنسبية . إن الهندسة اللااقليدية في كوميديا دانتي الإلهية كانت موضوعاً تناوله فيبر Weber عام ١٩٠٥ وسيمون عام ١٩١٠ .

وفي عام ١٩٢٢ طابق فلورنسكي في عمله بعنوان « الخيالي في الهندسة » بين فراغ اينشتاين الأولي والفراغ الذي عاد منه دانتي بعد رحلته العيانية وحيدة الإتجاه ، التي زار فيها الجحيم والمطهر والجنة وعاد منها إلى نقطة البداية . وتقويم هذا الكون عند دانتي يستبعد العلم الكلاسيكي في مفهومه الإقليدي عن الفضاء ، ويجعل اسم غاليليو Galileo غريباً عن الثالوث المذكور . كان هذا التحول في الواقع متصلاً على أية حال ؛ كان تصوراً عاماً للبرهنة على ما هو ثابت Invariant . ويعود السبب في ذلك إلى أن الفضاء عند غاليليو كان دائرياً أيضاً بمعنى من المعاني : فالكواكب تدور حول الشمس في مدارات دائرية إذا تركت وشأنها (لم يكن غاليليو عارفاً بنظرية الجاذبية) . وفي مؤلفه « حوار » Dialque ، يقول غاليليو إن حركة العطالة منحنية ، وليست مستقيمة . وينتج عن مبدأ غاليليو في العطالة الكونية

الدائرية أن الفضاء متماثل على طول مدار الكوكب ، وهذا كل شيء . إن تماثل الفضاء (على طول المدارات الدائرية في نظر غاليليو ، وعلى طول المسار المباشر للجسم الحرّ الحركة عند ديكارت) هو أكثر التصورات عمومية في العلم الكلاسيكي . فالفضاء الدائري الذي تتحرك فيه الكواكب يراه غاليليو متماثلاً .

أما بالنسبة إلى ديكارت ونيوتن فان الفضاء الإقليدي ثلاثي الأبعاد هو المتماثل . ويعبر عن هذا التماثل في الفضاء بمصونية الدافع ، في حين يعبر عن التماثل في الزمان بمصونية الطاقة Conservation of Energy وغير ذلك فان قانون مصونية الدافع كما جاء في النظرية النسبية الخاصة يعبر عن التماثل الإقليدي الحديث رباعي الأبعاد في المكان ــ الزمان ، بينما تلخص النظرية العامة للنسبية التماثل الكمي اللاإقليدي المتصل رباعي الأبعاد .

هكذا نجد لدى غاليليو متغيراً أولياً لمبدأ التماثل ، وبصورة مطابقة للمصونية التي تكشف ، مع تعديلاتها ، التحول ، التغير ، ونشوء الأفكار عن العالم ، ووجود تاريخ العلم . وهو يشكل في الوقت نفسه قوام التغير ، وموضوع التطور التاريخي .

ولم يكن ذلك الثابت التاريخي ذاتي التماثل للعالم ما شكل بمفرده الشرط التمهيدي للعلم الكلاسيكي والتحول اللاكلاسيكي اللاحق . فبينما يفقد التحول كل معنى دونما ثابت (دون المحمولات الخاصة بموضوع معين ذاتي الهوية خاضع للتغيير) ، يكون الثابت بلا معنى من غير تحوّل : فالمصونية تكتسب معنى إذا أعطيت تغيراً معيناً . وقد زوّد غاليليو العلم بفكرة عن الانسجام والمصونية لقرون عدة لاحقة .

لكن من الذي أعطى العلم روح الإندفاع ، حافزه الدائم إلى تكييف نتائجه ؟ وليس نتائجه فحسب ، وإنما مبادئه الأولية ووسائله وأسلوبه ؟

من الذي أفعم العلم بهذا التوجه الرومانسي لتحقيق التغير ، لتحقيق « الحب الفكري » Amor Intellectualis لدى سبينوزا وهو ، الذي يُعتبر المصاحبة العاطفية للمعرفة ؟ . لقد انكبّ مفكرو المذهب المشائي (١) على البحث عن الإنسجام السكوني للكون : مثلاً ، تحديد « الأماكن الطبيعية » في فضاء أرسطو ، وقوانين العصور الوسطى الثابتة في مجالات الأخلاق والمنطق والجمال ، بل في علم الاقتصاد (السوق : المعدل التقليدي للربح ، وهكذا) .

فالحركة السكونية يمكن أن تتراجع أمام الانسجام الحركي في العلوم الكلاسيكية (التي أصبحت أوضح في النظريات غير الكلاسيكية) ، إذا طرأ عليها تبدل تكاملي في الموازين ، لا المتعلقة بالحقيقة فحسب ، بل في الموازين المتعلقة بالخير والجمال . وقد كانت « الكوميديا الإلهية » The Divine Comedy موسوعة هذا التبدل المتكامل في الموازين . وكانت مشاعر الحب والكراهية ، والمثل ، والأفكار ، وقبل كل شيء مشاعر الحب ، هي جميعها التي حملت دانتي على جعل دوائر الجحيم والمطهر والجنة مأهولة بالبشر . فالحب بالنسبة له ولأصدقائه التعبير الأمثل عن الطبيعة الفريدة الحرة ، الطبيعة المستقلة لشخصية الإنسان . الحب هو التعبير عن تحرر الإنسان من التقليد ومن السلطة ومن العموميات . وكان ذلك الحب موجهاً ، ليس باتجاه الإستغراق

(١) مذهب أرسطو .

الواقعي (بالمعنى المعروف في العصور الوسطى) للشخصية بالقضايا الكلية (العموميات) ، بل نحو الصورة الفذة لحبيبته « بياتريس » ؛ ليس إلى الرمز ، بل ربما إلى صورة « بيس بورتناري » Bice Portinari الحيّة . بهذا المعنى كانت « الكوميديا الإلهية » نتيجة مباشرة « للحياة الجديدة » لدانتي .

كانت بياتريس بالنسبة إلى دانتي تجسيداً للعام ، للوجود بكامله ، للكون بكل المعنى المادي المحسوس والملوّن .

ماالذي يمكن أن يكون أكثر مادية عند هذا الشاعر من صورة فتاة فلورنسية سبق وأن التقاها ذات يوم قرب « بونت فيشيو » ؟ إن قصة خيالية عن الواقع ، تجسد فكرة الأشياء من الخارج — وهذه هي حال التفسير الرسمي للفكر في العصور الوسطى — إن قصة كهذه لايمكنها أن تتحمل بنية فكرية وفهماً مادياً وانفعالياً مستلهماً من الفن . إن دانتي يتعلم ، في الأنشودة الأولى من « الجنة » ، من بياتريس مفهومها عن العالم ، دون أن يكون قادراً على أن يشيح بعينيه المحدقتين بعيداً عن شفتيها وعينيها الخضراوين بلون الزمرد . وهذا المشهد مقدمة للتغيرات الايديولوجية والنفسية العميقة التي كانت جزءاً لا يتجزأ من روح عصر النهضة . إنه مقدمة للعودة إلى التيار المعارض في الفكر الوسيطي ، مقدمة للمذهب الإسماني ببدائله المؤقتة لما هو مادي ، ومقدمة « للفلسفة الطبيعية » التي ناضلت في سبيل العثور على تجسيد مادي للطبيعة في صورة ، مقدمة لعالم الفن الحسي الطامح إلى اكتساب صبغة الفكر العالمي .

في القرن السابع عشر هجر التفكير العلمي ميدان العالم المحسوس ، ذي الألوان المتعددة ، الذي اكتشف في القرنين الخامس والسادس

عشر ، لينطلق إلى العالم ذي اللون الواحد الذي عبر عنه نيوتن بتحفظ شديد في مؤلفه « المبدأ » . إلا أن التفكير الميكانيكي — الرياضي ، على أية حال ، الذي كان يميز القرن السابع عشر والقرن التالي له ، كان شكلاً جديداً ونتيجة مباشرة لما توصلت إليه البشرية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . فمعادلات « لاغرانج » تبدو أبعد ما يمكن عن الثقافة المتعددة الألوان ذات النزعة المغرقة في الفردية ، والمشحونة بالعواطف ، التي ميزت عصر النهضة . ولكن مع غاليليو نجد أن النزعة الرياضية والكمية تتضفر مع ما جاء به دانتي و « غيوتو » . هنا نرى أن غرض تطور الكائن الحي يتبع المسار ذاته الذي يتبعه التطور النوعي للعلم ، فيضغطه زمنياً ويجعله بهذا مفهوماً . ولايزال كتابه « حوار » يذكرنا بفلاسفة الطبيعة في عصر النهضة ، لكن كتابه « حديث » (١) يسبق نيوتن ولاغرانج ويبشر بهما . ويتضمن مؤلف « حديث » نوعاً من النمو الجنيني للتفكير الميكانيكي الرياضي عند نيوتن ولاغرانج . وهذا هو السبب في استعمال لقب « التصوير المتحفظ » استعمالاً مشروطاً عند نيوتن ولاغرانج ، ذلك لأن الألوان المميزة لعصر النهضة لا تني تنمو من ذلك التصوير .

لكن دعونا نعود إلى الفكرة الأساسية في « حديث » — إلى مبدأ العطالة في الفضاء . في هذا الكتاب ينتقل غاليليو من حالة الوضع الثابت لجسم في مكانه الطبيعي — وهذه النظرة هي حجر الزاوية في الفلسفة المشائية عن انسجام العالم — إلى حالة السرعة الثابتة لجسم يسقط سقوطاً حراً : وهذه هي حجر الزاوية في الصورة الحركية للعالم . يتحدث

(١) discorsi

غاليليو هنا عن التسارع الثابت لجسم ، وهذا أساس الانسجام الحركي للكون . هكذا ظهرت النماذج الأولية للاشتقاقين المؤقتين الأول والثاني لحالة نقطة مادية ، النماذج الأولية لفكرة التفاضل الحركي من نقطة إلى نقطة ثانية ، ومن لحظة إلى لحظة ثانية ، كانطباع عن المحدود باعتباره محصلة لعدد لامتناه من الأجزاء اللامتناهية في صغرها ، كتكاملات تتحدّد بالروابط بين الكميات المتغيرة اللامتناهية في صغرها ، بين التغير اللامتناهي الذي يتجسد في الأجسام المحلية اللامتناهية الصغر .

وإذا بدأنا مع غاليليو وجدنا أن المطلق عنده لم يعد عاماً ، بل أصبح شيئاً يمكن ملاحظته مباشرة ، وإعادة إنتاجه في التجارب ، نظراً لأن الكميات بنقاطها اللامتناهية في الصغر ، وفي لحظيتها ، محصية في التجارب الخيالية التي ناقشها في « حوار » وفي « حديث » . فاللانهاية عمومية لم تختف إنما اندمجت مع الإسماني (١) والمحلي « هنا والآن » .

وقد أحدث ذلك الدمج مظاهر زائلة عند أصحاب المذهب الإسماني في باريس في القرن الرابع عشر . وفي القرن الخامس عشر أصبحت الحركة هدفاً للفن مع أدوات ليوناردو دافنشي ، الذي جسّدت « أطروحته في الرسم » هذا البرنامج من أجل الفن الذي اقترب به من البرنامج الحركي للعلم .

وفي « الكوميديا الإلهية » ، على أية حال ، أصبح اللامتناهي ، كما هو مجسد في المحلي والمادي والمدرك الحسي ، موضوعاً للفهم

(١) اسمي (إسماني) : Nominal .
وهي المذهب الذي يرجع المعاني إلى الأسماء : وهي اسميه قديمة واسمية حديثة .
(المترجم)

المنطقي ، وللإدراك الفني في عقل الإنسان وعواطفه . وهذا ما شكّل ثابت التغيّر من دانتي حتى غاليليو . وهناك ثابت آخر ، ثابت بالمفهوم المشائي تقريباً ، يذكرنا « بالمناطق الطبيعية » في مذهب أرسطو الكوني : إنه مدينة فلورنسا . ففي تاريخ الثقافة ، أصبحت فلورنسا منطقة طبيعية لروائع عصر النهضة ، ليس لمجرد وجود تلك الروائع في « أوفيزي » وفي الساحات العامة للمدينة فحسب . وعندما يتجول أحد المعاصرين الآن في شوارع وساحات فلورنسا تلاحقه خيالات ذلك المنفي الذي جمع مدينته الأم من « رافينا » Ravenna ، وخيالات سجين « أرسيتري » Arcetri . فقدر هذين الرجلين المأساوي لم يقطع الصلات القائمة بين فلورنسا ودانتي وغاليليو ، مما يفسر بقاء قدريهما مأساوياً . والآن ما هي الصورة المميزة للحياة في فلورنسا ، الصورة التي جعلت من هذه المدينة مهداً لهذا العدد الكبير من المفكرين والفنانين العظام ؟ ما هي الصورة الكلية التي عكست السمة الخاصة لموطن هؤلاء جميعاً ؟ إن هذا لسؤال عن الثوابت في الروابط التي تجمع بين الأجناس المتباينة . إنه لسؤال يتعلق بما بقي حيّاً عبر الانتقال من إحدى مراحل تاريخ الثقافة إلى المرحلة الأخرى . ونحن سنحجم في الوقت الحاضر عن مناقشة السؤال المتعلق بالملامح الخاصة لتطور فلورنسا في أثناء العصور الوسطى وعصر النهضة ، أي مناقشة الأوضاع الاقتصادية للمدينة ، والعلاقات الاجتماعية فيها ، والأحداث السياسية والثقافية ، لأن ذلك يبعدنا عن جوهر موضوعنا .

إن على التحليل أن ينطلق من الديناميكية الرفيعة التي ميزت التطور الاقتصادي والاجتماعي في المدينة ، دون الاقتصار على معدل التغير

فحسب ، ما يمكن تسميته مستوى الديناميكية ، أو التغيرات النوعية العميقة ؛ عليه أن ينطلق من العمومية والعطالة (أو بالأحرى من « الكتلة العاطلة ») المميزتين للقوانين التي تجاوزتها التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية . إن الذي تغيّر في التصوير في فرنسا غير قاصر على الموضوعات والألوان ، بل إنه طال مبادىء المنظور أيضاً . ومن جهة الانتاج ظهر أثر التغير على طاقة الأنوال وعددها وعلى نواعير المياه ، كما ظهر على مبادىء تصميمها أيضاً . ولم تكن المشكلة في المجال العلمي محصورة في عدد الحقائق المشروحة ، إنما تناولت المبادىء الأولية للتفسير العلمي ، تناولت فكرة التأويل ذاتها . فبقدر ما يرتفع المستوى الديناميكي ، ويزداد إخضاع الأسس الرئيسة العامة للعمل والمعرفة للتمحيص ، تتعاظم طاقة التأثير على فروع الثقافة ويتقوى التأثير في المناحي الأخرى . ويكون التأثير الإنفعالي والجمالي للعلم بخاصة متناسباً على وجه التحديد مع مستوى الديناميكية فيه ، في حين يتناسب تطور العلم في بلد ما ، من حيث المعدل والاندفاع ، مع راديكالية التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلد في أي عصر . كانت فلورنسا ، منذ القرن الرابع عشر وحتى السابع عشر ، مدينة تتميز بالتحولات العميقة في جميع المناحي الثقافية . وهذا استوجب سلفاً تأثيراً فنياً في العلم هناك أكبر من تأثيره في أية مدينة إيطالية أخرى . والتفاعل المتبادل بين العلم والفن ، خلق فهماً حسّياً ومنطقياً مجرداً عن العالم . لكن هذا النهل المشترك ، بل هذا التمازج ، في المنطق والحس هو أساس المعرفة ، طالما أن كلا الشكلين يشيران إلى ظهور مرحلة جديدة في تاريخ المعرفة .

ويمكن أن نأخذ فكرة أكثر مادية مما سبق ذكره من الأفكار التي تتيح لنا استرجاع الماضي اللاكلاسيكي – اينشتاين – وتلك التي تتيح لنا إمكانية رؤية العلاقة بين وجهة نظر دانتي العالمية الطابع والفلورنسية المولد ، والمفهوم الفلورنسي المولد عند غاليليو ، وذلك في ضوء جديد .

على الرغم من أن اينشتاين لم يكن فلورنسياً لكنه ارتبط بروح فلورنسا بآراء محددة هامة عن طبيعة الإبداع العلمي . وهو يتحدث في ملاحظاته عن سيرته الذاتية (١٩٤٩) حول معيارين محددين في مجال اختيار النظرية العلمية هما : الإثبات الخارجي والكمال الداخلي ويكمن المعيار الأول منهما في نظرية محددة لكونها تساير الملاحظات التجريبية . أما الثاني فيتألف من قناة طبيعية (دون افتراضات ملحقة لهذا الغرض) ومنطقية تربط نظرية محددة إلى المبادىء الأكثر عمومية . وقد انبثقت النظرية النسبية كمزيج يجمع هذين المعيارين . لقد فقد علم الميكانيك تصديقه الخارجي external confirmation وسار سيراً يتناقض والنتائج التجريبية . وكانت نظرية « لورينتز » مسايرة لتلك النتائج لكنها تفتقر إلى معيار الكمال الداخلي Inner Perfection . في هذه النظرية يجري استنتاج التقلص الطولي في بعد نواة متحركة من الفرضيات الكهرو ديناميكية المخصصة لهذا الغرض . وقد استنتج اينشتاين ذلك التقلص من التعابير الفيزيائية الأعم ، والتي استمدها هو من الأفكار الخاصة بالعلاقة بين الزمان والمكان والعالم رباعي الأبعاد غير أنه بتطبيق موازين التصديق الداخلي Internal Confirmation على تلك التي وضعها اينشتاين ننتقل إلى تاريخ العلم ، حيث نرى أن

المعايير الحالية نتيجة طبيعية ، ومنطقية ـ تاريخية مستمدة من أعم التقويمات طويلة الأجل للمعرفة ، والتي تظهر بأوضح صورها في الخصائص المميزة للتفكير العلمي في عصر النهضة في فلورنسا .

وفلورنسا لم تكن مدينة رفعت فيها أكاديمية « ديل سيمنتو » عالياً راية معرفة العالم بالتجربة فحسب ، بل كانت مدينة خضعت فيها الطبيعة إلى دقة التأمل أكثر من غيرها من المدن . فقد أصبحت هي مدينة الحس المتوقد في الفن وعميق الانطباع . وباتت ملكة الرؤية فيها ديناً ، وأصبح الدين إلى حد بعيد مسألة تصوّر . كان ينظر إلى العالم هناك بعيني الفنان في سعيه للنهوض بالروح وعبادة الجمال . ولم يبق ذلك تصوراً اسمانياً للعصر الوسيط ، ولا كان هو المذهب الحسي الفعلي الذي جاء لاحقاً . وليس هناك ما يدل على حدوث موازنة بين أية نظرة حسية وفهم منطقي . وهذا المفهوم عن العالم ، هذا المزيج من الإسمانية المتغيرة والواقعية المتغيرة ـ « هذه الواقعية الحسّية » ـ لم تكن إحدى مميزات فناني فلورنسا. إن جميع الذين مشوا طرقات تلك المدينة ، وتطلعوا في عيون النماذج الأولية لرسومات « بوتشيللي » و « ليبي » ، جميعهم امتدحوا الكياسة الفاتنة المتأملة في نظرات تلك النماذج . وامتدحوا المزج الساحر للنظرة الثابتة الحادة والتأمل الرائق الذي يجعل هذه النماذج تعيد إلينا لوحات متحف « أوفيزي » . لكن التأمل الحاد النظرة ، على أية حال ، ليس مجرد انعكاس حيّ للحسية العميقة المفكرة . ألم تكن الإلتفاتة الحانية ، الحزينة أحياناً ، إلى الماضي واحدة من مكوّنات النزعة الإنسانية ؟ . كذلك الأفكار الأولى عن العالم القديم ، والاهتمام بها ، كعنصرين مكونين ، ألم يكونا تطهيراً

للتراث التليد ؟ ثم ، ألم تكن النزعة الإنسانية مقدمة « للكمال الداخلي » في العلم ، ألم تكن هي نضالاً لدمج الأفكار الجديدة مع القنوات الطبيعية والمنطقية . (وبالتالي مع القنوات التاريخية أيضاً : حيث أدرك أسلوب التفكير في عصر النهضة العموميات المنطقية مقابل ذلك) ؟ .

كانت النزعة الإنسانية في فلورنسا ، كما هي في القرنين الرابع عشر والسادس عشر بعامة ، ظاهرة بالغة التعقيد ، مما يعني الجمع في هذا المصطلح بين اتجاهات وتيارات من عصر النهضة متنوعة ومتشابكة في علاقاتها الداخلية . وقد دلّ الجمع الأولي للمخطوطات القديمة على إحياء الاهتمام بدراسة الإنسان : بدراسة العالم الداخلي للإنسان وإبداعه . وهذا التعريف الأكثر عمومية للنزعة الإنسانية في القرن السادس عشر انعكس في « فلسفة الطبيعة » (١) : إذ أصبحت الطبيعة ترى من منظور أرضي لا سماوي ، باعتبارها مدينة أرضية . وفيها يتم البحث عن المخططات السببية التي يستطيع الإنسان أن يفهمها ، والتي كانت مقبولة في مملكة علم الميكانيك التطبيقي على الأرض . لقد أنسنت « فلسفة الطبيعة » في القرن السادس عشر الطبيعة ذاتها .

ولمقارنة هذه العملية بالعلم الحديث ، ثم استنتاج ما يمكن الاتفاق على تسميته بانسانية العلم في القرن السادس عشر والقرن العشرين ، سنضيف بعض كلمات حول معياري الحقيقة عند إينشتاين : التصديق الخارجي والكمال الداخلي كمفهومين يمتلكان معادلاً أخلاقياً محدداً . إن قمة التفسير العلمي تتوافق والمثالية الأخلاقية . والوصف الدقيق

(١) فلسفة الطبيعة وهي تعني الفيزياء : Naturalism

« للجحيم » عند دانتي ، وبنية « المطهر » و « الجنة » لديه ، هي نتيجة الإعتراف بالصدق والشجاعة كفضيلتين مثاليتين : فقد أودع دانتي الخونة في قلب الجحيم ، بين فكي الشيطان ، انطلاقاً من أن توزيع الأماكن في الجنة والمطهر ينسجم مباشرة والمثل الاخلاقية للفلورنسي المنفي . ثم إن قراءة ثانية لمؤلف « حوار » يعطي المرء شعوراً بالألفة القائمة بين مُثُلْ المعرفة عند غاليليو والمثل الأخلاقية عند دانتي . لقد كانت أفكار « ساغريدو » و « سالفياتي » جذابة لجملة من الأسباب : لرفضها الجزئي لخطط المنطق ، وإخلاصها للإنطباعات التجريبية (دفاعها عن العنصر الشرطي التاريخي للتصديق الخارجي) ، وفي الوقت نفسه ، لإخلاصها للنتائج المنطقية الناجمة عن الإنكار الجريء للصورة التجريبية لأرض تعرف الإستقرار . وهذا المزج بين الصحة والجرأة في « المنطق » و « الحسيّة » يشكل أساساً لثورة علمية تمتلك على نحو ثابت معادلاً أخلاقياً . ذلك ما حدث في « الكوميديا الالهية » قبل ثلاثمائة عام بالنسبة إلى « حوار » ، بينما اكتسب مفهوم « المعادل » صورة جديدة في الثلاثمائة سنة التالية . لقد كشف العلم الكلاسيكي بحيوية بالغة عن المثل الأعلى للمعرفة العلمية ، وهو تركيب يجمع بين معياري الإثبات الخارجي والكمال الداخلي ، ويقود إلى تغيرات أساسية في العلم . مع ذلك أصبحت الرابطة القائمة بين ذلك التركيب والمثل الأخلاقية أقلّ وضوحاً ، الأمر الذي يفسر كون التحقق من أن تلك العلاقة — تقرير القيمة الأخلاقية للعلم — تسير الآن قدماً في مجال استرجاع الأحداث التاريخية .

ضمن هذا الإطار ذاته تحددت القيمة الجمالية للعلم — العلاقة بين الحقيقة والجمال . وعلى سبيل المثال ، سنمضي مع سبينوزا في اعتباره الحرية فعلاً يحدده الجوهر الداخلي للموضوع ، دون الدافع

الخارجي . فالتابع (الموضوع) لا يمتلك حرية أو كينونة ذاتية إذا كان موقفه من العالم المحيط به مقتصراً على التأمل السلبي ، أو على فهم سلبي للكليات . وتصبح مقولة « أنا أفكر » دليلاً على أنها « أنا أفكر إذاً أنا موجود » (١) . عندما يحتوي مضمون الوعي على تقاويم مستقلة وموضوعية لما تجري معرفته ، عن الإنفعالات ، والإرادة — تلك التي وحّدت مقولة « أنا أفكر » Cogito مع « أنا أعمل » ago ، مما يقود إلى مقولة : « أنا أعمل إذاً أنا موجود » ، وإلى « أنا أعمل فنحن موجودون »

لهذا فان الحقيقة كهدف للمعرفة تكتمل بالخير والجمال . ويكتسب التابع بالتالي الحرية والكينونة الشخصية . فلا فهم الكليات ، ولا التأمل في التباين المادي يحرران الإنسان من استغراق المجرد له ، لا يخلصانه من كونه إنساناً مادياً موضوعياً كمعادل للكلية المجردة التي تعتبره وعاء للخطيئة الأصلية في تأويل القديسين « أوغسطين » و « توما الأكويني » .

بهذا المعنى كان عصر النهضة اعترافاً بكينونة الإنسان من خلال المزج بين التحريات بقصد الوصول إلى الحقيقة ، كما أنه كان فهماً أخلاقياً وجمالياً للعالم . وربما سُمّي هذا المزج « دانتياً » رغم أنه لا يميز القرون الثلاثة الخامس والسادس والسابع عشر كذلك . ويمكن تسميته « فلورنسياً » رغم كونه ملازماً لمفكري عصر النهضة بكل مراكزه .

---

(١) التعبير في اللاتينية هو :
«Cogito» becomes proof of being (cogito ergo sum)
وهو مبدأ وضعه الفيلسوف الفرنسي ديكارت . (المترجم)

ولا تقتصر الأسماء على تعيين الحدود بل تسجل الزمان والمكان والصورة الأكثر حدة ووضوحاً لمركّب الحقيقة والخير والجمال . وتسجل هذه الأسماء ، فيما يخص إنجاز الحقيقة ، التسلسل الأقوى لمعياري الإثبات الخارجي والكمال الداخلي في الأفكار الجديدة عن العالم .

كان علم الجمال في عصر النهضة عقلانياً . وكانت عقلانية عصر النهضة (وهي عقلانية تمهيدية بالنسبة إلى القرن السابع عشر) جمالية . وكان تطور فن التصوير في عصر النهضة مرحلة انتقال عظمى في التأليف في ظل سيطرة الجوهر الداخلي لموضوع الرسم ، سيطرة المنطق الداخلي للألوان المستخدمة ، وسيطرة توزيع الظل ، والمنظور . وكان ذلك إفرازاً أعظم للتقاليد الخارجية والقبْليّة apriori وللمجاز ، التي وجهت حركة التأليف . ولم يكن ذلك إفرازاً للتأليف بل كان تحريراً له بمفهوم سبينوزا ، كان تحريراً مشابهاً للعموميات في « الفلسفة الطبيعية » في عصر النهضة خلصتها من معايير قبْلية للعقائد والمراجع ، وذلك من خلال دمجها بالشرط السابق من مفهوم الإثبات الخارجي عند اينشتاين .

كتب « إي . غورفنكل » ، المؤرخ والفيلسوف من لينتغراد بحثاً حول تطور أفكار عصر النهضة بدءاً من لوحة الجص عند « أندريه دا فيرنز » التي تحمل عنوان « انتصار القديس توما الأكويني » ، في كنيسة سانتا ماريا نوبفا ، وانتهاء بلوحة رافائيل : « مدرسة أهل أثينا » . إن اللوحة الجصية الأولى على جانب كبير من الواقعية في مفهوم العصر الوسيط.وهي تصور القديس توما منتصراً على ابن رشد،من خلال توزيعها المتدرج المحكم للقديسين والملائكة المهوّمين فوق رأس القديس توما .

غير أن هذه الواقعية كانت تتجسّد في فن الرسم ، وهو تجسيد غيّر من الواقعية وقربها من النزعة الإسمانية ، كما أنه ينتهك الطبيعة المجازية الشديدة للأشكال التي أخذت المحل الثاني تماماً بالنسبة إلى العموميات . ولم تكن صورة ابن رشد المغرقة في التفصيل واللامجاز الصورة الوحيدة تماماً التي تبدو اسمانية في هذه اللوحة : فعندما يتأملها أحد العارفين بفن الرسم في أواخر عصر النهضة تبدو له مفعمة بنوع من الشفافية . وهي تذكرنا ، برأي المعاصرين ، بلوحة دافنشي « العشاء الأخير » ، حيث أن التأليف الذي يخلو من أي تعبير مجازي بالنسبة إلى الرسم الخارجي واللاهوتي لصور المسيح وحوارييه ثانوي بالنسبة إلى حركة اللون التي يعبر بها عن الطابع والشخصية والخصوصية في كل صورة . إن أحد معاصرينا سيتابع طريقه ليتذكر « مدرسة الأثينيين » التي تحرص على التأكيد على الكمال الداخلي ، وليس على الاثبات الخارجي ، ضمن مخطط جديد يتناغم في ارتباطه بالشخصيات ، وبما هو فردي ، والذي يستمد منطق الرسم من مبادئه الخاصة كل تفاصيله في اللوحة التي أصبحت موشاة بألوان متعددة .

إن التشبع الفكري لعصر النهضة في مجالات الشعر والرسم هو وجه ثان للتشبع العاطفي في « الفلسفة الطبيعية » عند دانتي ودافنشي وتيلزيو ، وبرونو ، حيث بقي محفوظاً في « حوار » غاليليو ، في حين قلما تفهمه في « حديث » ، وذلك لأن هذا التشبع لم يختف بل تجسد في شيء مكتمل ، أو مكتمل ظاهرياً ، وحقيقي وموضوعي بغض النظر عن عواطف المفكر وإرادته وفاعليته .

وفي حين كان الأسلوب تعبيراً عن الفردية فيما يتعلق بالأزمنة والوطن ، كان قوة فاعلة في موضوع المعرفة ، وأصبح اليوم منهجاً يتطلبه هدف المعرفة . يقول « ف . موراتوف » : في القرن الخامس عشر كان الواقع الفكري في فلورنسا مميزاً مبدئياً عن العقلانية اللاحقة بأنفَس ما حمله ذلك القرن — بالتوتر الرفيع الذي لم يتكرر فيما بعد مطلقاً . وهذا التوتر ، الذي كان يجتذب إلى الإبداع العلمي عناصر الوعي الانفعالية والمنهجية والذاتية ، أصبح يتجلى في أعمق لحظات التحول الطارئة على صورة العالم . مثل هذه التحولات لا تكشف عن بناء العالم بدقة قصوى بل تدل على قدرة العقل البشري في لحظات تأوج التوتر ، وهي مشربة بالإنسانية بمعنى قريب جداً من مفهوم العلم .

وديناميكية العقل تصبح جلية عندما تكشف بأعمق صورة عن حركية الوجود . وما الثورات في مجال العلم سوى تعبيرات عن تلك الحركية بأوجهها العميقة والجديدة . وقد كشفت النظرية النسبية عن حركية الوجود ، عن الحركة كأحد مكونات الوجود بصورته العميقة — ومن هنا يأتي عمق الاسترجاع التاريخي ومراجعة كامل تاريخ الفكر . فالنظرية النسبية قد أثارت ، وشدت ، ولخصت وأعطت شكلاً مادياً لمعضلة الوجود القديمة ، وهي المعضلة التي جرى التعبير عنها منذ القدم على شكل : الماضي لن يعود ، والمستقبل لم يأت بعد ، أما الحاضر فهو خط الصفر بين صفري الماضي والمستقبل إنه لاشيء بين لاشيئين . وتاريخ الفكر ظهور مستمر لهذه المعضلة . والنظرية النسبية حلّها البارع : فقد كشفت عن الطبيعة رباعية الأبعاد للوجود ، والطبيعة النسبية والتقريبية والخيالية لبناء هو ثلاثي الأبعاد ولحظوي ومكاني صرف

في حالة الجمود التام . « فالحاضر » مجرد جزء ثلاثي الأبعاد من عالم رباعي الأبعاد . والكينونة تشتمل على الزمان والحركة والتغيير . والعالم الفعلي يوجد في الزمان والمكان . إنه عالم سببي ويتعذر إلغاء كيانه . والعقل انعكاس للكينونة ، هو جزء أحادي البعد من عالم رباعي الأبعاد . إنه يتحرك مع هذا العالم ، ويعبر عن عدم قابلية إلغاء العالم . إنه عالم سببي بحد ذاته ، كما قال سبينوزا . وليس استرجاعُ الماضي في العقل إعادةً ، بل هو حركة لا تقبل الانعكاس على طول مسار اللولب الذي تحدث عنه لينين في « دفاتر الماركسية » . كذلك فان تاريخ الفلسفة ، وتاريخ العلم ، وتاريخ العقل ذاتها غير انعكاسية كما هو تاريخ الفضاء وتاريخ البشر . وثوابت هذه التواريخ حركية ، وليست نتيجة للعلم . فهي تواريخ تخضع لتغيّر ، جهوده نبضات إبداعية ، وهو لا يمحّي ، بل يحفظ وظائف هذه التواريخ عبر العصور . ويمكن الكشف عن خلود العقل وفهمه فقط في ضوء مبدأ واقع الزمان والمكان ، مبدأ كون العقل انعكاساً لتطور الكائن المادي ، في ضوء مبدأ يجسد جدلية الوجود والمعرفة .

* * *

الاسهام النسوي في الرواية العربية

ايمان القاضي

جاء مولد الرواية العربية استجابة ضرورية للتحولات التي طرأت على المجتمع العربي : إثر احتكاكه بالغرب الصناعي الذي بدأت موجاته الاستعمارية تغزو الوطن العربي مع بداية القرن التاسع عشر لتبحث عن أسواق جديدة ، تمتص إنتاجه المستفيض ، وتغذي معامله بالمواد الخام وقد أدى هذا الاحتكاك الى خلخلة البناء الاقطاعي العربي ، والى بداية ظهور الطبقة الوسطى وتناميها ، وسعيها لتلبية احتياجاتها الاقتصادية والفكرية والروحيّة . فنشأ الطموح الى تأسيس دول حديثة تحاكي تجربة الغرب ، وتستفيد منه . وظهر التوجه الى الفرد عامة ، والى البحث عن

سبل تطويره ، فأخذ العلم يخرج من قوقعة الطبقة الاقطاعية ، ليصبح طموحاً لأفراد الطبقة الوسطى المتنامية ، فنشأت المدارس الوطنية الحديثة ، التي تساوقت مع مدارس البعثات التبشيرية ، و بدأت البعثات الدراسية تتجه الى الغرب ،لتنهل من علومه وآدابه و جاءت الصحافة لتتوجه الى المتعلمين ، الذين يتزايدون،وكان عليها أن تخاطبهم و تسليهم ، و تربطهم بها ، وأن تبحث دائما عن مواد مفيدة و مسلّية تغطي صفحاتها ، فاتجه الكتاب الى ترجمة الروايات العالمية ،و نشرها على حلقات مسلسلة .

فالقارىء العربي تعرف الفن الروائي بواسطة الترجمة أولاً . وكان المترجمون يحرفون الروايات للتلاؤم مع البيئة العربية . وقد كانت هذه المحاولات تسد جانباً من الحاجة في البدء إلا أنها لم تعد تكفي مع مرور الزمن ، و تأصّل هذا الفن في نفوس القراء ، و زاد تعلقهم به فكان لابد أن تتوجه أقلام الكتاب الذين تمرسوا بالترجمة و بالقراءة لهذا الفن ، الى البيئة العربية ، لتنهل منها ، و تقدم رواياتعربية تتحدث عن الواقع العربي المغاير للعالم الغربي بنظمه وجملة قيمه .

و بالطبع ، لم تأت الروايات العربية ناضجة فنياً منذ المحاولات الأولى . فقد مضى ما يقرب من نصف قرن بين الرواية الأولى التي نشرها سليم البستاني عام ١٨٧٠ ، على صفحات مجلة (الجنان) البيروتية وأسماها «الهيام في جنان الشام»،وبين الرواية الفنية الأولى لمحمد حسنين هيكل التي ظهرت عام ١٩١٣ ، ولم يشأ تسميتها رواية ، بل «مناظر وأخلاق ريفية» بقلم مصري فلاح .

و بعد مضي حوالي قرن على ظهور البداءة الأولى ، استطاعت الجهود العربية التي تعثرت حيناً ، وواجهت صعوبات جمة حيناً آخر أن تطور نفسها ، لتحقق على يد نجيب محفوظ و بعض من تلاه ، قفزات فنية نوعية ، تؤهلها لأن تقف بثبات أمام النتاج الروائي العالمي . تتطلع الى منجزاته ، و تحاوره في محاولة جادة للاجابة على الأسئلة التي يطرحها الواقع العربي .

و قد بات معروفاً أن الأقطار العربية لم تعرف الفن الروائي في زمن واحد ، بل في أزمان متباينة ، و متباعدة نتيجة للظروف الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية الخاصة بكل بلد عربي ، . فالفن الروائي لا يستجيب له بلد ما زال اقتصاده يقوم على الرعي أو الصيد مثلاً . إنه يحتاج الى مناخ اقتصادي و اجتماعي و ثقافي ، يأخذ بأسباب التطور و المدنية ، وينأى عن الركود و الثبات و الانغلاق و يتجه الى تطوير علاقات إنتاجية ، و إعادة النظر في جملة قيمه .

ففي الخليج العربي مثلاً ، مازال الفن الروائي يعاني من تعثر البدايات ، فقد كان الخليج «يعيش حتى أواخر النصف الأول من القرن الماضي فترة ركود ثقافي ، متوقفاً عند تلك الثقافة التقليدية التي ورثها عن العصور الوسطى ،والعهد العثماني.ثم جاءت الدعوات السلفية و على رأسها الوهابية ، فرسخت القيم التقليدية ، ووقفت بحذر في وجه كل جديد . . . »(١) ومن هذا الجديد الصحافة التي كانت

(١) : د . محمد عبد الرحيم كافود : النقد الأدبي الحديث في الخليج العربي ، الدوحة ، دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢ م ، ص ١٥٣ .

عاملاً أساسياً في نشوء و تطور الفن الروائي سواء في الغرب أو في الأقطار العربية . فقد حاربها رجال الدين ، لأنها — كما يزعمون تثير الفساد في المجتمع ، و تغوي الناس عن أمور دينهم ، و لذا تأخر ظهور أول صحيفة سعودية الى نهاية عام ١٩٢٤(٢) .ولم تظهر أولى المحاولات الروائية الا عام ١٩٣٠ على يد الشيخ عبد القدوس الأنصاري الذي أصدر رواية «التوأمان» ، وكتب على غلافها « أول رواية صدرت في الحجاز»(٣) .

و قد تأخر ظهور الرواية في الكويت الى عام ١٩٦٢ ؛ حيث أصدر عبد الله خلف رواية «مدرسة من المرقاب» و يرى الدكتور محمد حسن عبد الله أن الرواية في الكويت « لم تشكل بعد ما يمكن أن يسمى ظاهرة أدبية أو تاريخاً فنياً، ولم يظهر فيها الى اليوم معنى الاصرار أو الاستمرار عند كاتب من كتابها باستثناء فهد اسماعيل فهد ، و نورية الصالح السداني»(٤) .

أما ليبيا فقد عرفت الفن الروائي قبل الكويت بعام واحد فقط فقد أصدر عام ١٩٦١ محمد فريد سيالة رواية بعنوان «اعترافات انسان» وما زالت الرواية الليبية الى الآن تجاهد لتنتزع الاعتراف بها على المستويين الرسمي و الشعبي . فقد خلت أعداد مجلتي الثقافة العربية و الفصول

---

(٢) : صحيفة أم القرى . صدر العدد الأول في ١٢ / ١٢/ ١٩٢٤ م .

(٣) : د . منصور الحازمي : فن القصة في الأدب السعودي الحديث ، الرياض ، ١٩٨١ ، ص ٣٥ .

(٤) : د . محمد حسن عبد الله : الحركة الأدبية والفكرية في الكويت ، رابطة الأدباء في الكويت ١٩٧٣ ، ص ٥٠٤ .

الأربعة– و هما أشهر دوريتين ليبيين – «من أي حديث عن الرواية الليبية مجتمعة أو منجمة»(٥) .

وفي السودان ، جاء مولد الرواية عام ١٩٤٨ برواية «تاجوج» لعثمان محمد هاشم ، وقد أضحت كما يقول الدكتور سيد حامد النساج «الفن الأدبي الغالب»(٦) في الستينات والسبعينات وقد قدمت للوطن العربي الروائي الكبير الطيِّب صالح الذي حاز على شهرة عالمية . فقد كتبت الصحافة الانكليزية عنه وعن أعماله الكثير ؛ وخاصة رواية «موسم الهجرة الى الشمال» ، ورواية «عرس الزين» ، ونقلت روايته الأخيرة الى البولندية .

وقد أنتجت اليمن بعض الأعمال الروائية الهامة(٧) ،لكن النتاج الروائي اليمني عامة مازال الى الآن قليلاً،على الرغم من أن المحاولة الأولى تعود على الأرجح–الى عام١٩٣٩وهي رواية «سعيد» لمحمد على ابراهيم لقمان،وقد جاء في الإعلان عنها : «أول رواية عربية عدنية . .(٨) .

و في العراق ، يعود تاريخ ميلاد الرواية الى عام ١٩٢٨ ، حيث

(٥) : سمر روحي الفيصل : دراسات في الرواية الليبية ، طرابلس – ليبيا ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ، ص ١٠ .

(٦) : د . سيد حامد النساج : بانوراما الرواية العربية الحديثة ، دار المعارف بمصر ١٩٨٠ ص ٢٣٧ .

(٧) : رواية «يموتون غرباء» لمحمد عبد الولي ، و «الرهينة» لزيد مطيع دماج . نشرتا في بيروت .

(٨) : د . عبد الحميد ابراهيم : القصة اليمنية المعاصرة (١٩٣٩ – ١٩٧٦) ، بيروت ، دار العودة ص ١٤٧ .

أصدر محمود أحمد السيد رواية «جلال خالد»(٩) . لكن الناتج الروائي في العراق نادر وقليل كما ، في حين أن الشعر و القصة القصيرة قد سبقا فن الرواية بكثير»(١٠) .

واذا ما توجهنا الى المغرب العربي، فسنرى أن الخريطة الروائية تبدو متفاوتة في أقطاره الثلاثة نشأة و حجماً و نوعاً ، فقد سبقت تونس و المغرب الأقصى ، الى معرفة النتاج الروائي الموضوع . ففي عام ١٩٣٥ صدر لعلي الدوعاجي رواية «جولة حول حانات البحر الأبيض المتوسط» . أما في الجزائر فقد كانت الرواية الأولى هي رواية «غادة أم القرى» الصادرة عام ١٩٤٧ ، للكاتب رضا حوحو . في المغرب تأخر ظهور الرواية الى عام ١٩٥٧ ، حيث نشر عبد المجيد بن جلون رواية «في الطفولة» ، و ما زال محصول الرواية في المغرب يعد ضئيلاً إذ لا يتجاوز محصول الروايات حتى مطلع الثمانينيات الثلاثين رواية(١١) .

أما بلاد الشام ، فقد كان لكل قطر منها ظروفه الخاصة ، التي انعكست على نشوء الفن الروائي فيه و حجمه و تطوره ، على الرغم

(٩) : يرى الدكتور عمر طالب في كتابه « الفن القصصي في الأدب العراقي » أن الرواية الايقاظية لسليمان فيظي الصادرة عام ١٩١٩ هي « أول عمل كامل في العراق تظهر فيه ملامح السرد الروائي الى جانب العناية بالحوار » ، ص ٦٣ .
(١٠) : د . سيد حامد النساج : بانوراما الرواية العربية ، ص ١٥٦ .
(١١) : محمد عز الديكي التازي « الواقع والمتخيل من خلال علائق البحث النظري والكتابي في الرواية المغربية » الرواية العربية واقع وآفاق ، نخبة من الروائيين العرب . بيروت– دار ابن رشد ، ص ٢٣٧ .

الرغم من التشابه الجغرافي و التاريخي لهذه الأقطار . و قد بات معروفا أنه في لبنان كان منشأ الفن الروائي العربي ، وأن اللبنانيين المهاجرين الى مصر هم الذين نقلوا معهم هذا الفن ، عن طريق الترجمة و الاقتباس. ولكن هذا الفن تعثّر بين أيديهم بعد ذلك ، واضطرب إنتاجه ، فتوقف حيناً ، وقلّ في بعض الأحيان حتى إنه من الصعب العثور على رواية تقترب من النضج ، حتّى أواخر العقد الأول من القرن العشرين . يقول الدكتور عبد الرحمن ياغي : «كانت الحركة الأدبية في لبنان ، بفعل الحرب العالمية الأولى، قد ضعفت ، و ضعف وهج المشعل في أيدي كتاب الرواية اللبنانية . . . وسلموا زمام الأمور أو كأنهم فعلوا ذلك . . للكتاب المصريين ، الذين دفعهم زخم الحياة السياسية الجديدة و حركاتها ! أن يبعثوا الوهج في الشعلة »(١٢) ، ولم تتحسن الحال بعد الحرب العالمية الأولى وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية إذ لم يصدر في السنوات التي استغرقتها الحرب أي أثر ملفت للنظر .

في هذا الوقت كانت الرواية في مصر تتقدم بخطاً متسارعة ، لتحتل — والى الآن — مكان الصدارة في الرواية العربية كمّاً و نوعاً .

أما في سورية جارة لبنان و شريكتها في الوقوع في شرك الاستعمار الفرنسي ، فيؤرخ ظهور الرواية الفنية فيها برواية «نهم » (١٣) لشكيب

---

(١٢) : د.عبد الرحمن ياغي : في الجهود الروائية مابين سليم البستاني ونجيب محفوظ، بيروت المؤسسة العامة للدراسات والنشر ، ط٢ ، ١٩٨١ ، ص ٦٧ .

(١٣) : سبقت هذه الرواية عدة روايات لم تتوافر فيها الخصائص الفنية الكافية ، مثل روايات نعمان قساطلي ، ومعروف الأرناؤوط .

الجابري ، الذي أصدرها عام ١٩٣٧ ومن الثلاثينيات إلى نهاية الخمسينات خطت الرواية في سورية خطوات بطيئة جداً من ناحية الكم ومن ناحية الكيف ، و ظلت محدودة التنوع ، قليلة الجرأة في تناول موضوعات الحياة العامة ، أو في التجاوب مع التقنيات الحديثة(١٤) ، لكنها أخذت تحقق تقدماً ملحوظاً ابتداء من منتصف الستينات .

و يتفق الباحثون على آن فلسطين تأخرت عن سورية و لبنان في الاهتمام بالفن الروائي إن كان ترجمة أو وضعاً ، وأن رواية «الوارث» (١٥) لخليل بيدس ، الصادرة عام ١٩٢٠ هي أول رواية فلسطينية أيّاً كان الخلاف حول مستواها الفني(١٦) . و قد ظلت الأعمال الروائية الفلسطينية حتى النكبة قليلة العدد ، ضئيلة المحصول الفني و الفكري و الاجتماعي «فهي لم تشكل بدايات الرواية الفلسطينية ، ولم تتجاوز محاولات لم تنضج ، استبقت البداية الحقيقية »(١٧) . لقد ظلت الرواية «عاجزة عن اكتساب حضورها كفن متميز له خصوصيته و دوره و معناه»(١٨)، و بعد النكبة ، و بدقة أكبر ، بعد نكسة

(١٤) : د . حسام الخطيب : روايات تحت المجهر ، دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ١٩٨٣ ص ١٤ .

(١٥) : يذكر أدهم الجندي في كتابة أعلام الأدب والفن / الجزء الثاني / ص ٤٣١ ، أن محمد بن الشيخ أحمد التميمي « هو أول من أبرز رواية العربية وسماها « أم حكيم » « لكن الرواية ضائعة ، وبذا تكون رواية « الوارث » هي الرواية الفلسطينية الرائدة . عن : د . أحمد أبو مطر : الرواية في الأدب الفلسطيني ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠ ، ص ٤٨ .

(١٦) : المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(١٧) (١٨) : فاروق وادي : ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١ ، ص ٣٣ .

حزيران عام ١٩٦٧ ، انطلقت الرواية الفلسطينية تحتل موقعاً هاماً في الرواية العربية ؛ خاصة في طروحاتها و إنجازاتها الجمالية .

و يأتي الأردن آخر قطر في بلاد الشام يستجيب للفن الروائي فقد ذكر الدكتور خالد الكركي أن أول رواية أردنية صدرت عام ١٩٤٠ ، و كانت بعنوان «أين حماة الفضيلة» ، و قد نشرت في صحيفة الجزيرة منسوبة الى فتاة ذيلتها بتوقيع «أ . ب . ج . د» ، وقد أشار عدد من الدارسين الى أن مؤلفها هو تيسير ظبيان «بل إن أحد الكتاب ، هو ممدوح المغربي ، قد اعتبره أول روائي أردني باعتبار هذه المذكرات المنشورة في الجزيرة سنة ١٩٤٠ أول رواية نشرت في الأردن . و قد نقل الدكتور سمير قطامي في معرض حديثه عن هذه المذكرات أن بعض معاصري ظبيان ، و بالذات عيسى الناعوري يقول إن ظبيان كان يكتب هذه المذكرات و ينسبها الى فتاة في محاولة لترويج صحيفته»(١٩) . والمتأمل للنتاج الروائي الأردني — كما يقول الدكتور ابراهيم السعافين — «يلحظ ندرته ، و تعثر تجاربه ، وعدم اتساقه بل عدم انتظام الكتاب في انتاجهم»(٢٠) .

بعد هذا العرض الموجز لنشوء الرواية في الوطن العربي ، ننعطف لنتحدث عن الإسهام النسوي في الرواية العربية .

و نستطيع أن نقرر بادىء ذي بدء ، أن المرأة الكاتبة ، استجابت

(١٩) : د . خالد الكركي : الرواية في الأردن ، عمان ، نشر بدعم من الجامعة الأردنية، ١٩٨٦ ص ١٩ .

(٢٠) : د . إبراهيم السعافين : « ملامح الرواية في الأردن » ، المعرفة ، دمشق ، العدد (٢٤٠) ١٩٨٧ ، ص ٦١ .

للفن الروائي ، منذ نهاية القرن الماضي ، وأن إسهامها فيه كان مرتبطاً بحجم هذا الفن ونموه في البلدان العربية فاذا كان الفن موجوداً ومتطوراً في بلد عربي ما ، فان الأنتاج النسوي يكون موجودا و متطوراً — وإن كان بنسبة أقل — ، فالبيئة الاجتماعية والثقافية هي التي تفرز الأدب و الفكر ، و تنشيء المواهب بغض النظر عن جنسها . وإذا كان الإنتاج الروائي النسوي يقل عن انتاج الرجل ، فهذا عائد الى الصعوبات النوعية الخاصة، التي تعترض طريق الرواية . فالرواية ليست دفقة عاطفية وليست تأثراً بحادث يومي صغر أو كبر تستجيب له القصيدة أو القصة القصيرة . بل هي عالم عريض متكامل تتكاثر فيه الشخصيات والأحداث المنبثقة من بيئة زمانية و مكانية خاصة على الكاتب أن يكون خبيراً بجزئياتها ، عالماً بتضاريسها وخفاياها مبحراً في أعماق إشكالياتها ، محللاً لها و باحثاً عن آفاق جديدة للخروج منها . و هذا ليس من السهل أن يتوافر لمرأة ما زالت تعيش قيداً وتقاليد موروثة لمجتمع يبدو متمسكاً بها أكثر من ثورته عليها .

فالتجربة الحياتية التي يعيشها كل روائي بالضرورة حتى يكون أديبا ناضجاً،مستمرا في عطائه،قل أن تعيشها امرأة،الا اذا امتلكت جرأة نادرة ، مقترنة بالوعي والرغبة في الثورة على المفاهيم المتجذرة في النفوس التي يعلو على شفاهها دائما دعاء : «اللهم نجنا من التجارب» الملتصق بالمرأة أكثر من التصاقه بالرجل . تقول الكاتبة الأمريكية جسامين وست : «إن على الكاتب كي ينجح أن يتصف بثلاث صفات : حب المطالعة ، والثانية : حب الكتابة والثالثة : معرفة الحياة»(٢١) .

(٢١) : جين فوير : شهيرات أدبيات أميركا ، ترجمة سميرة حسان ، بيروت ، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر ، بيروت ، ص ١٣٢ .

وإذا كانت المرأة تعاني معاناة تصل أحيانا كثيرة الىدرجة التمزق لعدم امتلاكها الوقت الكافي و الهدوء النفسي للمطالعة ، و التدريب على حرفة الكتابة ضمن غمرة الانهاك في متاعب الزواج و الأمومة والتكيف مع متطلبات المجتمع ونظرته الجائرة للمرأة ، فانها تعاني أضعافاً مضاعفة من الصراع المرير بين رغبتها في تكسير الأصفاد ، والانطلاق الى الحياة الواسعة ، تعايشها معايشة حارة بوجوهها كافة ، وبينالخوف من التجربة التي قد تقودها الى السقوط الاجتماعي ،والغرق في بئر الوحدة ، بعيداً عن السند الأسري والاجتماعي . وهي إن كانت تتجرأ في تجاوز أسرتها و بيئتها الضيقة ، فانها قد تخونها الجرأة في الخطوات الأولى، لعدم ثقتها التامة بمن يجب أن يناصرها ، ويشد من أزرها ، أعني حملة الأقلام والمثقفين عموماً ، اللذين مازالوا — على الأغلب — نتيجة حملهم لموروث ذكري يمتد الى آلاف الأعوامينظرون للمرأة نظرة تعلي من مفهوم الأنوثة التقليدي المرضي ، أو لنقل السلبي ويحاسبونها كما يحاسبون أية امرأة تقبع في البيت ، أو تمارس عملاً وظيفياً كسولاً ، لذا تفضل المرأة الموهوبة الانكماش على الذات والأسرة ، و العيش في الظل ، وعلى هامش الحياة الأسرية والوظيفية صوناً لها ، و رغبة في الهدوء و الاستقرار . فقليلات هن من امتلكن الارادة الماضية ، والثقة بالنفس والطموح الكبير ، والنفس الطويل والقدرة على تحمل الألم الاجتماعي ، للوصول الى انتزاع الاعتراف بهن أدبياً و إنسانياً ، كغادة السمان مثلاً .

اذاً إن المعالجة الروائية لا تتم ، ولا يكون لها حياة ، دون تجربة حياتية غنية ، وثقافة واسعة ، ومتنوعة . وهذا هو السبب الرئيسي

في قلّة المحصول الروائي النسوي ، بالقياس مع المحصول الذكري في الوطن العربي . ولكن مع ذلك كان الفن الروائي النسوي موجوداً منذ منتصف العقد الثاني لنشوء الفن الروائي في الوطن العربي على يد سليم البستاني كما أسلفنا الذكر .

وقد سبق وأشرنا إلى أن اللبنانيين كانوا روّاد هذا الفن ، وكذا كانت اللبنانيات ، سواء المهاجرات إلى مصر ، أو المقيمات في لبنان . فقد صدرت الرواية الرائدة عام ١٨٩٥ للكاتبة المتميّزة زينب فوّاز (٢٢) اللبنانية الأصل ، والتي كانت تقيم في مصر آنذاك ، وقد أسمتها « حسن

(٢٢) : ولدت في قرية تبنين في أسرة فقيرة ، وهناك روايات مختلفة حول سنة ولادتها تتراوح بين عامي ١٨٤٥ – ١٨٦٠ . كانت أسرتها مقربة من الأسرة الأسعدية الحاكمة في جبل لبنان آنذاك ، وقد استرعى ذكاؤها انتباه السيدة فاطمة الخليل ، فعلمتها القراءة والكتابة ثم انكبت على الكتب والمخطوطات القديمة تقرؤها ، ولم تكتف نفسها التواقة الى العلم بما نالته في لبنان ، فسافرت الى مصر ، وتتلمذت على مشاهير علمائها ، ثم أخذت تقرض الشعر ، وتكتب المقالات الصحفية ، وتشجع الفنون الوليدة ، وفي طليعتها المسرح فألفت مسرحية « الهوى والوفاء » . طالبت بتعليم المرأة ومساواتها للرجل ، وسألت الرجل أن يرفع عنها سيطرته ، وألفت كتاب « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » ترجمت فيه لشهيرات الشرق والغرب من ملكات وأديبات وفاضلات . كانت تملك وعياً متقدماً على عصرها ، فقد هاجمت مقررات مؤتمر سنتياغو الذي عقد عام ١٨٩٣ لدرس شؤون المرأة وحقها في التعليم . وقد صوتت المشاركات فيه على قرار يدعو الى تحديد التعليم للمرأة لأن مجال نشاطها محدود في أسرتها وبيتها . تقول : « ما دام الرجل والمرأة متساويين في المنزلة العقلية ، وعضوين في الهيئة الاجتماعية ، ولا غنية لأحدهما عن الآخر ، فما المانع إذا اشتركت في أعمال الرجل ، وتعاطت العمل في الدوائر السياسية وغيرها ، متى كانت كفوءاً في تأدية ما تطمح إليه ، فالجنسان متساويان ، وإنما الاهمال هو الذي جعل المرأة متأخرة ، متخلفة عن الرجل » .

انظر : زينب فواز : حسن العواقب ، نشرت مع مسرحية الهوى والوفاء . تحقيق فوزية فواز ، لبنان ، المجلس الثقافي اللبناني الجنوبي ، من سلسلة التراث العاملي ١٩٨٤ ، ص ١٦ .

العواقب أو غادة الزاهرة » ، وأعقبتها بعد سنوات برواية « كورش ملك الفرس » ؛ ثم تلتها مواطنتها لبيبة هاشم (٢٣) التي قدمت إلى مصر ، وتفتحت مواهبها فيها ، فأصدرت عام ١٩٠٤ رواية اجتماعية بعنوان « قلب الرجل » ؛ وفي عام ١٩٠٧ نشرت رواية ثانية بعنوان « شيرين أو فتاة الشرق » .. وبعد عامين كتبت اللبنانية لبيبة مخائيل صوايا(٢٤) رواية « حسناء سالونيك » وتبعتها عام ١٩١٢ اللبنانية فريدة عطيّة (٢٥) بروايتها التاريخية « بين عرشين » .

تحمل الروايات السابقة سمات المرحلة التي أنتجتها ، فهي تراوح بين رواية التسلية والترفيه ، والرواية التاريخية ، والرواية ذات الطابع الاجتماعي . فالرواية الرائدة تشبه في حبكتها واسلوب سردها ، وتراكم أحداثها ، وبناء شخوصها ، روايات سليم البستاني . فحبكتها تقوم على تنازع الأمير تامر والأمير شكيب — وهما حفيدان لأمير لبناني

(٢٣) : ولدت في بيروت ، ثم نزحت مع أسرتها الى مصر في مطلع القرن العشرين . أصدرت في القاهرة عام (١٩٠٦) مجلة « فتاة الشرق » ، ثم عملت أستاذة محاضرة في القسم النسوي في الجامعة المصرية . أوكلت اليها عام (١٩١٩) وظيفة التفتيش في وزارة المعارف بمصر . أصدرت عام (١٩٢٣) مجلة « الشرق والغرب » في جمهورية التشيل. ثم عادت الى مصر وأعادت اصدار مجلة « فتاة الشرق » . انظر : د . محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث ٨٧٠ — ١٩١٤) بيروت ، دار الثقافة ، ص ١٣٠ .

(٢٤) : ولدت في لبنان عام (١٨٧٦) وتلقت علومها في المدرسة الأمريكية في طرابلس . ثم عملت فيها بعد أن نالت شهادتها . كانت شاعرة وخطيبة بالاضافة الى كتابتها المقالات التي كانت تنشرها في الصحف العربية . انظر : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٢٥) : ولدت في طرابلس عام (١٨٦٧) ، وتوفيت عام (١٩١٨) . درست في المدرسة الأمريكية ثم عملت فيها لفترة من الزمن . اشتغلت في الأدب والصحافة ، وأصدرت عدة كتب ، يأتي في مقدمتها ترجمة لأيام بومبي الأخيرة للورد ليتون . انظر : المرجع السابق ، ص ٢٢٧

عظيم كان يعيش في منتصف القرن الماضي – على حب ابنة عمهما الأميرة فارعة ، التي تفضل شكيباً على تامر ، الذي يمثل عنصر الشر الكامل والذي يقوم بعدّة مكائد ومؤامرات ، يساعده على تنفيذها المجرمون ، بغية خطف الأميرة . ويتصدى له شكيب ، الذي يمثل عنصر الخير الخالص . وتنتهي الرواية بفوز شكيب بحبيبته ، وزواج أصدقائه بمن يحبون ، واندحار تامر وأعوانه . فهذه الرواية « تكاد تكون نموذجاً في بناء عقدتها لكثير من روايات التسلية والترفيه ، وذلك في تراكم أحداثها وتراكبها وخضوعها للقدر والمصادفة واعتمادها على العلاقة الغرامية والمغامرة ، وتدخل القارىء ومخاطبته ومحاولة الربط بين الفصول ربطاً تعسفياً لانعدام الرابطة الحقيقية ، غير أن هذه الرواية تتميز بطابع السيرة الشعبية وذلك لأن المؤلفة تعلّق على الأحداث بالشعر ، وتصف بعض المواقف في ألفاظ تقربها من نفس الأوصاف التي ترد في السيرة الشعبية » (٢٦) .

وتعمد الكاتبة إلى مخاطبة القارىء وتوجيهه ، للانتقال من حدث الى آخر ، لأن الأحداث ليست عفوية ، وليست مبنية وفق قانون السببية ، حيث ينتقل القارىء بينها بيسر ودون إرشاد ففي بداية الرواية مثلاً تقول : « قم بنا أيها الرائد سطح الأرض السائح في فسيح الأقطار والطائف في غامر البلدان والأمصار لنجعل وجهتنا سورية وفلسطين

(٢٦) : د . عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠ – ١٩٣٨) ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ ، ص ١٥١ .

ونسرح الطرف في بديع مناظر ضواحي جبل شامخ الطبيعية ، وانظر بعين التأمل لحاتيك الرواني الزمردية تجد حصنا حصيناً :

فقــف هنــاك وحــــول نحــــوه البصــــرا
واسمع فعــن أهلــه أروي لك الخبــــرا (٢٧)

وفي موضع آخر تقول : « هذا ما كان من أمر هذا الخبيث ، وأما ما كان من أمر شكيب ونجيب . . . » (٢٨) .

إنها تتدخل لتلقي بأحكامها على شخصياتها التي تصفها بأوصاف كلاميّة تخلو من الابتكار وتعتمد على محفوظاتها من الأوصاف العربية التقليدية ؛ كوصف النظرات بالسهام ، والألفاظ بالورد . وتعمد في لغتها – ككل كتّاب تلك المرحلة – إلى المزاوجة بين السجع والنثر البسيط والاستشهاد بالشعر ، أما الحوار فقد جاء ضئيلاً ، وهذا أمر طبيعي في روايات تعتمد على السرد التقريري ، لا على رسم حياة نابضة ، مموّارة بالحركة .

ومن قصص التسلية والترفيه لهذه المرحلة ، كانت رواية « قلب الرجل » للبيبة هاشم وهي تحمل الصفات نفسها التي اتصفت بها الرواية السابقة من حيث اعتمادها على علاقة غرامية تنشأ بين حبيبين مثاليين هما حبيب وفاتنة . يقف عقبة في طريق زواجهما رجل شرير ، وهو في هذه الرواية الأمير الدرزي والد فاتنة . يخطف حبيب فاتنة ليخلّصها من استبداد والدها ، ويتعرّضان للأهوال والوحوش ، وينقذهما

(٢٧) : زينب فواز : حسن العواقب ، ص ٤١ .
(٢٨) : المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

راهب ، يعقد زواجهما ، بعد أن تعترف له فاتنة أنها مسيحية وأنها ابنة الأمير بالتبني .

لقد هدفت الكاتبة من تأليف الرواية إلى أمرين : إثارة التعاطف مع المسيحيين ضد الدروز إثر فتنة ١٨٦٠ . فقد قدمت لروايتها بقولها : « ولا نزيد المطّلع علماً بما كان من حوادث الفتنة الأهلية التي جرت في جبل لبنان سنة ١٨٦٠ م ، وما وقع في أكثر القوى من المذابح الهائلة ، وسفك الدماء الزكيّة ، بحيث اضطر معظم المسيحيين إلى الفرار من السيف والتشتيت في آفاق البلاد ، وكانت حينئذ لأحد الأمراء الدروز فتاة رائعة الجمال ، تدعى فاتنة ... » (٢٩) .

الأمر الثاني : الانتصار للمرأة وإظهار نقائها وشهامتها ، وتقلب الرجل وخداعه . وهذا إن دل على شيء فانه يدل على وعي كتّاب تلك المرحلة لوظيفة الرواية وخطورتها في التأثير والتغيير فمهمة الكاتبة لم تكن تسلية القرّاء وترفيههم فقط ، بل نقل أفكارها إليهم ، والتأثير بهم .

بالإضافة إلى الهدف الواضح في ذهن الكاتبة ، والذي أرادت توصيله إلى القرّاء ، فان الكاتبة وفرّت لروايتها خصائص فنيّة تؤهلها لتكون خطوة في التقدم نحو الرواية الفنيّة . فقد كانت « الحكاية قوية محكمة السرد » (٣٠) ، وأسلوبها قصصي متقن ، وان أكثرت من المبالغات

(٢٩) : عن : د . عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، ص ١٥٨ .
(٣٠) : د . محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث (١٨٧٠ - ١٩١٤) ، بيروت دار الثقافة ، ص ١٣١ .

والاعتماد على المصادفة » وشخصياتها متميّزة الملامح إلى حدّ بعيد . وقد اهتمّت بتحليل العواطف تحليلاً ظاهرياً ، كما حاولت تصوير الصراع الداخلي والحياة الباطنة للشخصيات . . . كما اهتمّت بتصوير البيئة والجو العام للحوادث . . . وهي تعتمد على الحوار ، ويعينها على إحياء الشخصيات وبثّ النشاط في الحوادث » (٣١) .

أما الروايات الثلاث الباقية ، فقد اتخذت من التاريخ مادة خاماً لها . فقد كتبت زينب فوّاز رواية « كورش ملك الفرس » . تحدّثت فيها عن سقوط دولة الميديين ، واستيلاء الملك الفارسي كورش عليها وعلى مملكتي نينوى وبابل ، واندماج هاتين الدولتين في مملكة فارس . وقد اتخذت من العلاقة الغرامية — ككل الروايات التاريخية — عقدة لها ، وصوّرت من خلالها مساوىء العبادة المجوسيّة ، ومحاسن التوحيد .

والروايتان الأخيرتان كانتا صدىً وتمجيداً للانقلاب العثماني الذي قام به الاتحاديّون وخلعوا بموجبه السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ . فقد أهدت لبيبة مخائيل صوايا روايتها « حسناء سالونيك » إلى الاتحاديين . وأبطال الرواية هم من عائلة حيدر خان زاده المجاهد في سبيل الحريّة ، وضد غطرسة وبطش عبد الحميد . وأحد شبابها زكي كان من زعماء الاتحاديين وقد أبلى بلاء حسناً في الجهاد ، ودفع حياته ثمناً للحريّة . وطبعاً لم تخل الرواية من قصّة حبّ فقد أحب زكي ابنة عمّه سميّة ، التي ساهمت في الجهاد من خلال التمريض والاسعاف واثارة الحماسة . وتموت في النهاية حزناً على حبيبها ، وتلحق بها خادمتها حزناً عليها .

(٣١) : المرجع السابق ص . ص ١٣١ — ١٣٢ .

وهي كمثيلاتها من روايات تلك المرحلة لا تحوّل المادة التاريخية إلى مادة قصصية ، بل تحرص على التوثيقية ، وعلى ذكر الحوادث ، باستطالاتها وتفاصيلها ، وتحشد حوادث كثيرة ، وتبالغ في تصويرها بحيث تفقد مصداقيتها ، فما المسوّغ لتميت سميّة وخادمتها ؟ ؛ ولم تنج الرواية من شرك المصادفة ، ولكن مع ذلك تبقى محاولة جادة لتلمس طريق الكتابة الفنية ، فقد « وفقت الكاتبة في رسم شخصيتي زكي وسميّة إلى حدّ يجعلنا ننوه بفضلها في ذلك بين كتّاب القصة في هذه الفترة وقد حاولت تحليل نفسيتهما ، ووضْعتهما في ظروف وحوادث مختلفة لتبرز عناصر شخصيتهما إبرازاً واضحاً » (٣٢) .

وقد تأخرت الرواية الثانية « بين عرشين » لفريدة عطية عما أنجزته الرواية السابقة . ولكن تبقى هناك ملامح مشتركة ، تجمع بينهما ، فحظ التاريخ كان كبيراً جداً ، والحوادث كثيرة غير مترابطة ، والمصادفة هي التي تطور الأحداث ، واللغة لم تكن متناسبة مع الشخصيات التي تنطقها فالدكتور الأرمني يرتجل خطبة على قبر عمه « وكأنه أديب من أدباء القرن الرابع الهجري » (٣٣) .

نجمع ما تفرّق من قول حول المحاولات الروائية النسوية الأولى ، فنقول : إنها كانت متصلة الأسباب بالمرحلة التي أفرزتها . وشبيهة بالروايات الصادرة آنذاك سواء التي أطلق عليها الدكتور عبد المحسن طه بدر اسم رواية التسلية والترفيه ، أو الرواية التاريخية . فاللغة يتجاوز

(٣٢) : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .
(٣٣) : المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

فيها السجع والنثر المرسل المحليان بأوصاف تقليدية ، وأبيات شعرية تعلّق على الأحداث وتصفها والعقدة تقوم على علاقة غرامية تنشأ بين حبيبين يمثلان عنصر الخير الذي لا تشوبه شائبة ، يقابلهما رجال ونساء يعترضون طريقهما ، ويكيدون لهما المكائد ، وهؤلاء هم أشرار خلّص ، وطبعاً هذا يتنافى مع طبيعة النفوس البشرية التي لا يمكن أن تكون سوداء أو بيضاء ، بل يتداخل فيها الأبيض والأسود ، الحسن والسيء ، في بناء مختلط مركّب ومعقّد . فالإنسان الحسن هو كذلك لغلبة العنصر الحسن في تكوينه ليس إلا .

وتكثر في هذه الروايات المؤامرات والمبالغات ، والأحداث التي لا تتنامى وفق السياق الداخلي للنص ، بل تفرض عليه من الخارج . فالكاتبة تخضع الأحداث لمشيئتها ، وللمصادفات البعيدة الاحتمال . وتحكم على الشخصيات ، وتخاطب القارىء وتوجّهه ، وتكثر في الروايات التاريخية ، المادة التاريخية ، بحيث تغدو أقرب ما تكون إلى الدراسة التاريخية .

ولاشكّ أن هذه الملاحظات ، لا تنفي ما قدّمته الكاتبات من إضافات فنية متقدمة تسجل لهنّ ، وقد أشرنا إليها .

بعد هذه المحاولات الروائية اللبنانية الرائدة توقف النتاج الروائي النسوي إلى أن طلعت ليلى بعلبكي بروايتها « أنا أحيا » عام ١٩٥٨ م — وقد أشرنا سابقاً إلى أن النتاج الروائي في لبنان اضطرب في فترة ما بين الحربين العالميتين فقلّ حيناً ، ونوقّف حيناً آخر — وقد أعقبتها بعد عامين بروايتها « الآلهة الممسوخة » ، ثم بدأت الأقلام النسوية تتجه في

ستينات إلى الفن الروائي ، وتساهم فيه مساهمة ناشطة ، فبرزت عدة أسماء هامة كليلى عسيران وإملي نصر الله ومنى جبور ، ولعل مرحلة الستينات هي المرحلة الأخصب والأكثر إنتاجاً في الرواية النسوية اللبنانية فقد صدرت أيامها حوالي تسع عشرة رواية ، بينما انخفض هذا العدد في السبعينات إلى سبع عشرة رواية . ويقل عدد الروايات الصادرة حتى منتصف الثمانينات عن العشر (٣٤) .

أما في مصر فلا نعثر قبل الخمسينات إلا على عمل واحد ، ويظل الانتاج الروائي النسوي شحيحاً حتى السبعينات . ففي الخمسينات لانلتقي إلا بثلاثة أعمال ، ويصل هذا العدد في الستينات إلى الستة أعمال تقريباً . وتعد السبعينات فترة ازدهار النتاج الروائي النسوي ، فقد بلغ مجموع الروايات — حسب استقصاءاتنا — اثنتين وثلاثين رواية . وهذا يعني أنه قد تصدر في العام أكثر من روايتين .

وفي سورية أعلن ميلاد الرواية النسوية في عام ١٩٥٠ ، وقد صدرت في الخمسينات خمس روايات ، وهذا أعلى معدل تبلغه الرواية النسوية في الخمسينات . وبدأت تنمو الرواية في الستينات حتى وصل عددها إلى الخمس عشرة رواية ، أما في السبعينات فلم يتعد الثلاث عشرة رواية . وتشير الروايات الصادرة حتى منتصف الثمانينات إلى اتساع رقعة الرواية النسوية في سورية ، إذ وصل عددها إلى اثني عشرة رواية .

(٣٤) : جميع الأرقام الواردة في هذه الدراسة تقريبية ، لأن هناك روايات لم يذكر تاريخ نشرها وقد تكون هناك روايات أخرى لم تحط بها الدراسة .

وفي فلسطين ، كتبت مريم مشعل رواية « فتاة النكبة » عام ١٩٥٧ ، ولم تصدر الرواية الثانية إلا في السبعينات ، وقد أنتجت هذه المرحلة ثلاث عشرة رواية ، بينما لم يصدر حتّى منتصف الثمانينات سوى عملين اثنين * .

وفي الأردن مازال النتاج الروائي النسوي قليلاً ومضطرباً كالنتاج الروائي عامة ، ومازال محصوراً في اسم واحد فقط : جوليا صوالحة التي نشرت حتّى منتصف الثمانينات خمس روايات ، أولاها كانت رواية « سلوى » وقد صدرت عام ١٩٧٦ م .

أما في العراق فقد جاءت المحاولة الروائية النسوية الأولى مبكرة نوعاً ما ، وهي رواية « عقلي دليلي » لمليحة اسحق الصادرة عام ١٩٤٨ ، وقد صدرت في الخمسينات أربع روايات ومثلها في الستينات ، أما في السبعينات فقد وصل العدد إلى العشر روايات . ولكن المحصول الفنّي لهذه الروايات يعد ضئيلاً باستثناء بعض الأعمال سنأتي على ذكرها لاحقاً .

وإذا ما توجّهنا إلى شبه الجزيرة العربية فسنجد آن الرواية في السعودية والكويت مازالت تعاني من صعوبات فنيّة كبرى ، بحيث نستطيع القول إنها لم تتخط بعد مرحلة البدايات . وقد بدأت الرواية السعودية في الظهور في الستينات ، ولا يزيد عدد الروايات حتّى بداية الثمانينات على العشرة . أما في الكويت فقد ظهرت الرواية الأولى عام ١٩٧١ وهي

(*) : هناك عمل لم يكتب تاريخ الطبع على الغلا ف .

رواية « وجوه في الزحام » لفاطمة يوسف العلي . صدرت بعدها أربع روايات كان آخرها « المرأة والقطة » للكاتبة ليلى عثمان . وقد نشرتها عام ١٩٨٥ م .

وفي البلدان العربية الأخرى مازال النتاج الروائي النسوي ضئيلاً جداً ، ففي المغرب الأقصى لا نعثر إلا على أربع روايات ، صدرت أولاها عام ١٩٦٧ بعنوان « غداً تتبدل الأرض » وهي لفاطمة الراوي . بينما لا نقرأ سوى رواية عربيّة واحدة في الجزائر ، تحمل عنوان « من يوميات مدرسة حرة » كتبتها الزهور ونيسي ، ولم تصدر في تونس — فيما أعلم — أية رواية نسوية عربية .

ولا تملك ليبيا حتى منتصف الثمانينات سوى ثلاثة أعمال روائية نسوية ، نشر أولها عام ١٩٧٢ ، وحمل عنوان « شيء من الدفء » وهو للروائية مرضية النعاس . ولم ينتج السودان سوى رواية يتيمة لملكة الدار عبد الله نشرتها عام ١٩٧٤ بعنوان « الفراغ العريض » وكذا في اليمن فلا توجد سوى رواية واحدة لرمزية عباس الأرياني ، أسمتها « ضحية الجشع » ، وقد صدرت في أوائل السبعينات .

لقد تبيّن لنا مما سبق أن الرواية النسوية العربية ، بعد البدايات الأولى ، أخذت تقترب في الخمسينات من الفن الروائي اقتراباً وجلاً ، فلا نلتقي في هذه المرحلة إلا بأعمال قليلة لا تزيد على الثمانية عشر عملاً في أنحاء الوطن العربي المترامي الأطراف . لكن الرواية النسوية منذ الستينات بدأت تغذ السير بخطاً أكثر سرعة وجرأة وثقة ، وبرزت مجموعة

من الأسماء ساهمت مساهمة نشطة في بناء الرواية العربية كمّاً ونوعاً . ولكن لابدّ من الاقرار بأنّ النتاج الروائي النسوي مازال قليلاً بالمقارنة مع الإنتاج الذكري . ففي السبعينات مثلاً ظهرت في مصر مئتان واثنتان وتسعون رواية . وهذا يعني أن رواية الرجل تزيد على رواية المرأة بأكثر من تسعة أضعاف . وفي سوريا صدرت ما بين عامي ١٩٣٧ — ١٩٧٩ مائة وسبعون رواية ذكرية بمقابل ست وعشرين رواية نسوية فقط ، أي أن حجم رواية الرجل يزيد بأكثر من سبعة أضعاف . وقد قامت الدكتورة إلهام غالي باجراء إحصائية للرواية العربية ما بين عامي ١٩٥٦ — ١٩٧٦ ، وقد تبيّن لها أن ٩٢ ٪ من الروايات كتبها أدباء رجال ، و ٨ ٪ كتبتها أديبات نساء (٣٥) .

ولعلّ قلّة النتاج الروائي هي الظاهرة الأولى التي يقف عليها الدارس للرواية النسوية . أما الظاهرة الثانية التي لا يفلت منها إلا عدد قليل من الكاتبات فهي الانقطاع وعدم الاستمرار . فقد تصدر الكاتبة عملاً أو عملين ، ثم تتوقف بعد ذلك . وغالباً ما تكون الأعمال الأولى ملتصقة بالحياة الشخصية للكاتبة ، أو للمرأة عامة .

وإذا ما بحثنا عن سبب الظاهرتين السابقتين فسنعثر على الإجابة في الوضع الخاص الذي تعيشه المرأة . فالرواية — كما قدمنا — تحتاج إلى الثقافة الفنية ، والتجربة العميقة ، بالإضافة إلى النفس الطويل ، وإلى المعالجة المستمرة دون انقطاع ، وهذا يعني أن تتفرّغ الكاتبة لعملها

---

(٣٥) : د . إلهام غالي : غادة السمان ، الحب والحرب ، دراسة في علم الاجتماع الأدبي ، بيروت دار الطليعة ، ١٩٨٦ ، ص ١٤ .

بعد أن عاش معها فترة طويلة حتى اختمر وتوضّحت معالمه ، وهذا قلّما يتوافر للمرأة وقد أشرنا سابقاً إلى ذلك — لذا فهي تمد يدها إلى عالم جاهز تعرفه حق المعرفة ، عالم الذات ، أو عالم شبيه بعالمها تلتقي همومها وآلامها بهمومه وآلامه ، عالم المرأة الأخرى وبعد أن تفرغ عالمها أو عالم الأخرى في عمل أو اثنين ، تنحسر الموهبة ، وتتقوقع داخل الذات لأن التجربة وصروف الحياة لم تعد تسعفها . فالمسؤوليات الاجتماعية والأسرية الملقاة على عاتق المرأة تعيق من استمرارها وإبداعها ، وهذا لا نجده لدى الكاتبة العربية فقط ، بل عانت منه المرأة الكاتبة الأوربية أيضاً ، فالكاتبات الانكليزيات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كن إما قد رفضن دورهن المهني ككاتبات ، أو كنّ متضايقات من هذا الدور ، لأن الحياة المهنية تسبب الكثير من المشاكل للكاتبة ، بالإضافة إلى المسؤوليات الجمّة والصراعات (٣٦) .

وقد أشارت الكاتبتان كارولين هيلبرن ونانسي ميلفورد إلى إعاقة الزواج لابداع الكاتبة ، لأن المسؤوليات التي تنهض بها المرأة في البيت مسؤوليات كبيرة تتعارض والتفرغ للإبداع . وقد لاحظت هيلبرن أن الكاتبات العظيمات كنّ على الأغلب غير متزوجات . ومن كانت زوجة كان زوجها متفهّماً لها ، وليس عندها أولاد كثيرون (٣٧) .

أما ارتباط الأعمال الروائية الأولى بالحياة الخاصة ، والتجربة الشخصية ، فلا ينطبق فقط على المرأة الكاتبة ، بل هي سمة قد تسم

---

(٣٦) Elaine Showalter : A Literature of Their own British Women ; Novelists From Brontë to Lessing , Hirago , London 1984, P, P, 1819,

(٣٧) : المرجع السابق ، ص ٦ ,

عدداً كبيراً من الكتّاب العرب . وهذا ما لاحظه الدكتور عبد المحسن طه بدر إذ قال : « نلمح في نتاج أغلب الروائيين العرب — باستثناء أقلية على رأسها نجيب محفوظ — ظاهرتين بارزتين : الأولى منهما تتمثّل في مخيّلة الأديب عن تصور عالم الآخرين ، ولذلك فهو يلجأ إلى أحداث حياته الخاصة ، ويجعلها موضوعاً لروايته . . . . أما الظاهرة الثانية التي تميّز الكثير من انتاج روائيينا ، فانها تتمثّل في أن أفضل أعمالهم تتمثل في الأعمال التي تتصل بأحداث حياتهم ؛ وهم بعدها إما أن يتوقفوا عن الانتاج ، وإما أن يقدّموا أعمالاً تقلّ في قيمتها الفنية عن أعمالهم الأولى ، على عكس ما كان متوقعاً » (٣٨) .

الظاهرة الثالثة البارزة التي نجدها في الرواية النسوية ، هي أن الهمّ النسوي الخاص هو الموضوع الأكثر حضوراً ، والأكثر تناولاً وكثافة . ولا يعود ذلك إلى افتقار معظم الروائيات إلى التجربة الحياتية الحارة والغنية فقط ، بل هنالك سبب آخر يوازيه ، وقد يفوقه أهمية في بعض الأحيان ، هذا السبب هو معاناة المرأة الخاصة ، ورغبتها في الإعلان عنها ، والدعوة إلى تغيير واقع المرأة .

فالفتاة وقبل أن تتفتّح براعم وعيها ، تشعر بالغبن الذي يلحقها لكونها فتاة . وتبدأ بشكل لاواع بالمقارنة والقياس بينها وبين أخيها . وكلّما ازدادت سنوات عمرها ازداد احساسها بالاختلاف عن أخيها ، وتميّزه عليها ، وبالتالي باجحاف أهلها بحقّها ، فالمحاذير تكثر والأوامر

(٣٨) : د . عبد المحسن طه بدر : الروائي والأرض ، دار المعارف بمصر ، ط٢ ، ١٩٧٩ ، ص . ص — ٤٤ — ٤٥ .

تزداد صلابة ، والنظرات تصبح أكثر صرامة لتنهى عن المحظورات التي لا تنتهي .

وتخرج الفتاة إلى المجتمع ، إلى المدرسة والجامعة ، ومن ثمّ إلى ميدان العمل ، فتلتقي بمن يقول تورية أو صراحة إنها مخلوق من الدرجة الثانية ، لا تملك مؤهلات الرجل ومواهبه وقدرته على العطاء والانتاج ، فلا يزيدها ذلك إلاّ إحساساً بالاضطهاد والإهانة ، وإنكار المجتمع لإنسانيتها وطاقاتها .

ومع دخول المرأة تجربة العلم والعمل ، اتسع أفقها ، وبدأت تغيرات جذرية ، تمس تكوينها الفكري والنفسي ، فبدأت تتخلص — بنسب متفاوتة جداً — من مفاهيم كانت ملتصقة بها ومرادفة لاسم المرأة . وطرأت تطورات جوهرية في منظومة مفاهيمها وزاوية رؤيتها فأخذت تقترب من المناطق المحظورة عليها ، وأخذت الهوّة تزداد بين وعيها وتطلعاتها وبين واقعها المرير فكان من الطبيعي أن تنبري الأقلام النسوية في البدء للتعبير عن واقع المرأة وتوضيحه وابراز آلام المرأة والظلم المحيق بها . وكانت هذه هي المهمة الأولى لمعظم الروايات ، تليها مهمة التغيير والمطالبة بحريّة المرأة . وكان من الطبيعي أن تضطرب الرؤية لمفهوم الحريّة في البدايات ، وأن تختلف الطروحات ، وتتباين البدائل . لكن هناك شبه إجماع على إدانة الرجل إدانة قد تصل إلى درجة الهجاء المرّ ، كما هي الحال في رواية وداد سكاكيني « أروى بنت الخطوب » ، فقد أظهرت الرجل خالياً من القيم ، متهالكاً على اللذات ، منتهكاً للحرمات تسيّره غرائزه ، بينما المرأة طاهرة ، نقيّة ،

عفيفة ، صابرة ، تصارع أهواء الرجل ونزواته ، وتنفر من المحرمات ، ومن الجسد ، حتّى تصبح قدّيسة .

معظم الكاتبات في الخمسينات والستينات اتخذن من حريّة الحبّ والجنس عنواناً لحرية المرأة وأعتقد أن الالحاح على حريّة الحب والجنس ناجم عن سببين بارزين : أولهما : أن هذا الموضوع هو ألصق بحياة المرأة التي تعيش الظروف السابقة ، وبعضاً من الظروف الراهنة ، التي تفرض على المرأة حصاراً اجتماعياً ، يكبت عواطفها ، ويحرم عليها الإعلان عن مشاعرها ، ويمنعها بالتالي من الاختلاط بالجنس الآخر ، فيفرض عليها الزوج فرضاً مباشراً أو غير مباشر . ولاشكّ أن المطالبة بحريّة الجنس تمثل قمّة التحدّي لمفاهيم المجتمع ، لأنها تمسّ أكثر المفاهيم تقديساً ، ولأن الخروج عنها يعد انتهاكاً للمحرمات ولمفهوم الشرف .

السبب الثاني ، هو أن معظم الروائيات كنّ من الطبقة البرجوازية المتعلّمة والمطّلعة على الآداب والثقافة الغربية ، والمتأثرة بموجة الوجودية التي انتشرت في الغرب ، وتأثر بها جزء من مثقفينا . ومن البديهي أن تكون مشكلة حريّة الحب والجنس هي المشكلة الأساسية التي تعاني منها المرأة البرجوازية التي لا تملك مشكلات اقتصادية طاحنة ، وواقعاً اجتماعياً مزرياً ، يدفعها إلى العمل لتسكين آلام المعدة الخاوية ، ولتجاوز واقع اجتماعي بائس قد يجرّ إلى الهاوية . لذا لم تر الكاتبة — غالباً — أن العمل والاستقلال الاقتصادي هما الخطوة الأولى على طريق الحرية الشاقة ، فمعاناتها تنحصر في كيف أنها ستعيش درجات السعادة كاملة .

كيف ستعيش حياة مملة حتى آخر رمق . وبطلة هذه الروايات إن طلبت العمل ، ودخلت معتركه ، فعلى الأغلب الأعم ليس لرفع سيطرة الرجل الاقتصادية أو لحلّ ضائقة مادية ، أو لتحقيق طموح ومشروع تحرر ، بل لتزجية الفراغ كما فعلت بطلة « أيام معه » لكوليت خوري . وإن طلبت البطلة العمل لتنال استقلالها الاقتصادي ، وتتمرّد على سلطة الأب ، فإنها تعود عن ذلك بعد مدة من الزمن فتغتال مشروع تحرّرها ، وتغرق في دوّامة البحث عن رجل يمنحها الحماية والاستقرار ، مثل بطلة « أنا أحيا » لليلى بعلبكي ، وبطلة « فتاة تافهة » لمنى جبّور .

ومن أهم الأسماء التي عالجت موضوع حريّة الحب والجنس : صوفي عبد الله ، ليلى بعلبكي ليلى عسيران ، ماجدة العطار ، كوليت خوري ، جورجيت حنوش . وقد رسمت أعمالهن طريق التمرّد الفردي التزق ، ولم تر في الحرية مشروعاً كبيراً لن يتحقق إلا بالنضال لتحرير المجتمع برجاله ونسائه . ولذا فقد عجزن عن ربط بطلاتهن باطارهن الاجتماعي ، ولم يستطعن إرجاع المشكلات إلى منابعها الحقيقية من فقر وجهل وتخلّف وموروث متجذر تطيل عمره الأنظمة السياسية السائدة . لقد قدمن بطلاتهن ، وهنّ يعشن باعتبارهن حالات خاصة مستقلة بذاتها ، ومنعزلة عن الحياة الخارجية ، وعن الآخرين . لقد قالت قديماً الأديبة الكبيرة جورج إليوت : « لا توجد حياة خاصة لم تقررها حياة عامة أوسع » (٣٩) . لكن صوفي عبد الله مثلاً لا تنتبه إلى ما تنبهت إليه قبلها بسنوات طويلة جورج إليوت ، فقد تناولت

(٣٩) : نقلا عن : أرنولد كيتل : مدخل الى الرواية الانكليزية ، ترجمة هاني الراهب ، دمشق وزارة الثقافة ، المجلد الأول ، ١٩٧٧ ، ص ٢٢٦ .

« مشكلة المرأة وأزمة الجنس كقضية مستقلة بذاتها لا كظاهرة عرضيّة عابرة . . . بمعنى أنّها لا تمسّ هذا الموضوع كجزئية متداخلة مع جزئيات أخرى من شريحة اجتماعية . تكتفي الكاتبة بتصويرها ككل . . . بل هي تتناول هذه الجزئية بالذات وتنضو عنها ثيابها من العناصر المتشابكة معها ، وتتفرّغ نهائياً لهذه القضيّة في جميع أبعادها » (٤٠) .

ونلتقي في الرواية النسوية بظاهرة قد تبدو غريبة أول وهلة ، لكن ما إن ندقّق النظر فيها حتّى نتبيّن منبتها . هذه الظاهرة هي ظاهرة التفرّد والاستعلاء . فالمرأة الطموح الثائرة على وضعيتها الاجتماعية ، والتي نالت قسطاً من الثقافة والوعي تتمرّد على واقعها ، فتثور ثورة عنيفة لا على المجتمع الذي وضعها في زاوية الأنوثة السلبية التي تحكمها اللاءات الكثيرة فحسب ، بل تثور على الأنوثة نفسها ، وكأنّها هي السبب في الوضع المزري الذي تعيشه . وعندما تنظر الأديبة حولها ، وترى خضوع المرأة لاستلابها ، وخنوعها ، واستسلامها لتشييئها ، تثور على جماعة النساء ، وتنظر إليهن بترفع ودونية — ربما أكثر من الرجال — وتصب جام غضبها عليهن عوضاً عن استيعابهن ، واستيعاب الشرط الذي يعشنه . نجد هذه الظاهرة في نتاج منى جبّور وبشكل أكثر إلحاحاً واستمرارية في روايات نوال السعداوي . فبطلة « فتاة تافهة » لمى جبّور تثور على الرجال والأطفال وعلى النساء وأنوثتها . وتريد أن تكون شيئاً آخر ، شيئاً منفرداً لا يربطها بعالم الرجل المتغطرس ، ولا بعالم المرأة الذليلة « هذا الجسد يجب أن يقوم بمهمة ما ، أن يعيش

(٤٠) : د . غالي شكري : أزمة الجنس في القصة العربية ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة الجديدة ط ٣ ، ١٩٧٨ ص ٣٠٢ .

لهدف ما ، أن يكون إما جسد امرأة أو جسد رجل ! ، ولماذا لا يكون جسداً غريباً » (٤١) . « كلا لن أصبح امرأة ، صرخت ، لن أصبح امرأة » (٤٢) . « مستحيل أن تتخذ مني لذة ، فأنا لست امرأة . أنا كيان » (٤٣) ، « أنا حبكة منحلة من سلسلة الناس ، لا أريد أن أنضم ، لا أريد أن تطالني مثالية المرأة . . . » (٤٤) . إنها مختلفة عن أمها السخيفة المطيعة « تجد ارتياحاً في حبك الأسئلة السخيفة ، توجهها للزوج المطاع » (٤٥) ، ومختلفة عن زميلاتها في المدرسة اللواتي يحاولن إغراء الرجال ، إنهن « أقانيم مبتذلة » (٤٦) .

وتعلو نبرة إدانة النساء في روايات نوال السعداوي ، فبطلة « مذكرات طبيبة » تحتقر النساء « شعرت باستخفاف شديد نحو النساء . . رأيت بعيني رأسي أنهن يؤمن بأشياء تافهة لا تساوي شيئاً » (٤٧) . وبطلة « امرأتان في امرأة » تربأ بنفسها أن تكون من جنس النساء « إنهن من فصيلة وهي من فصيلة » (٤٨) . وعندما تنظر إلى الفتيات ذوات النظرات المنكسرة واللائي يسرن بخطاً بطيئة ، تمشياً مع ما يجب من اتزان البنت

---

(٤١) : منى جبور : فتاة تافهة ، بيروت ، منشورات دار الحياة ، ١٩٦٢ ، ص ١٥٩ .
(٤٢) : المصدر السابق ، ص ١٦٢ .
(٤٤) : المصدر السابق ، ص ١٣٦ .
(٤٣) : المصدر السابق ، ص ١٠٩ .
(٤٥) : المصدر السابق ، ص ٤٣ .
(٤٦) : المصدر السابق ، ص ٤٢ .
(٤٧) : د . نوال السعداوي : مذكرات طبيبة ، بيروت ، دار الآداب ، ط ٢ ، ١٩٨٠ ، ص ١٥ .
(٤٨) : د . نوال السعداوي : امرأتان في امرأة ، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٧٥ ، ص ٣٢ .

وخمولها كانت «تغضب وتدرك عن يقين أنها لا تنتمي إلى هذا الجنس» (٤٩)، إنهن « كالزواحف يسرن فوق الأرض لا تكاد الساق تنفصل عن الساق. وإن انفصلت عادت والتصقت بسرعة. بقوة تضم الفتاة فخذيها كأن شيئاً ثميناً سيسقط من بينهما في اللحظة التي ينفصلان فيها . . . » (٥٠)، إنهن ذوات « مخ أملس كمخ الأرنب لا يعرفن من الحياة إلا الأكل والتناسل » (٥١).

ولاشكّ أن هذا الموقف من الأنوثة والمرأة موقف انفعالي، ردّة فعل عنيفة، بعيدة عن النضج والتروّي والاستقصاء. وهذا لا يدل على أن الكاتبة أو بطلتها المتفرّدة قد امتلكت حريّتها الكاملة وأنها تعيشها من الداخل، بل يدلّ على أنّها مازالت مستعبدة، تتحكم فيها المفاهيم نفسها التي تثور عليها، ولكن من زاوية أخرى. وهذا يعني أنها لم تصل بعد إلى مرحلة التوازن النفسي والفكري، بل مازالت تعيش مرحلة القلق الأولى، والتمرّد الطفولي الأول. وهي عندما تنطلق في تصرّفاتها من محاكاة الرجل فقط، فهذا يعني أنها مازالت تعيش ضمن حدود دائرته التي رسمها، وترى قيمه ومنطلقاته المثال الذي يجب أن يحتذى. فلأن شعر الرجل قصير، قصت بطلة « مذكرات امرأة » شعرها، ولأن الرجل خطواته قوية كان على بطلة نوال السعداوي أن تضرب الأرض بقوّة، وتباعد بين خطواتها، وترفع قدمها في تحدّ على الطاولة، كما يفعل زملاؤها. نعم على المرأة المعاصرة أن

(٤٩) : المصدر السابق، ص ٣٢.
(٥٠) : المصدر السابق، ص ٨٥.
(٥١) : المصدر السابق، ص ١٣٨.

تكون عملية ، نشيطة في تفكيرها وحركتها وعطائها . عليها أن تكون كذلك لتحقق إنسانيتها ودورها في الحياة ، لا لتحاكي الرجل ، وتفعل ما يفعله . على النساء أن ينطلقن من المفاهيم الإنسانية ، بغضّ النظر عن جنسها ، فاذا كانت إنسانية المرأة تقتضي أن تتعلّم وتعمل في الميادين كافة ، وتحارب وتبني الوطن ؛ فعليها أن تفعل ذلك دون التنكر للأنوثة ، وللإنجاب ، لأنهما ركنان هامان في تكوين المرأة ، لا يتعارضان — من حيث المبدأ — مع الأركان الأخرى ، بل يتساوقان ويندغمان معها .

فالمشكلة لا تكمن في الأنوثة ، بل بنظم إجتماعية واقتصادية سائدة . فعلى المرأة المثقفة التي تمتلك وعياً وإدراكاً عميقين مسؤولية كبيرة في التأثير في بنات جنسها ، وانتشالهن من بئر العدم الذي يغرقن فيه وهذا لا يتم بالازدراء والاستخفاف والتعالي ، ووضع الحواجز ، وتعميق الشقة ؛ بل بالتفهم والاستيعاب والاقتراب منهن لانجاز التأثير الذي لن يكون سريعاً فالتطور بطيء الايقاع ضمن شروط مجتمع متخلف يتمسك بالتقاليد تمسكاً يفوق تمسكه بالدين .

ومع مرور الزمن ، وتراكم التجربة ، ومع المتغيرات الاجتماعية ، بدأت الرواية النسوية تقترب في معالجتها لموضوع المرأة من ردم ثنائية الرجل والمرأة ، العدو والصديق . وأخذت تنظر نظرة أكثر شمولية وهدوءاً ونضجاً ، تربط حريّة المرأة بحريّة أوسع وأشمل ، وهي حرية المجتمع كما فعلت سحر خليفة خاصة في روايتها « عبّاد الشمس » . وأخذنا نلتقي بأعمال نسوية تخلت عن ضبابية الرؤية لحرية المرأة ، فطرحت رؤية صحيحة معافاة ، ترى العمل حجر الزاوية في حياة المرأة ، لا يمكن التخلي عنه من أجل حبيب انتظرته البطلة زمناً طويلاً .

وهذا ما نقرؤه في رواية نازك يارد « نقطة الدائرة » . كما نقرأ في رواية ملك حاج عبيد « الخروج من دائرة الانتظار » رفض الزواج من أجل الزواج ، رغم أن البطلة تخطّت الثلاثين . وعندما تحبّ أحدهم لا تجعله كل حياتها « صحيح أن الحب أحلى ما في الحياة ، ولكنه ليس كل الحياة » (٥٢) .

إن هذا التطور في مفهوم حرية المرأة ، وربطها بحرية المجتمع ، بالإضافة إلى استيعاب الوضع العام الذي تعيشه المرأة يجعلان الدارس يعيد النظر بصحة النقد الموجه للرواية النسوية ويبيّن عدم ربط ظاهرة الأعمال الروائية النسوية بالمجتمع الذي نشأت فيه ، فقد قيل : « العالم هو المحور في ما يمكن أن نسميه رواية الرجال . أما في الرواية النسائية فالمحور هو الذات .. ولهذا كانت قوة البناء هي المطلب الفني الأول في رواية يكتبها رجل . أما الرواية التي تكتبها امرأة فتستمد جماليتها في المقام الأول من غنى العواطف وزخم الأحاسيس » (٥٣) . فالرجل « يكتب الرواية بعقله ، أما المرأة فتكتبها بقلبها » (٥٤) .

وقد وجه شبيه هذا النقد إلى الرواية النسوية في أوربة وأمريكا ، فقد قيل أن الرواية النسوية « محدودة منذ نشأتها ، فهي تنغلق على المشاكل

---

(٥٢) : ملك حاج عبيد : الخروج من دائرة الانتظار ، دمشق ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٨٣ ، ص ٩٨ .

(٥٣) : جورج طرابيشي : الأدب من الداخل ، بيروت ، دار الطليعة ، ط٢ ، ١٩٨١ ، ص ١١ .

(٥٤) : المرجع السابق ، ص ١٠ .

الشخصية » (٥٥) ، فالرجال يكتبون عن الاغتراب بينما تكتب النساء عن العلاقات وكتابتهنّ صغيرة ذاتية وشخصية ، عاجزة عن الارتباط بالآخر ، والعجز عن الارتباط بالآخر هو العجز عن حبّ الآخرين . وبين العجز والجريمة خطوة واحدة » (٥٦) . وفي عام ١٨٥٢ استنتج لويس بأن الصفات الغالبة في الأدب النسائي تكمن في ما سماه العاطفة والرؤية (Seniment of observation) . وفي عام ١٩٠٤ وجد ويليام ل . كورتين أن كتابات الكاتبة تتميّز بالوعي الفردي ، وبكونها تحمل أسلوباً تعليمياً ، أما برنارد بيرغونزي فقد رأى في عام ١٩٦٥ أن الروائيات غالباً ما يكون تركيزهن في أضيق الحدود » (٥٧) .

وإذا كان الدارس لا يستطيع مناقشة ما قيل في الرواية النسوية في أوربة وأمريكا مناقشة دقيقة لأن ذلك يحتاج إلى تقصٍّ دقيق وشامل ، فانه يستطيع أن يذكر بما أنتجته بعض الروائيات المبدعات كاميلي برونتي وجين أوستن وجورج إليوت ، وما تقدمه اليوم الكاتبة الامريكية أنابيس نن من مشاركة غنيّة ومتميزة في الفن الروائي ، وهي التي ردت التهم المنسوبة إليها بتحيّزها للنساء ، وتركيز جهودها على إبراز عوالمهن بقولها : « كاميراي كانت في النساء ، ولم أكن بذلك متحيزة فأنا أؤمن أننا ينبغي أن نكتب دائماً عمّا نعرفه ، أو عمّا نوّد أن نعرفه .

(٥٥) : كارمن البستاني « الرواية النسوية الفرنسية » الفكر العربي المعاصر ، بيروت ، العدد ٣٤ ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٤ .

(٥٦) : أنابيس نن : مستقبل الرواية ، ترجمة محمود منقذ الهاشمي ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٨٣ ، ص ٥٥ .

(٥٧) : انظر Elain Showalter . Aliterature of Their own.. P. 5.

وأظن أن هذا ساء بعض النقاد . وماأردته هو أن يعرفوا النساء معرفة أفضل . . . » (٥٨) .

وإذا كان الدارس لا يستطيع رؤية التطور الحاصل في الرواية النسوية العالمية ، فانه يرى بوضوح تام أن الكاتبة العربية عرفت كأناييس نن المرأة ، وأرادت أن تعرّف الرجل والمرأة الأخرى على معاناتها ، وأن دائرة معرفتها اتّسعت عن ذي قبل . فلم تعد ملتصقة بالذات فقط ، بل انفتحت على العالم الكبير ، تحاوره ، وتعيش منصهرة في بوتقته ، محترقة في آلامه ، مشاركة في صياغة حاضره ، بحيث نستطيع القول : إن الرواية النسوية بعد النكسة أخذت تكسر قوقعة الذات وترى مشاكلها الشخصية ليست العالم كله والمشاكل كلها بل هي جزء صغير من واقع مؤلم شامل على الجميع أن يسعوا ليغيّروه ، ولعلّ التحوّل الأكثر بروزاً بعد النكسة نجده لدى ليلى عسيران فقد كتبت رواية « عصافير الفجر » عن المقاومة الفلسطينية ، وتحدّثت في روايتها « خطّ الأفعى » عن حوادث أيلول الأسود . وفي روايتيها : « قلعة الأسطة » و « جسر الحجر » تحدّثت عن الحرب الأهلية في لبنان ، بعد أن كانت رواياتها الثلاث الأولى تتحدّث عن المرأة وحريّتها .

أما الأعمال الروائية النسوية الفلسطينية ، فهي في معظمها تتحدّث عن الواقع الفلسطيني سواء داخل الأرض المحتلة أو خارجها . ومن أفضل الأقلام العربية التي تحدّثت عن الواقع الفلسطيني في الأرض المحتلة كان قلم سحر خليفة ، وهو يرسم مجتمع الضفة في روايتيها :

---

(٥٨) : أناييس نن : مستقبل الرواية ، ص ١٠٧ .

« الصبّار » و « عبّاد الشمس » ، فلنقرأ شهادة في هذين العملين للمستشرق الدكتور هارتموت فنديش أستاذ اللغة العربية في جامعة تيوريش بسويسرا ، فقد قال : « وجدت وصفاً واسعاً جداً للموقف في الأراضي المحتلة في الضفة الغربية وفلسطين . . في الصبّار وجدت شبكة مترابطة للعلاقات الانسانية ، واحساسات الناس والمواقف الإجتماعية في تلك المنطقة . . . شعرت أن الرواية لوحة كاملة للمجتمع الفلسطيني . . لذا بعد أن انتهيت من ترجمة الصبّار رأيت نفسي مندفعاً لمواصلة الترجمة ، فقرأت عبّاد الشمس ، واقترحت على الناشر ترجمة الجزء الثاني من الرواية لأنها متابعة لمناقشة المجتمع نفسه الذي تناولته الكاتبة في الصبّار » (٥٩) .

ومن المغرب العربي جاء صوت حنانة بنونة لترصد انعكاس هزيمة حزيران على الإنسان العربي هناك . وهي الرواية الوحيدة التي عكست تأثيرات الهزيمة في ذلك الجزء البعيد من وطننا العربي فقد صوّرت الكاتبة انعكاس هزيمة حزيران على البطلة ليلى التي كانت قبلها وإبّانها تعمل مذيعة تلفزيونية . فتشعر أنها شاركت في الهزيمة ، وفي خديعة الجماهير ، فتعيش أزمة نفسيّة حادة ويزيد من أزمتها تقاعس من حولها عن الفعل ، وانغماسهم في اللهو ومتاع الحياة : « رجالنا يبكون هنا ويبكون هناك وكفى ، وهذا يشتغل بنعناعة ، والآخر بمظهره وذلك بنظرته وآخر

(٥٩) : من لقاء مع د . هارتموت فنديش ، أجراه د . رضوان القضماني ، جريدة الثورة ، دمشق عدد (٧٣٥٣) ، ٢١ - ٤ - ١٩٨٧ .

بقلبه . ومن يشتغل بحوك يا هزيمة ؟ الهزيمة في النعناع وعجلات السيارات والحركة وأين الإنسان ؟ » (٦٠) .

ترفض ليلى الخطيب المترف الذي سيفقدها التفكير في التصدّي للهزيمة ، وتختار مهنة التعليم ، لتعلّم البراعم الواعدة التي ينعقد الأمل عليها . تعلم أن في ذلك حلاً فردياً بطيء النتائج ، ولكن ما العمل ؟ ، تقول في رسالة الرفض لخطيبها : « إنه مجهود فردي ، قد لا يحقق الغاية الكليّة . لكن ما العمل ! إن هذا حتميّ ، وإلاّ فسنظل ندفن نقطة البدء إلى الأبد » (٦١) . لم تختر طريق المناضلة الفلسطينية فاطمة البرناوي ، لأنها لا تملك قدرة وطاقة تلك « إن الإقدام على عمل يتطلب اليقين من القدرة على اتقانه ، ولعلّي لست من هذا النوع ، فاخترت غيره ، وأنا أرى كثيراً من الهزائم ، مجموعة من الأوضاع تعتبر فلسطين نتيجة لها ، فمن أجلها . من أجل الكيانات المتخلية . من أجل خلق وعي قد يحقق البدء الصحيح ، وجدت جوابي لأقول للهزيمة التي أرادت أن تطمئني ، والرجل الذي حاول أن يشتريني والقلب الذي كاد أن يغمرني والكلمة المترفة التي شلّت فعاليتي . فلا . . لا . . لا لا لكل ذلك » (٦٢) .

لقد « قابلتنا بطلة القصة ليلى وهي تواجه موقفاً عاماً ، واستطاعت الكاتبة أن تصور لنا صدق عاطفة البطلة وحرارتها في تفاعلها مع هذا الموقف العام ، ولعل ذلك الصدق وتلك العاطفة المتأججة تكسبان القصة

(٦٠) : حنانة بنونة : النار والاختيار ، الرباط ، مطبعة الرسالة ، ١٩٧٠ ، ص ١٩٤ .
(٦١) : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .
(٦٢) : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

أهميتها لأنها وفدت إلينا من قطر عربي بعيد — المغرب » (٦٣) . ورغم المباشرة والتقليدية والخطابية (٦٤) التي أخذت على الرواية ، واللغة العلمية الجافة المتضمنة لآيات من القرآن الكريم وشعراً لعبد الوهاب البياتي (٦٥) ، فان الرواية كانت محاولة صادقة وحارّة للالتحام بالهم القومي ، ولرفض عالم الأنثى المترف السلبي .

وقد استجابت الكاتبة الجزائرية الزهور وينسي في روايتها الوحيدة « يوميات مدرّسة حرة » للهم الوطني ، ولحرب الاستقلال التي خاضها الشعب الجزائري ببسالة نادرة . وكانت بطلة الرواية إحدى المشاركات فيها . فكانت تعمل سرّاً مع جبهة التحرير ، وتدعو الطالبات للإضراب عن تلقي الدروس بالفرنسية ، وتشارك في المظاهرات . لقد رصدت الزهور وينيسي فترة هامة من عمر الثورة الجزائرية تبدأ باشتعال الثورة المسلّحة عام ١٩٥٤ وتنتهي بإضراب ديسمبر ١٩٦٠ وقد « اتخذت من اللغة العربية سلاحاً في وقت أحوج ما تكون الجزائر إلى كلمة عربيّة ، ولهذا تقول إنها حملت أكثر من سلاح في أتون الثورة . . . » (٦٦) ،

---

(٦٣) : د . صالح أبو اصبع : فلسطين في الرواية العربية ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية مركز الأبحاث ، ١٩٧٥ ، ص ٢١٢ .

(٦٤) : المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(٦٥) : د . شكري عزيز ماضي : انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٨ ، ص ٨٢ .

(٦٦) : أحمد دوغان : الصوت النسائي في الأدب الجزائري المعاصر ، سلسلة أدبية تصدرها مجلة آمال ، عدد (٤) ، الجزائر ، ١٩٨٢ ، ص ١٣ .

وقد أشارت في روايتها إلى ارتباطها العميق بالوطن : « كلمة وطن لها عندي مذاق الغضب الأسطوري » (٦٧) .

وتقول في مكان آخر : « أستطيع أن أزعم أنني عشت حرب التحرير على أعصابي . . . خلالها وبعدها أيضاً » (٦٨) .

وكان لحرب تشرين التحريرية أثر بين على الرواية النسوية ، فجاءت أصداؤها في عدد من الروايات من مثل : دعوة إلى القنيطرة (كوليت خوري) ، البرتقال المر (سلمى الحفار الكزبري) ، حب وحرب ، والدوامة (قمر كيلاني) . ورأينا أصداء أحداث أيلول الأسود في روايتي : خط الأفعى (ليلى عسيران) ؛ وبوصلة من أجل عباد الشمس (ليانة بدر) .

أما الحرب الأهلية اللبنانية ، فكان لها النصيب الأكبر من الروايات التي صدرت – بعد اشتعالها – في سورية ولبنان وفلسطين من مثل : كوابيس بيروت (غادة السمان) ، حكاية زهرة (حنان الشيخ) ، الآتي من المسافات (سلوى البنا) ، بستان الكرز (قمر كيلاني) ، قلعة الأسطة ، جسر الحجر (ليلى عسيران) ، تلك الذكريات ، الإقلاع عكس الزمن (املي نصر الله) ، الحرب والحب (غادة الخرساني) . . . . . الخ . أما حميدة نعنع في زوايتها « الوطن في العينين » فقد صورت انعكاس الحرب اللبنانية على بطلة عربية ، بالإضافة إلى تصويرها الواقع العربي الذي يعبق بالهزيمة والانكسارات . وتعرّضت إلى ظاهرة المثاقفة

---

(٦٧) : نقلا عن المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٦٨) : نقلا عن المرجع السابق ، ص ١٤ .

مع الغرب »، التي عالجتها بنجاح الروائية العراقية سميرة المانع في روايتيها : السابقون واللاحقون والثنائية اللندنية . وتحدثت الكاتبة المصرية إلهام سيف النصر عن عالم السجن في رواية « أبو زعبل »، وكذلك فعلت سميحة العلي في روايتها « رحلتي » .

ويبدو واضحاً أن الرواية العربية استجابت للمنعطفات الهامة في الواقع العربي، ولمتغيراته السريعة، فالتحمت به، وخرجت من التقوقع داخل الذات النسوية، وبدأت تتجه الرواية نحو النضج الفكري والفني، مما حدا بالنقد إلى تغيير بعض زوايا رؤيته للرواية النسوية، فقد أشار الدكتور سيّد حامد النسّاج، إلى أن « المرأة الكاتبة انطلقت تعبّر عن موقفها من أحداث الحياة التي تجري من حولها، ولم تعد منكفئة على همومها الخاصة، ومشكلات بنات جنسها، وغدت تبحث عن لغة خاصة، مما قد نلاحظه في روايات هدى جاد، وزينب صادق، وهالة الحفناوي ونوال السعداوي، وسعاد زهير، مع اختلاف في زاوية الرؤية وطريقة التناول » (٦٩) .

وقبله بسنوات تحدّث الدكتور شكري عياد عن جيل الكاتبات الشابات فقال : إن إنتاجهن « في جملته نتاج عربي أصيل ينتمي إلى مزاجنا وتاريخنا وظروفنا الاجتماعية الخاصة . إنه تعبير عن الفتاة العربية التي بدأت تعيش منذ بضع سنوات فقط في ظروف تكاد تشبه الظروف التي يعيش فيها الفتى، فهي تتعلّم لتعمل، وتعمل لتعيش، وتصبر على شظف العيش، وتحلم بالمستقبل كما يصبر الفتى ويحلم . . . .

(٦٩) : د . سيد حامد النساج : بانوراما الرواية العربية الحديثة، ص ٨٥ .

وهذا الجيل الجديد من الفتيات يسير نحو النضج في فترة تتغيّر فيها معالم المجتمع القديم كله ، وينظر الناس جميعاً رجالاً ونساء ، شيباً وشباباً ، ينظرون إلى المستقبل في لهفة وترقّب . . » (٧٠) .

أما الدكتور عمر محمد الطالب ، فقد رأى أن رواية سميرة المانع « السابقون واللاحقون » « تؤكد أن المرأة الكاتبة العراقية قادرة على تقديم روايات جيّدة لا تقلّ في جودتها عمّا يقدمه الرجل » (٧١) حتى إنه ذهب إلى أنها أعطت الفن القصصي في العراق أبعاداً جديدة (٧٢).

إذاً لقد بدأت الرواية النسوية بعد النكسة ، وخاصة في السبعينات وما تلاها ، تتخفف من عبء الأنا ، وبدأت بعض الأعمال تنال اعتراف النقّاد وتقديرهم . صحيح أن الموضوع الرئيسي مازال موضوع المرأة ، إلا أن الكاتبة لم تعد تطلق احتجاجها صرخات حادة ، وتتخذ موقفاً متشنجاً من الرجل ، كما هي الحال عند وداد سكاكيني ، منى جبور ، ليلى بعلبكي . بل أخذت تتجه إلى تحليل الواقع الذي يعيش فيه كلّ من المرأة والرجل ، وتربط همومها الفردية بالهموم العامة . دون أن تنسى اضطهاد الرجل لها ، ومطالبتها إيّاه بالاعتراف بانسانيتها وحقوقها .

فالكاتبة الليبية مرضيّة النعاس ، عندما تناولت مشكلة المرأة ، تناولتها بوعي ونضج ، فربطت بين واقع المرأة الصعب ، والتخلف

---

(٧٠) : د . شكري عياد : تجارب في النقد والأدب ، القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧ ، ص ٢٧٢ .

(٧١) : د . عمر محمد الطالب : القصة في الخليج العربي ، الجزء الأول ، بغداد ، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٨٣ ص ٢٠٥ .

(٧٢) : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

الذي يلف الرجل والمرأة معاً ، ويعمل تسلطه وبطشه عليهما معاً . إنها لا تشنّ هجومها على الرجل الفرد ، بل على المجتمع ، بعلاقاته وقوانينه ، ومنظومة معتقداته ، بما فيها نظرته الدونيّة للمرأة ، التي تجعل محرّري مجلة النهضة يشكون في أن تكون صاحبة المقالات امرأة ، لأنهم لا يثقون بقدرة المرأة الليبية على العطاء والإبداع . وقد كانت البطلة تنشر مقالاتها في الصحف باسم مستعار ، خوفاً من العقوبة الاجتماعية ، لكن البطلة زينب لاتستطيع في النهاية إلاّ أن تنسجم مع ذاتها وتطلّعاتها ، فتتحمل مسؤولية كتاباتها التي لن تنجو بسببها من المتاعب الاجتماعية والآراء التي قد تسمها بالفجور .

وفي الرواية كما يوجد رجال متسلّطون ، يوجد رجال يؤمنون بحريّة المرأة ويحترمون جرأتها ووعيها وقدرتها على النهوض بالأعباء ، كالرجل تماماً (محمود ، مصطفى) ، وبالمقابل توجد نسوة متخلّفات ، تنحصر اهتماماتهن بنسويتهن . « إن رواية الظروف الأزرق ، تمتاز عن الروايات التي عالجت قضيّة المرأة أنها لم توجّه نضال المرأة الليبية ضد الرجل » (٧٣) .

لقد تحدّثنا فيما سبق عن تطوّر مضامين الرواية العربية النسوية ، فماذا عن الشكل ؟ لاشكّ أن الساحة الروائية العربية تحتلّ بعض أركانها كاتبات متميّزات استطعن أن يقدّمن إضافات هامّة إلى الرواية العربية . أديبات امتلكن الموهبة والثقافة والجرأة والصبر والرغبة الصادقة الجادة والمخلصة في إنتاج أدب يلتحم بالواقع . يقدح شرارته ، ويشعله ثورة ، دون أن يتحوّل إلى رماد ، بل إلى شعلة مضيئة تنير الدرب وتمتّع الفكر

(٧٣) : سمر روحي الفيصل : دراسات في الرواية الليبية ، ص ١٢٨ .

وتسعد الروح . أدبيات امتلكن النضج وسعين إليه ، فاكتوت نفوسهن في سبيله ، وأحرقن صفحات كثيرة في التدرب والممارسة وقول ما يفيض به الفكر ، وتطفح به النفس . هؤلاء الأديبات كغادة السمّان ، وسحر خليفة ، وحنان الشيخ ، وسميرة المانع ، وحميدة نعنع ، قدّمن أعمالاً أصيلة ترقى إلى مستوى الأدب الرفيع . هذا الأدب الذي لا يصحّ أن نلحق به تسمية تميّزه بجنس من كتبه ، بل بالحامل الفكري والفنّي له .

لقد قرأنا له في أعمال الكاتبات السابقات وبعض الأعمال الأخرى لكاتبات أخريات رؤية عميقة للمجتمع العربي من خلال تقنيات روائية ناضجة تعاملت معها الكاتبة بمرونة ويسر وسهولة من تمكن من فنه وأدواته . ولم تنأ الكاتبة عن التقنيات الروائية الحديثة بل قصدتّها لتوظفها في تحقيق رؤية أعمق لعالمها الذي تقدّمه .

ولا نقول جديداً إن قلنا إن النضج الفكري والفنّي متلازمان في أي عمل فنّي ، فلا يأتي أحدهما دون الآخر . وهذا ما نلمسه في الروايات النسوية . فهناك نسبة ليست ضئيلة من الروايات تعاني من الضعف الفكري ، وأحادية الرؤية وضبابيتها إن لم نقل غيابها في بعض الأحيان ، وبالتالي تعاني من الضعف الفنّي أيضاً .

هذا الضعف الذي نلقاه في رسم الشخوص والبيئة ، كما في معالجة المكان والزمان ، واللغة والحوار . وهناك أعمال كثيرة من الصعب أن نطلق عليها اسم رواية إن زنّاها بميزان النقد الروائي الدقيق وأعملنا أحكامه عليها . ولكنها تبقى محاولات روائية على النقد أن يشجعها .

بمعنى أن ينظر إليها ضمن الشروط التي أنتجتها ، لا أن يحابيها ، ويطلق عليها ما ليس فيها .

فاذا ما وجهنا النّظر مثلاً إلى الرواية النسوية في السعودية والخليج العربي واليمن ، فسنرى أن معظم الروايات مازالت تعاني من العثرات ، ومازلنا نلتقي فيها بالافتعال ، والمغامرات والصدف والمبالغات ، والضعف اللغوي ، ومخاطبة القارىء وتوجيهه للإنتقال من حدث إلى آخر لضعف الروابط بين الأحداث .

ويلاحظ أن الروائية السعودية قد تختار أحياناً ساحة أحداث روايتها بعيداً عن السعودية فهند صالح باغفار كانت أحداث روايتها « البراءة المفقودة » في مصر ، وكذا كانت أحداث رواية « ذكريات دامعة » لسميرة الخاشقجي ، فالأبطال كلّهم مصريون . وفي رواية « غداً أنس » ، لأمل محمد شطا نلتقي ببطلة من جزيرة (جاوة) ، تزوجت من سعودي ، ثم تركها في (جاوة) بعد أن سرق ابنتهما البالغة من العمر ثلاث سنوات . وبعد عذاب خمس عشرة سنة تسافر تيما إلى السعودية ، تتعرف إلى ابنتها ، وتعيش معها بعد أن تتزوج ، ثم تنتقل أخيراً لتعيش مع زوجها السابق ، بعد أن تسامحه لأنه محتاج إليها ، فهو يعاني من المرض والوحدة .

تعلل البطلة عودتها إلى زوجها بقولها : « لا يجب علينا أن نتركه وحيداً يا ابنتي ، ولا يجب علينا أن نتركه وحيداً أبداً . . أبداً (٧٥) ، « إن أباك في أشدّ الحاجة للرعاية . . في أشد الحاجة إلى وجودي بجانبه ، لقد فكّرت كثيراً يا ابنتي ، وقرّرت أن أذهب لأعيش معه » (٧٦) .

(٧٥) (٧٦) : دة . أمل محمد شطا : غدا أنس ، المملكة العربية السعودية ، جدة ، الناشر تهامة ١٩٨٠ ، ص ١٧٣ .

ببساطة غير مقنعة تعود البطلة لزوجها ، لتنسجم عودتها مع موعظة وحكمة الكاتبة التي تطلقها على لسان البطلة : « هكذا السعادة الحقيقية ياابنتي ... مثل قطعة الزئبق . . إن لها بريقاً يخطف الأبصار ، ويسلب العقول ، كلنا نسعى إليها ونحاول الإمساك بها دون فائدة . علينا أن نراقبها من بعيد ، ونحلم بالحصول عليها ، وعلينا أيضاً أن نكتفي بقدر قليل منها يعطي البريق لنفوسنا الصدئة بين حين وآخر » (٧٧) .

في هذه الرواية تكثر المصادفة والوصف اللامقنع . فالبطلة لم تر السعودية في حياتها ، ولا تعرف أحداً فيها ، ومع ذلك تتعرّف إليها مباشرة منذ وصولها،بل إنها تعرّف المدينة التي تقيم فيها ابنتها.وتعرّف المدرسة أيضاً ، وبعد فراق ما يقارب العشرين عاماً يتعرّف الزوج إلى تيما مباشرة وهو على فراش المرض ، وكأنه فارقها منذ أيام فقط « أحس بحركة غريبة . . فرفع رأسه . . وشهق من شدّة المفاجأة : تيما ! ! » (٧٨) ، ولا تخلو الرواية من قصة مقحمة على الأحداث لا مسوغ لوجودها .

وبطلة هند صالح باغفار مصرية في السنة الثانية من كلية الآداب ، تتّهم بجريمة قتل ، وتعيش مغامرات عديدة خلال ثلاث سنوات في بعض المدن المصرية ، وهي تختفي من الشرطة . وأخيراً تظهر براءتها ، ويقبض على المجرم الحقيقي ، وتتزوج الدكتور ملهم الذي أحبّها ، وأعجب بها وساعدها على إثبات براءتها .

(٧٧) : المصدر السابق ، ص ١٧٦ .
(٧٨) : المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

ولا تنجح الكاتبة على الإطلاق في إيهامنا بالواقع ؛ وفي رسم شخصيّة البطلة رسماً قريباً من الإقناع . إنها تنجح دائماً في الفرار من ملاحقة الشرطة النشطة لها . وهي محبوبة أنّى اتّجهت وأينما ذهبت . تقدّم مساعدات خارقة للناس ، فترمي نفسها في النار لتنقذ رجلاً وامرأة لا تعرفهما ، وتستطيع بمفردها السيطرة على الحريق ، وإخماد ناره . إنها نموذج الشخصيّة المجبولة فقط على الخير والطيبة والمحبة والصدق التي كنّا نصادفه في روايات القرن الماضي ، وبدايات هذا القرن .

ومن الملامح المشتركة بينها وبين روايات البدايات ، مخاطبة القاريء للانتقال من حدث لآخر . تقول مثلاً — وهذا يتكرر كثيراً — : « لندع هؤلاء البائسين ولنعد إلى سيرة التي ذهبت في أصيل ذلك اليوم ... »(٧٩) أو « لنترك غربية تجلس مشدودة الأعصاب ولنعد لأخوتها الثلاثة . . . » (٨٠) . وفي الرواية مجموعة من الأخطاء الاملائية والنحوية .

ولم تبتعد سميرة الخاشقجي كثيراً عن أسلوب زميلتها ، فقد لاحظ الدكتور بكري شيخ أمين أن روايتها « ذكريات دامعة » تعاني من « الضعف اللغوي والأخطاء النحوية الفاحشة . فلا تمر صفحة إلا وعدد من اللحون فيها تصدم القاريء وقد تنفره . وأمر آخر يعيب ذكريات دامعة ، أن الكاتبة كانت تشدّها المبالغات السينمائية المتكلفة أكثر مما يسيرها الواقع ومنطق الحياة » (٨١)

(٧٩) : هند صالح باغفار : البرأة المفقودة ، بيروت ، مطابع المصري ، ١٩٧٢ ، ص ١٧٧ .

(٨٠) : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٨١) : د . بكري شيخ أمين : الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ، بيروت ، دار صادر ١٩٧٢ ، ص ٥١٠ .

ومن وجوه الافتعال والمبالغة التي نجدها في الرواية الكويتية ، أن تضرب الزوجة الأجنبية الأمثال في رواية فاطمة العلي « وجوه في الزحام » وأن تتحدث الزوجة الجاهلة عن نزعة زوجها الديمقراطية . وقد أكد اسماعيل فهد اسماعيل أن هذه الرواية « أقرب إلى الوصف السردي الصحفي منها إلى البناء الدرامي » (٨٢) ، لقد بدأت « بمدخل يعطي ملامح الاهتمام بالقضايا القومية الراهنة ، لكنها ما لبثت أن تناستها لتغرق في عثرات الحب والكراهية . . . ومهما يكن من أمر الروايات التي كتبتها الفتاة الكويتية وما يوجه إليها من نقد ، فانها تعطي إشارة بدء طيبّة عند هاتين الكاتبتين(*) ،ويمكن — من خلال الممارسة — تفادي الأخطاء الفنيّة التي هبطت بمستوى هذه الروايات برغم ما تبدي من اهتمام ومحاولة الجدية » (٨٣) .

أما الرواية النسوية اليمنية الوحيدة « ضحيّة الجشع » فقد كتبتها مؤلفتها بعد أيام فقط من وقوع حوادثها لفتاة زوّجها أهلها من عجوز طمعاً في ثروته فانتحرت ، ولهذا جاءت الرواية دفقة انفعال سريعة أكثر من كونها عملاً روائياً .

والخلاصة ، أن الرواية العربية النسوية — بعد مرحلة البدايات الأولى في نهاية القرن الماضي ، وبداية القرن الحالي — عانت خلال ما يقرب من نصف القرن من صعوبات جمّة ومتنوعة المصادر . وقد حملت

(٨٢) : إسماعيل فهد اسماعيل : القصة العربية في الكويت ، قراءة نقدية ، بيروت ، دار العودة ١٩٨٠ ، ص ١٤٤ .

(٨٣) : د . محمد حسن عبد الله : الحركة الأدبية والفكرية في الكويت ، ص ٥٢٦ .

(*) : أي فاطمة يوسف العلي ونورية السداني .

أول ما حملته هم المرأة وطالبت بحريتها ، وخاصة حرية الحب والجنس لكنها أخذت بعد النكسة وبدقة أكبر في السبعينات تنفتح على المجتمع العربي بغنى مشاكله ، وتعقدها ، وتشابكها ، وحملت الهم الوطني ، وبدت بعض الروايات ناضجة فنياً ، وشاركت مشاركة نشطة في تحديث الرواية العربية ، ووضعها في قالب فني يستجيب لمنجزات الرواية الحديثة دون أن ينقطع عن الواقع العربي الذي هو المشروع الأول لكل كتابة جادة .

وأعتقد أنه أصبح من نافل القول بطلان بعض آراء النقاد التي ترى أن المرأة لا يمكنها خوض غمار موضوعات الرجل ، كما قرر ذلك قبل سنوات الدكتور يوسف عز الدين ، عندما قال : «مما لا جدال فيه أن هناك فروقاً بينة بين المرأة والرجل في معالجة الأمور والنظر إليها ، فالمرأة لها نظرتها المختلفة عن نظرة الرجل ، فهي بطبعها الفكري وبحكم واجبها الذي خلقت له تفرض على الحياة نوعاً خاصاً من الأدب لايمكن للرجل أن يلجه ، كما أنها لا يمكن أن تلج موضوعات الرجل وأموره ، وعلى الرغم من مشاركتها الرجل في العصر الحديث في مضامير الحياة وميادينها » (٨٤) .

(٨٤) : د . يوسف عز الدين : في الأدب العربي الحديث ، بحوث ومقالات نقدية ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ص ٢٥٧ .

الجزيرة العربية الجنوبية

لدى المؤلفين الكلاسيكيين(١)

ترجمة : د. نجيب غزاوي

مكسيم رودنسون

يعرض مكسيم رودنسون ، المستشرق الفرنسي المعروف في هذا البحث ، صورة الجزيرة العربية في العصرين الإغريقي والروماني ، وذلك من خلال مارواه الكتاب والشعراء والمؤرخون والرحالة من مشاهدات وملاحظات ومعلومات حول هذه المنطقة . ويقدم ، بعد ذلك ، مجموعة من الملاحظات حول هذه المعلومات . فيرى أنها لم تأت موضوعية أو دقيقة . فقد تنوعت فجاءت مختلفة تارة ومتناقضة أخرى ، وفاقاً للمستوى الثقافي والمعارف الخاصة. كما تأثرت بالعلاقات التي قامت بين الشعوب الملاحِظة والشعوب الملاحَظة . واختلطت بالأسطورة ، وفسرت

(١) بحث نشر في كتاب :

(L'Arabie du Sud Chez les auteurs Class, ques .
Goseph Chlhod , L'Arabie du Sud , T. I , 1984 :
Maisonnuve et Larose , Paris .

وحُرفت كي تنسجم مع التصورات العامة والمسبقة لهؤلاء الكتاب وشعوبهم .

لقد أتيح للتجار والرحالة الإغريق أن يتوهوا دوماً في الجزيرة العربية . غير أن الصور الجماعية لا تتكوّن إلاّ حين يتبناها أدب ، حتى ولو كان شفهياً . إن ما نعرفه من الأدب الإغريقي يؤكد لنا أن الأفكار التي كونها الإغريق عن الجزيرة العربية والعرب كانت غامضة جداً ، في البداية . غير أن العلاقات — سواء كانت عدائية أم سلمية — التي أقامها الإغريق مع الأمبرطورية الفارسية ، بدءاً من نهاية القرن السادس ، قبل الميلاد ، قد وضحت الأمور قليلاً . فقد عاش الإغريق الأيونيون والعرب (عرب الشمال على الأقل) ، ضمن امبراطورية واحدة ؛ وقامت بينهم علاقات في مجال الحرفيين (الصنّاع) ، والفنانين ، والمثقفين ، ورجال الحاشية في بلاط الملك العظيم .

وقد أعد إغريقي من رعايا الملك الفارسي ، يدعى سيلاكس دوكاريانذا أنكاري ، تقارير عن سواحل الجزيرة العربية . إذ أرسله داريوس عام ٥١٠ ق . م لاستكشاف السواحل من نهر الهندوس إلى الأحمر . وقام هيكادتي دوميي حوالي ٥٥٠ — ٤٧٥ ، بتحليل هذه المعلومات ، وأشار ، في كتابه المفقود « دورة الأرض » إلى وجود جزر الكرمان في مكان ما .

وجمع هيرودوت (حوالي ٤٨٤ — ٤٢٥ ق . م) بعض المعلومات حول الجزيرة العربية من الكتب ومن رحلاته . وقد تكوّنت لديه صورة مشوشة قليلاً . فلم يكن يميز قليلاً بين العرب الرحل ، في الشمال

والوسط ؛ وسكان الجزيرة العربية الجنوبية . وقد أشار إلى سكان الجزيرة العربية الجنوبية حين تحدث عن مئة مثقال (إغريقي) من البخور كانوا يدفعونها إلى الأمبرطورية الفارسية . وربما جاءت هذه الضريبة من البدو الرحل الذين كانوا يتموّنون في الجزيرة العربية الجنوبية . لقد كان يتحدث عن الجزيرة العربية الجنوبية ، حتماً ، حين عدّد أنواع البخور التي كانت تقدمها للعالم القديم ، مضيفاً تفاصيل ساحرة عن طريقة صنعها . غير أن الخلط يظهر لديه حين يختتم بقوله ، حول هذه العطور : « إنها تنتشر في أرجاء الجزيرة العربية كلها وكأنها رائحة إلهية » .

وقبيل حملة الاسكندر ، بدت معلومات معلمه أرسطو (٣٨٤ — ٣٢٢) ، حول الجزيرة العربية والعرب ، قليلة جداً .

وقد تغير الأمر مع غزو الإسكندر للأمبراطورية الفارسية ، بين عامي ٣٣٤ — ٣٢٣ ق . م . فقد أرسل الإسكندر ، الذي وصل إلى نهر الهندوس ، أسطولاً يقوده نيارك لاستكشاف ساحل إيران الجنوبي . وحين رأى القبطان رأس مسندم في مضيق هرمز ، أراد الاجتياز ومواصلة السير بمحاذاة الساحل العربي ، غير أن نيارك فرض عليه متابعة الساحل الإيراني . وربما كانت لدى الإسكندر الرغبة في غزو الجزيرة العربية ، منذ طفولته ، وذلك بسبب غناها بالبخور . وقد أرسلت سفن ، بنيت في فينيقيا وقبرص ، إلى الفرات وأبحرت فيه نحو الجنوب . وحين وصولها إلى الخليج العربي توجهت إلى ساحل الجزيرة العربية . وقد قاد كل سفينة قائد . لم يتجاوز القائد أرخياس تيلوس

(البحرين) ، أما أندروثين دوثاووس فقد ابتعد أكثر . وأخيراً وصل هيرون دوسولوا إلى المحيط الهندي ، وحاول إرضاء الغازي دون أن يتجرأ على إيصال الرحلة المطلوبة إلى السويس . وقد صب أندروثين ذكرياته في كتاب(١)

حين صب العلم ، في العالم الهيلنستي ، معارف الشرقيين والمفكرين والباحثين الهيلنستيين في بوتقة واحدة ، حقق قفزة كبرى إلى الأمام في المعرفة الجغرافية ومعرفة الشعوب ، كما في مجالات المعرفة الأخرى . فقد جمع علماء ذلك العصر المعلومات حول الجزيرة العربية ونقلها رفاق الإسكندر وأضافوا إليها ، بالتدريج ، معلومات أخرى ، حملها التطور الهائل للتجارة البعيدة ، وذلك من خلال تقارير البحارة ومذكراتهم ومن خلال تقارير التجار المصريين والأنباط ومذكراتهم . وهكذا ، فقد تكونت لديهم صورة جغرافية أكثر دقة عن الجزيرة العربية واستطاعوا أن يعتمدوا على معلومات دقيقة حول الجزيرة العربية الجنوبية ، وتخلصوا بذلك من الأساطير التي كانت منتشرة سابقاً .

وقد ظهر هذا التطور واضحاً بشكل سريع . إن من غير المؤكد أن يكون بلافاتوس دابيدوس ، تلميذ أرسطو الشاب المدلل ، قد ألف حقاً « عربيات » . غير أن خليفة الفيلسوف الموسوعي في إدارة « المدرسة » ، تيوفراست ديريسوس (٣٧٢ — ٢٨٨) قد قدم ، في كتابه النباتي الكبير معلومات دقيقة حول الطيوب في الجزيرة العربية الجنوبية (البخور ، المر ، العنبر ، الكافور) وجنيها ، والبيئة الجغرافية ، والبلدان الأربعة

(١) « الإبحار في البحر الهندي » ذكر في Athènes III, 45 (93B) .

التي نجدها فيها : سبأ ، حضر موت كيتيبينا ومعالي . ويصرح تيوفراست بوضوح أنه استخدم مصادر من تقارير البحارة الذين سافروا إلى برزخ السويس . أما بالنسبة للجزيرة العربية الشرقية ، فقد قرأ أيضاً أندروثين .

في زمن تيوفراسست ، أي حوالي عام ٣٠٠ق.م. يرسل عاهل مقدونيا وبلاد الإغريق ، كاسندر ، مفكراً يدعى أويميروس ميسين إلى البحر الأحمر وما وراءه . وميسين مفكر ذاع صيته بفضل نظريته حول التفسير التاريخي للأسطورة ، والتي تحمل اليوم أسم «L'évhémérisme»(١) ليس كل شيء أسطوري في هذه الرحلة التي قادت عالم الأسطوريات نحو جزر في عرض البحر أمام الجزيرة العربية الجنوبية . نجد ، في الأجزاء التي وصلتنا من كتابه ، وللمرة الأولى ، إشارة إلى إسم العربية السعيده (أو الغنية والثرية) ، الذي تلقب به أجمل بقعة في جزيرة العرب ، بقعة خصبة ومليئة بالأبنية الجميلة ، وفق قوله . ويذكر ، من بين الجزر ؛ جزيرة هييرا « المقدسة » المليئة بالبخور والمر . أما بنخايا الفردوسية فتمثل أحد أقدم النماذج المعروفة للمدينة الطوبائية ، على غرار الأتلنتيد .

لقد شهد القرن الثالث ، قبل الميلاد ، تطوراً كبيراً في المعلومات حول هذه المنطقة ، كما حول غيرها . غير أن الجزيرة العربية كانت متميزة في هذا التطور . لقد شكلت مصر الهلنستية ، إبان حكم ملوك « اللاجيد » ، مركز النشاط العلمي . ودفع الموقع الجغرافي مصر إلى

(١) نظرية في تفسير الأسطورة ترى في آلهة الأسطورة ملوكاً قدماء حولهم الإعجاب أو الخشية إلى آلهة .

(المترجم)

الاهتمام بالجزيرة العربية ، بشكل خاص . كما دفعت السياسة الاقتصادية النشيطة ، التي قادها هؤلاء الملوك ، إلى اتخاذ كل الإجراءات الممكنة لتطوير التجارة انطلاقاً من ساحل البحر الأحمر نحو إفريقيا الشرقية والجزيرة العربية والهند : وذلك من خلال إنشاء المرافىء على السواحل العربية والإفريقية للبحر الأحمر وإعادة فتح قناة النيل التي تربطه بخليج السويس ، وحملات الاستكشاف البحرية التي أصبحت سهلة بفضل اكتشاف ظاهرة الرياح الموسمية ، وتنظيم حركة المواصلات والسفارات . كان المصريون يذهبون للبحث عن الطيوب في سورية وفلسطين ، حيث كان يجلبها التجار العرب . كما كان تجار الجزيرة العربية الجنوبية يتاجرون مع مصر ، مثل هذا التاجر ، المعروف تحت اسم « زيدل » من معن ، الذي دخل في مساومات معقدة مع كهان مصر ؛ وقد حنطت جثته في الفيوم أو ممفيس ، وكرس قبره لسارابيس وآلهة مصر . أما الكتابة المعنية الموجودة على قبره فتعود إلى سنة ٢٢ من عهد بتوليمي (تلميت) ابن بتوليمي .

لقد سجلت هذه المعلومات الجديدة كلها في أكبر مراكز البحث والتعليم التي تطورت في العالم الهلنستي . وكان أهم هذه المراكز مركز الاسكندرية في مصر . وهكذا نستطيع أن نفهم ، وبعد مرور نصف قرن على تيوفراست ، كيف استطاع ايراستو ستين سيرين (المتوفى حوالي عام ١٩٥ ق . م) . ذلك العالم الكبير الذي كان يتولى إدارة مكتبة الإسكندرية العظيمة ، أن يقدم تفاصيل أكثر حول الجزيرة العربية الجنوبية ، انطلاقاً من مصادر أحدث ، وذلك في كتابه الجغرافي

الضخم الذي فقد ، ولم يصلنا منه سوى فقرات . تتلقى الجزيرة العربية كلها ، لديه ، اسم العربية السعيدة . ولكنه كان يعرف أن الجزء الشمالي كان صحراوياً ويسكنه عرب رعاة جمال يعيشون تحت الخيام. وأن الجنوب وحده يستحق هذا الإسم الجميل : فهو خصب ومليء بالحيوانات ، كما تقطنه أربعة شعوب هامة تحتل أربع مناطق مختلفة: المعنيون والسبئيون والقتبانيون (منتجو البخور) والحضرميون (منتجو المر) . وقد سميت عواصم هذه المناطق على التوالي : كرنانا ، ماريابا ، تمنا وسباتا (ن) . لم تكن الملكية وراثية في هذه الدول المزدهرة ، بل كان يخلف الملك على العرش أول ابن من ابناء الأعيان المولود بعد تنصيبه . فكان يتبنى ويربى تربية ولي العهد . كانت الطيوب تباع لتجار يأتون في قوافل تقطع المسافة بين إيلانا وبلاد معين (؟) في سبعين يوماً ، أو من مدينة غيرها على الخليج العربي في أربعين يوماً . (الفصل غير دقيق ، وربما كان المقصود استئناف الرحلة من قبل ناقلين من أجل إكمال المسار) .

بعد عشرات السنين من إيراتستين ، وفي منتصف القرن الثاني تقريباً ، قام عالم من سلالة أرسطو الروحية ، يدعى أغاثارشيد من كنيد ، بتأليف أول كتاب دقيق وخاص ـ حول المناطق التي تحازي سواحل بحر أريتيريا ـ أي البحر الأحمر والمحيط الهندي ، إضافة إلى كتب حول جغرافية أسيا وأوربا وتاريخهما .

اغاثارشيد هو ، بكل تأكيد ، المؤلف الذي ساهمت كتاباته حول الجزيرة العربية في تكوين صورة عن هذه المنطقة ، استمرت عبر

العصور . لقد خصص هذا المؤلف اسم العربية السعيدة للجزء الجنوبي منها . وكان يرى أن الشعب السبئي هو أهم شعوب شبه الجزيرة ، وأن غناه كان عظيماً وشاهد منتوج قطعان كبيرة ، وكذلك منتوجات زراعية عطرية تؤدي روائحها القوية جداً إلى إصابتهم بآلام كانوا يكافحونها بواسطة التدخين . ولم تكن هناك أنواع أخرى من الغابات . وقد انقسم السكان إلى محاربين ومزارعين وبحارة تجار يصدرون بعض الطيوب مستخدمين أطوافاً ضخمة أو سفناً من الجلد . والبعض الآخر كان يعيش في دعة بفضل ثرائهم . ويعود هذا الثراء إلى الدخل الذي كانوا يحققونه من تجارتهم وإلى عزلتهم التي حمتهم من الغزو والسلب . أما زينة منازلهم وأثاثها، وأوعيتهم المحلاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، فكانت فاخرة جداً . وتقع عاصمتهم سبأ على هضبة جميلة . وكانت الملكية لديهم وراثية ، كما تمتع الملك بصلاحيات كبيرة ، غير أن عرّافاً حرم عليهم الخروج من قصرهم تحت طائلة الرجم .

نرى أن المؤلف يطابق بشكل كامل بين العرب الجنوبيين والسبئيين . ولا نعرف الدور الذي تلعبه هيمنة سبأ الحقيقية في هذا التطابق . وخارج هذا النطاق ، لا يذكر أغاثارشيد إلا سكان الجرعاء ، الذين لا يقلون غنى عنهم ، وكذلك الجزر السعيدة (سوقطره) ، حيث كل الحيوانات بيضاء ، وحيث لا تحمل الإناث قروناً . وفيها كان يتوفد تجار الهند وفارس . وكان المعنيون (أي سكان المستعمرة المعنية في الحجاز) والجرعيون والعرب الآخرون ينقلون الطيوب المنتجة إلى بلاد الأنباط وفلسطين .

لقد استُخدم كتاب أغاثارشيد كثيراً ، وأعيد نسخه من قبل مؤلفين آخرين نقلوا مضمونه إلى جمهور واسع إلى حد ما . في نهاية القرن الثاني ، وفي القرن الأول قبل الميلاد ، استخدم أرتيميدور إيفيز ، مؤلف الجغرافية العمومية ، وكذلك المؤرخ الكبير ديودور صقلية ، كتاب أغاثارشيد واعتبراه مصدراً لهما . ويبدو أن نصوص أرتيميدور قد استخدمت ونوقشت من قبل العالم الكبير والفيلسوف ، بوزيديوس أفاميا (المولود عام ١٣٥ والمتوفى عام ٥٠) . وقد كان لهذا الفيلسوف تأثير كبير . ومن المؤكد أنه قد تحدث عن الجزيرة العربية في مؤلفة الجغرافي الضخم ، والمفقود : « وصف المحيط . »

ويبدو أن هذا الكتاب كان مصدراً وثائقياً أساسياً لدى سترابون أمازيا (المولود حوالي عام ٦٣ قبل الميلاد والمتوفى عام ٢٠ ميلادي) ، الذي وصلنا مؤلفه الجغرافي ، بشكل كامل بمعجزة ، وبذلك حُفظت لنا نصوص طويلة من الكتاب السابقين . ومن المؤكد أن الجزيرة العربية قد خُصت ، وحدها ، بمؤلفات ، بفضل هذه النصوص التي تبناها هذا المؤلف أو ذاك في القرن الأول قبل الميلاد . لقد عاش تيوكروس سيزيك في النصف الأول من هذا القرن ، ونعرف عنه أنه قد كتب عن الجزيرة العربية في خمسة مؤلفات . وإذا نحن استثنينا باليفاتوس ، فان تيوكروس سيزيك يستحق لقب أول « المستعربين » . وهناك عالم آخر بالجزيرة العربية أكثر قرباً من موضوع دراسته ، إنه أزيدور شاراكس ، المولود في نهاية القرن الأول ، في مرفأ أنشأه الاسكندر في عمق الخليج العربي . ويبدو أنه يعرف ، بشكل خاص ، هذه المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية . فقد تحدث عن صيد اللؤلؤ ، وعن

الحياة المديدة للملك العربي لقمان في منطقة الطيوب . ولا نعرف سوى القليل عما قاله حول شبه الجزيرة وسكانها . وينقل تيودور صقلية، في تاريخه العمومي ، في تلك الفترة ، نص أغاثارشيد ، وربما أضاف إليه بعض المعلومات المأخوذة عن مصادر أخرى .

إن توحد عالم البحر الأبيض المتوسط وأوربا الغربية وآسيا الوسطى في إطار دولة واحدة — الامبراطورية الرومانية — وحاجات هذه الدولة من منتوجات الطيوب التي يتطلبها طقس متطور جداً ، ورفاهية الطبقات المسيطرة ، قد دفعت الحاكم السلوقي ، انطوكيوس الثالث إلى استئناف المشاريع التي داعبت أحلام الاسكندر ، وللأسباب نفسها : تحقيق السيطرة الكاملة على هذه السلعة الغالية الثمن والمفيدة . وكان انطوكيوس قد قام بين عام ٢٠٦ — ٢٠٥ ق . م بالإبحار من أجل مهاجمة الجرعاء وجزيرة البحرين ، وفي أثناء عودته من حملة على إيران الشرقية . كانت الجرعاء ، الواقعة في مكان ما على القارة في مقابل جزيرة البحرين مدينة تجارية سيطر تجارها على الطريق البري المتجه نحو بلاد الأنباط وجنوبي الجزيرة ، إضافة إلى السيطرة على الطرق البحرية في الخليج ، والتي تؤمن التجارة مع ديلوس من جهة ، وحتى الهند من جهة أخرى . كانت تجارة الطيوب أحد المصادر الرئيسية للدخل ، وكانت الطيوب تتكدس في مستودعاتها . لقد أدرك انطوكيوس الصعوبات في المحافظة على السيطرة الدائمة على هذا المركز التجاري الذي تحيط به الصحراء ، وذلك من خلال إقامة طرق مواصلات منتظمة . واستطاع الجرعيون الحصول على الاعتراف باستقلالهم الدائم وعلى رحيل الملك مقابل الفضة وكميات كبيرة من البخور والمر .

استأنف أوغست المشروع بشكل أوسع مستهدفاً مناطق إنتاج الطيوب ذاتها وليس مستودعاً مثل الجرعاء . في بداية الحكم الامبراطوري حضّر أوغست غزو العربية الجنوبية ، من خلال تنظيم حملة كبيرة بقيادة حاكم مصر س . إيلوس غالوس ، بمشاركة جنود من مملكة الأنباط العربية . وقد وصلت هذه الحملة ، في عام ٢٥ — ٢٤ ق . م ، على ما يظهر ، حتى مدينة مأرب المحصنة — التي لم تكن عاصمة في تلك الفترة — ولم يستطع أخذها . وقد عدل إيلوس غالوس عن الوصول إلى مناطق الطيوب ، وعاد أدراجه نتيجة الضعف الذي حل بجيشه بسبب المسيره الطويلة المضنية عبر الصحراء ، ونقص الماء ، و (خيانة) الوزير النبطي القوي ، شولي .

ورغم هذا الفشل ، يبقى أن جيشاً متوسطياً قوياً قد استطاع ، لمرة واحدة ، الدخول إلى قلب الجزيرة العربية وملاحظة البلد وعاداته وتقاليده . ولم يتأخر أوغست عن التفاخر بالحدث ، من خلال نقوش يعدد فيها مآثر حكمه . وقد نتج عن هذه الحملة زيادة في الإهتمام بالجزيرة العربية ، حيث اختلطت اللوحات الساحرة التي وضعها اغاثارشيد ، وبقيت رغم الفشل ، بالمعلومات الباهتة التي جاءت بها الحملة أو التي جمعت من مصادر أخرى .

وقد قدم ايلوس غالوس ، نفسه ، معلومات عديدة إلى صديقه سترابون ، لم يثبت سوى بعض منها . وقد جمعت معلومات أخرى حول الجزيرة العربية من قبل الملك العالم جوبا الثاني الموريتاني (الذي حكم بين عامي ٢٥ ق . م و ٢٣ أو ٢٤ ميلادي) . أهديت هذه المعلومات

إلى كاسيوس قيصر ، حفيد أوغست وابنه بالتبني « الذي استهوته شهرة الجزيرة العربية » .

لقد استوحي إهداء الكتاب ، وربما تأليفه ، من مشروع حملة أخرى نحو الشرق أوكلها الأمبرطور الجد ، في السنة الأولى ق . م ، إلى الأمير الشاب البالغ من العمر عشرين عاماً . غير أن الحملة كانت تستهدف أرمينيا ، في مرحلة أولى على الأقل ، وقد اكتفى كاسيوس قيصر ، كحد أقصى ، برؤية أطراف الجزيرة ، في سورية وشاراكس ، قبل أن يموت من جرح أصيب به في أرمينيه في السنة (٤) .

يشكل نشاط جوبا الثاني والفضول المتحمس لكاسيوس قيصر مظاهر خاصة عن استمرار الاهتمام العام بالجزيرة العربية في العصر الاوغستي . ويؤكد هذا القول الشعراء الذين قاموا بالدعاية للنظام الجديد، بخاصة فيرجيل وهوراس . لقد وجد فيرجيل المناسبة للإشارة إلى بخور سبأ وحياة الدعة التي يحققها للسبئيين ، ووضع في إينادته العرب والسبئيين بين الأعداء الذين يحاربهم الرومان . ويصنف السبئيين ، بطريقة خيالية ، مع الهنود ، بين حلفاء كليوباترا وقد فروا إلى أكتيوم . من الصحيح أنه قد أعطى هذه المعركة قيمة رمزية باعتبارها نضالاً ضد الشرق كله . أما هوراس ، الواقعي ، فقد اهتم بالأمر أكثر ، وحلُم بثروات العرب . في أثناء التحضير لحملة غالوس ، طلب هوراس إلى القدر حماية جيوش الأمبراطور من أجل غسل عار الجيوش ، المدنسة في الحروب الأهلية ، بدم الشعوب البعيدة جداً ، في نهاية العالم ، أي بريطانيا والبحر الأحمر . غير أنه يسخر ، بلطف ، في قصيدة

شهيرة ، من أكسيوس الذي ترك دراساته التاريخية من أجل الغنى : فهو « يغبط كنوز العرب الغنية » و « يحضر حملة قوية ضد ملوك سبأ الذين لم يغلبوا بعد » . إن الحصول على ثروة كبيرة لا يساوي ، مع ذلك، عناء هذه الحملة وأخطارها .

وعلى الرغم من الفشل ، فقد زاد التحضير للحملات من الاهتمام والبحث . حمل إيلوس غالوس معه معلومات لم تكن معروفة ، وبدأت سياسة جديدة ، واتخذت إجراءات من أجل تطوير التجارة مع بلدان البحر الأحمر ، وتلك التي يفتح لها البحر الأحمر الطريق : إفريقيا الشرقية والهند بخاصة . واستطاع سترابون أن يتحدث عن « الأساطيل الضخمة التي تجوب البحر الأحمر وتتجه نحو الهند ، والتي لا تشكل السفن التي كانت تبحر في زمن ملوك اللاجيد شيئاً بالنسبة لها . ومنذ بدايات الحكم الأمبراطوري ، نظمت الطريق من كوبتوس في مايوس هورموس على الساحل المصري للبحر الأحمر من خلال محطات وآبار وصهاريج وحرس . وكان اوغست يتلقى الكثير من السفارات الهندية . وقد اكتشفت ، في اريكاميدو قرب بوندي شيري ، فخاريات صنعت في عام / ٣٠ / قبل الميلاد .

لقد أضيفت المعلومات الجديدة من قبل سترابون وبلين ، بعد نصف قرن ، (٢٣ أو ٢٤ — ٧٩) . استطاع هذان المؤلفان الحصول على مؤلف جوبا الثاني ، وعلى أعمال أكثر أصالة على ما يبدو . ويعيد العلماء تاريخ نشر « عربيات » كتبها مؤلف يدعى اورانيوس ، إلى تلك الفترة . ومن المرجح أن يكون هذا الشخص عربياً نبطياً ، أو على الأقل ،

شخصاً من المملكة النبطية . وعلى كل حال ، لقد كان على اطلاع واسع بشمال الجزيرة وجنوبها ، وفاقاً للأجزاء التي وصلتنا من كتابه . ويشار أيضاً إلى المؤلف التاريخي الجغرافي الذي يتحدث عن حملة غالوس إضافة إلى موضوعات أخرى ، ويحتمل أن يكون قد كتبه ابن المؤرخ الشهير ، تيت ليف ، في السنوات الاولى من الميلاد . غير أن مضمون هذا المؤلف ووجوده فرضيتان تقومان على أساس واه .

على كل حال ، لقد جمع سترابون وبلين في مؤلف « التاريخ الطبيعي » ذلك الكتاب الموسوعي ، العديد من المعلومات الجديدة ، بغض النظر عن مصدرها وللمرة الأولى ، يشير سترابون إلى الشكوك حول المصدر المحلي لكل الطيوب التي تصدرها العربية الجنوبية . كما يشير ، إضافة إلى ذلك ، إلى المنطقة الزراعية المعروفة باسم « منتجة الطيوب » . حيث تزرع الكثير من النباتات ، على الأقل ، والتي لم يستطع إيلوس غالوس أن يصل إليها . غير أن الرأي السائد قد عمم هذا الأسم الجميل على الجزيرة العربية كلها . ومن خلال اشارته إلى تقسيم هذه المنطقة إلى أربع دول ، وفق ما ذكره ايراتوستين ، يذكر سترابون تقسيماً آخر إلى خمس دول ، أو ممالك ، تختص كل واحدة في نشاط معين . وقد اشتملت كل دولة على المحاربين والمزارعين والحرفيين ومنتجي المر والبخور . وكان منتجو البخور ينتجون السنا والكافور والنادرين أيضاً . ولم يكن هناك تبادل في أنماط العيش بين هذه الفئات التي كانت تعتبر طبقات وراثية . غير أن هذه الملاحظة الغريبة لا تستبعد وحدة ما تشمل كل المنطقة . ذلك لأن المحاربين كانوا يقاتلون من أجل الجميع . وما من شك في أن هذه الملاحظة قد جاءت عن مصدر غامض فهي تسقط

التوزع المهني ، الوراثي الى حد ما ، على المستوى الجغرافي . كان « العرب السعداء » يشربون الخمر ، وخصوصاً خمر التمر ، وكان الإخوة يحظون بمقام أسمى من الأولاد ، وكان الملك والقضاء ينتقلان بالوراثة إلى الشخص الأكبر سناً في العائلة . وفي العائلة التي يحكمها الفرد الأكبر سناً . كانت الملكية مشتركة ، ويمارس تعدد الزوجات. أما الزنا فكان يعاقب بالموت . وكان الزواج بالأم مباحاً .

لقد استطاع بلين (وفق المعلومات التي حملها غالوس ، وهو يعترف بذلك بوضوح) أن يميز بين المجموعات القبلية ، ووصفها . كان الحميريون أكثر عدداً ؛ فيما امتلك السبئيون الغابات الغنية بالشجر الطيب الرائحة ، ومناجم الذهب والحقول المروية والعسل والشمع ، وامتلك المعنيون واحات النخيل والخشب ، وكانوا أغنياء بقطعانهم . أما السربانيون والأغريون (في الشمال ، على ما يبدو) ، وخصوصاً الحضارمة فقد تميزوا في الحرب ، وامتلك الكاريون حقولاً واسعة جداً وخصبة جداً . ويضيف الموسوعي الروماني ، في مكان آخر تفصيلات من مصادر أخرى ، مأخوذة من استماراته المتعددة (حول مؤلفات أكثر قدماً أحياناً) ويمزج بين أسماء القبائل والشعوب في الجزيرة العربية دون أي نظام . وتعرف ، بهذه الطريقة أن قبائل سبئية انتشرت ما بين البحرين (البحر الأحمر والمحيط الهندي) وأنها قد اشتملت على مجموعات من البدو الذين يعيشون تحت الخيام ويسيطرون على بعض الجزر . كانت عاصمة سبأ مارىابا . ثم يعدد بعد ذلك القتبانيين والجبانيين الذين امتلكوا عدة مدن منها ناجيا وتمنا أو ثومنا إضافة إلى خمسة وستين معبداً ، مما يدل على سعة مساحتها . لم يكن بالإمكان تصدير البخور إلاّ

عبر بلاد الجبانيين ، مقابل ضريبة تدفع لملكهم . كانت أحمال البخور تنقل من عاصمتها تمنا إلى عزة ، على ظهر الجمال ، مجتازة خمساً وستين محطة ، مقابل رسوم مختلفة تصل إلى ٦٨٨ دانقاً . لقد احتل الأترامیون مقاطعة سبئية ، عاصمتها سابوتا ، التي كانت تقع فوق جبل عال ، وقد احتوت على ستين معبداً . وكان البخور المقطوف يجلب إلى هذه المدينة المخصصة لهذا الغرض . وهناك ، كان الكهان يقتطعون عشر المنتوج . وكانت عاصمة الحميريين مصالا .

يعود بلين(١) ، في أغلب الأحيان إلى الجزيرة العربية الشمالية والجنوبية . وهو يقدم وصفاً جغرافياً إضافة إلى العديد من أسماء الأماكن، كما يقدم وصفاً تفصيلياً للنباتات البخورية ، خصوصاً في شبه الجزيرة الجنوبية . ويعتبر مؤلفه من أغنى المؤلفات التي وصلتنا من العصور القديمة . ويبدو أن مصدره المباشر جوبا . أما نوعية المعلومات فهي متأرجحة : إنها ممتازة أحياناً ، كما تظهر ذلك ، بوضوح ، الدقة التي يذكر بها الإسمين العربيين الجنوبيين اللذين يشيران إلى محصولي البخور السنويين ، وفق الموسم الذي يستخدمان فيه .

ويعتبر بلين قمة في كمية المعلومات ، في تلك التي وصلتنا على الأقل . ومع ذلك لابد أن تكون هذه المعلومات قد ازدادت في النصف الثاني من القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني ، ذلك أن تجارة الامبراطورية الرومانية مع الهند قد نمت ، كما ازداد عدد الرحلات في

(١) نص يذكره س . كونتي روسيني في : Chrestomathia arabica . Méridionalis épigraphica 1931 .

الاتجاهين ، وذلك في الربع الثالث من القرن الأول ، والنصف الأول من القرن الثاني . في عصر ديون كرزو ستوم (حوالي عام ٤٠ — ١٢٠) نجد الكثير من الهنود والعرب في شوارع الاسكندرية . إن قيام ترجان بضم المملكة النبطية عام ١٠٦ ، وغزو بلاد مابين النهرين في عهده ، قد قربا الرعايا الرومانيين من جنوبي شبه الجزيرة . وكانت الأساطيل الرومانية تبحر ، في أغلب الأحيان ، في البحر الأحمر ، فيما كانت تجري أعمال ضخمة في مصر لتسهيل الاقتراب من المرافىء التي تستخدم للابحار .

إن نصوص تلك الفترة مخيبة للآمال . ذلك لأن المؤلفين لم يكونوا يسعون لتجديد المعلومات ، إلاّ فيما ندر . وهكذا ، وفي منتصف القرن الأول يمر الجغرافي الإسباني بومبونيوس ، بسرعة ، على الجزيرة الجنوبية والشمالية في وصفه المختصر (باللغة اللاتينية) للعالم المأهول . ويقول بيريجيت إنه ، في القرن التالي ، كتب شاعر تعليمي يوناني ، يدعى دونيس ، قصيدة جغرافية طويلة قدمت لوحة عن العالم المأهول . وقد اكتفى هذا الشاعر ، فيما يتعلق بالجزيرة بتكرار ما قاله أغاثارشيد وأرتيميدو وبوزيد وبنوس شعراً ، ويعمم ، دون أي تمحيص ، المعلومات الفردوسية لهؤلاء المؤلفين على كل الجزيرة العربية . ويجب أن نشير إلى أن هذه الأبيات الخمسة والثلاثين قد اكتسبت شعبية لفترة طويلة واعتبرت مرجعاً خلال ألف عام على الأقل . وقد ترجم النص الذي شوهه الكتّاب ، شعراً إلى اللغة اللاتينية من قبل روفيوس منيستوس افيينوس في منتصف القرن الرابع ثم من قبل بريسيان ، في بداية القرن السادس . في القرن الثاني عشر ، اعتبر اوستات دوتيسالونيك أن من

الضروري شرح نص دونيس قواعدياً . وقد اعيد استخدام هذا الكتاب من قبل العديد من المؤلفين مع بعض الإضافات والتصحيحات . على الرغم من إعادة نسخ المؤلفين القدامى من قبل المؤلفين الجدد (مثل سولين في القرن الثالث ، الذي يعتبر نموذجاً) ، إن علينا أن لا نستنتج أن المعلومات لم تكن تتطور . وخارج نطاق التيار الأدبي الضخم ، قدمت لنا مشاهدات نادرة معطيات أخرى . ونذكر ، بهذا الصدد ، نصاً غامضاً جرى حول تاريخ تأليفه نقاش طويل : إنه كتاب « رحلة بحر ارتيريا » ، الذي يعتبر دليلاً للتجار الذين يستخدمون الطرق البحرية انطلاقاً من المرافىء المصرية على البحر الأحمر ، والذين يتجهون إلى أفريقيا الشرقية والهند وماليزيا والصين . وهو يقدم إرشادات عامة حول اتجاه الملاحة والمحطات إضافة إلى معلومات دقيقة حول البضائع المستوردة والمصدرة في كل مرفأ ، ولا يهتم ، إلا فيما ندر ، بالمعلومات حول الوضع السياسي الذي يلقاه التاجر ، والذي يمكن أن يؤثر على تجارته . وليس الكتاب عبارة عن مذكرات تاجر بحار صاغها بعد عودته كما ساد الاعتقاد لفترة طويلة ، بل هو مؤلف (تقرير رسمي؟) أعد انطلاقاً من مجموعة معلومات من هذا النوع جمعت في أزمنة مختلفة ، بين نهاية القرن الأول أو بداية القرن الثاني ، وربما في بداية الثالث . ويفسر هذا الأمر التواريخ التي توحي بها فقرات الكتاب المختلفة . لقد كان كتّاب أو كاتب « الرحلة » موضوعيين ولم يسمحوا لأنفسهم بأية إضافة خيالية ، وكانت المعلومات المقدمة دقيقة ومفيدة ، وهي بعيدة عن الغموض الذي اكتنف كتاب بلين . تتحدث المعلومات عن الساحل فقط ، غير أنها تمتد أكثر نحو الشرق لتشتمل على الساحل

الجنوبي للجزيرة العربية وتعكس موقفاً متخلفاً . لم يكن بلين يعرف سوى الملاحة الاغريقية والرومانية المتجهة نحو الهند ، وكذلك التجارة العربية للطيوب في موزا (بالقرب من المخا الحالية) . كان معظم إنتاج الطيوب ينقل من قبل السكان نحو الامبراطورية الرومانية بواسطة القوافل. أما كاتب « الرحلة » فكان يتحدث عن تصدير الطيوب من مرافىء الجزيرة العربية الجنوبية على البحر الأحمر والمحيط الهندي . وكانت هذه الطيوب تشترى ، في جزء منها ، في مناطق الإنتاج من قبل التجار الإغريق والرومان الذين لم يكونوا يهتمون فقط بالتجارة مع الهند ، وكان البخور احتكاراً في حضرموت ، وكان موظفو المملكة يبيعونه للتجار البحارة . غير أن تطوراً قد حدث . فقد انتزع التجار الإغريق والرومان ، جزئياً على الأقل ، احتكار تجارة الطيوب من سكان الجزيرة العربية .

ألف بتوليمي كتابه الجغرافي العظيم في تلك الفترة. أما أن يكون هذا الجغرافي الفلكي الشهير قد كتبه في منتصف القرن الثاني في الاسكندرية، فيعود ذلك إلى أن هذا المؤلف كان ثمرة سلسلة طويلة من التنقيحات تمت بعد وفاته . وقد قدم العديد من المخبرين ، الذين استخدموا لهذا الغرض، معلومات كثيرة ، بخاصة من خلال اتباع محطات القوافل . وهكذا وجدت الجزيرة العربية نفسها مقسمة رياضياً ، وفق شبكة من خطوط الطول والعرض ، وكان على المدن والقرى والجزر التي حددت بهذا الشكل ، أن تسمح باعداد خارطة دقيقة . وعلى هذا الأساس حدد عدد من المناطق الساحلية في الجزيرة العربية الجنوبية بشكل خاص كما تمت الإشارة إلى المرافىء التجارية والأسواق البحرية ، وكذلك إلى المرافىء

الصغيرة والمراسي ، كما سميت أهم شعوب الساحل والداخل . وبدت الجزيرة العربية وقد تناثرت فيها المواقع المعروفة « بالإقامات الملكية »، عواصم الأقاليم القبلية ، بالطبع . كما سميت الأخرى بالحواضر (المدن الرئيسية) . والإشارات الوحيدة المتعلقة بالمتوجات كانت تذكر الطيوب بالطبع . وقد قسمت منطقة الطيوب إلى منطقة المرّ الداخلية ، التي يبدو أنها كانت تقع في مركز الجزيرة ، ومنطقة المرّ الخارجية التي تقع في حضرموت ، وكذلك منطقة بخور في منطقة عمان .

بعد هذه الكميات من المعلومات الايجابية التي سجلها كل من بلين و « الرحلة » وبتوليمي ، لا نجد إلاّ القليل من هذه المحاولات ، قبل نهاية العالم القديم . من الممكن أن تكون « عربيات » اورانيوس قد كتبت في هذا العصر الغامض ، فكتابه الثالث قد خصص للجزيرة العربية الجنوبية ، رغم أننا نميل إلى ترجيح تاريخ سابق لعام ١٠٦ . وقد ألف شخص يدعى غلاوكوس ، من عهد ترجان (أو بعده) ، علم آثار عربية يتكون من أربعة كتب على الأقل ، لا تقدم الأجزاء القليلة التي وصلتنا منها شيئاً حول الجزيرة العربية الجنوبية .

لم يكن الجمهور المثقف يشعر بالحاجة إلى تجديد هذه المعلومات ، أو إكمالها . فقد استمرت الصورة الثابتة القديمة ، التي تعود إلى زمن أغاثا رشيد ، دون أن تتمكن المعلومات الجديدة والأكثر دقة ، التي تتعارض معها جزئياً ، من أن تهز أركانها . واستسلم بتوليمي نفسه لهذا الاتجاه في مصطلحاته حين أطلق اسم العربية السعيدة على كل الجزيرة العربية ، ماعدا المناطق النبطية والبادية السورية العراقية . واستمر الخلط

بخصوص العربية السعيدة هذه ، ذات الطيوب الساحرة ، وامتدادها نحو الشمال .

وقد مد لوسيان دو ساموزات (حوالي ١٢٠ — ١٨٠) هذه الطيوب حتى هيرا بوليس (منبج) في أعالي الفرات ، ولم يتردد عدد من المؤرخين المتأخرين في الحديث عن التخريب الذي ألم بالعربية السعيدة ، من خلال الإشارة إلى حشائشها الطيبة الشهيرة ، وذلك في أثناء معالجة حروب البارث . التي قام بها سيبتيم سيفير حوالي عام ١٩٥ — ٢٠٠ وقاتل الأمبراطور خلالها عرب بلاد ما بين النهرين (خصوصاً مملكة هاترا) . ويقال لنا أنه في عام ٢١٧ — ٢١٨ ، حارب الامبراطور ، قصير العهد ، ماكرن ، العرب السعداء بنجاح . وقد امتد حكم هذا الامبراطور عدة أشهر ، حكم خلالها المنطقة الواقعة بين انطاكية وبلاد ما بين النهرين العليا .

في منتصف القرن الثالث على مايبدو ، يتحدث قاص سوري يدعى هيليودور ، — في قصة حب ومغامرات تجري أحداثها في المملكة « الأثيوبية » في ميري ، حين كانت مصر محمية فارسية ، في القرن الرابع قبل الميلاد — عن سفراء من العربية السعيدة يحملون الهدايا إلى ملك اثيوبيا هيداسب . وقد اشتملت تلك الهدايا على نباتات طيب وقرفة وكافور ، وطيوب أخرى تنتجها الجزيرة العربية . وقد قدمت كمية كبيرة من كل نوع لدرجة انتشرت معها رائحتها في الجوار . ويبدو أنه انطلاقاً من هذا الوصف الخيالي ، أتت الإشارة المألوفة لسفراء العربية السعيدة الذين وضعهم المؤرخون الموجزون ، في العهود الأخيرة

للانتصار الروماني الذي حققه اورليان عام ٢٧٤ ، إلى جانب بني اسماعيل وشعوب أخرى كثيرة .

المعرفة والأساطير الوثنية :

مع بداية الثورة العقائدية التي شكلها اعتناق الامبراطورية الرومانية للمسيحية ، علينا أن نعود إلى الصورة التي كونها الإغريق والرومان عن الجزيرة العربية في العصر الوثني . لقد ألححنا ، حتى الآن ، على مسألة تقدم المعارف التي أضفت عليها روايات السكان الأصليين جمالاً ، ونقلها المسافرون وأضفوا عليها جمالاً أيضاً ، انسجاماً مع نزعة لاتقاوم ، ويضرب بها المثل .

على أنه قد عم تصور لأكبر مناطق العالم شبه المجهولة ، في إطار المفاهيم الأسطورية للكون ، وذلك منذ أقدم العصور . كما أضيفت إلى الأسطورة معطيات حقيقية حملها المكتشفون وتحولت هذه المعلومات لتتكامل مع الأسطورة وتغنيها . ولم يكن العلماء المتمسكون بالمعرفة الموضوعية بمنأى عن التأثر بهذه الأساطير التي بذلوا الجهد لطردها .

ولذلك فاننا نستطيع أن نميز بالتحليل ، في الصورة — أو بالأحرى في الصور — التي كوّنها الإغريق والرومان عن الجزيرة العربية الجنوبية ، بين مجموعتين من الملامح ، تتمازج بمستويات مختلفة وفاقاً للبيئة والعصور فمن جهة ، تعتبر الجزيرة العربية بلداً حقيقياً ، رغم بعده الكبير . وقد قام تقليد علمي ، منذ عهد هيكاتي دوميلي ، يسعى إلى جمع المعلومات الموضوعية عنه ، سواء أكانت هذه المعلومات جغرافية أو اقتصادية

أو عرقية أو تاريخية أو حيوانية نباتية . وتتميز مدرسة ارسطو في هذا البحث العلمي المحض الذي ساهمت فيه « مصلحة الاستخبارات » لخدمة العمليات العسكرية ، والتجار البحريين المندفعين لتطوير تجارتهم المزدهرة إلى أقصى حد .

ومن جهة أخرى ، إن الجزيرة العربية التي كانت ، في البداية ، البلد الأكثر بعداً ، والذي يمكن أن نميزه في الجنوب ، هي أيضاً البلد الذي يملك خصائص اسطورية . يقول هيرودوت ، غير أن « المناطق المتطرفة من الأرض المأهولة قد تمتعت بما هو أجمل ، إضافة إلى ما تمتع به غيرها من المناطق » .

إن الجزيرة العربية هي البلد الذي تسود فيه الشمس والحرارة العالية ، مما يؤدي إلى نضج ثمار أسطورية فيه . فليس غريباً ، والحال كذلك ، أن توضّح فيه إنتاج الطيوب التي نعرف أنها تأتي منه ، في النتيجة . أضف إلى ذلك أنه كان من مصلحة المنتجين أو التجار الترويج لهذه الفكرة ، الصحيحة في جزء منها . لقد فرض استعمال الطيوب نفسه في بلاد الإغريق في نهاية القرن السابع قبل الميلاد . وكانت تؤدي فيه وظيفة مثلثة الجوانب : في التوابل ، والطقوس الدينية ، والإثارة الجنسية ، ويمكن أن ندرك أهميتها الكبرى من خلال النصوص الأسطورية العديدة التي تحدثت عنها ، على مستويات مختلفة .

منذ هيرودوت على الأقل ، وكما عرفنا ذلك ، أحاطت الخرافات برواية قطف الطيوب المختلفة ، من قبل سكان الجزيرة العربية . وقد سمي هذا البلد المتميز جداً « العربية السعيدة » ، أي المزدهرة والغنية

بعطاءات الطبيعة . لقد أمكن للمعلومات الجديدة أن توضح أن هذه الطيوب كانت تأتي من المنطقة الجنوبية للجزيرة العربية . وقد حُسِّنت المعطيات الدقيقة بتفصيلات خيالية ، كما حددت بدقة البنية السياسية وعادات هذه المنطقة الخاصة والمتميزة ، وكذلك تفاصيل قطاف الطيوب .

ولم يكف الكتاب ، تماماً ، عن إضفاء خصائص منطقة الطيوب على كل الجزيرة ، رغم كل ما عرفوه حول الطابع الصحراوي لبقية شبه الجزيرة . وقد أشير ، بالقرب من أطراف الجزيرة الجنوبية ، إلى جزر أسطورية ، ربما قامت على أساس بعض المعطيات المتعلقة بسوقطرة ومصيرة والجزر المجاورة ، أو أبعد من ذلك ، سيلان (سرنديب) والهند وأفريقيا الشرقية . على أن هذه المعطيات قد طورت من خلال الخرافات التي تعود إلى العصر ماقبل الهلنستي ، نذكر منها الروايات المصرية حول معجزات (البونت) أو الجزيرة المسحورة في « حكاية الغريق » أو الأساطير العبرانية حول الجنة (ليس من قبيل الصدفة أن تحمل « جنة عدن » اسم مدينة « عدن » التي أطلقت عليها النصوص الإغريقية اسم « العربية السعيدة » ، دون أن ننسى الخرافات حول الجزر المعجزات التي انتقل مكانها من هنا إلى هناك والتي يمكن أن تنطبق مواصفاتها على هذه المنطقة « السعيدة » . وهكذا نجد روايات حول قطف الطيوب وتفاصيل خيالية في جزيرة بانخايا (١) التي وصفها اوهيميروس الذي اشتهر لفترة طويلة ، وفي « الجزر السعيدة » التي حددها أغاثارشيد في عرض البحر أمام الجزيرة العربية .

(١) بانخايا » هي المرادف الشعري للجزيرة العربية لدى الشعراء : فيرجيل وأوفيد ولوكريس .

إن العربية السعيدة ، التي تطابقت إلى حد ما مع الجزيرة العربية ، قد اختيرت بشكل طبيعي باعتبارها مكاناً لمظاهر إلهية خارقة . فقد قدم اوريبيدس ، حوالي عام ٤٠٥ ق . م ، ديونيزوس ، في بداية مسرحيته « الباكانت » ، على أنه عائد من سفرجال خلاله في العربية السعيدة ، من بين بلاد أسيوية أخرى . وقد نسب هذا الإله إلى منطقة تسمى نيزا ، نتيجة لسوء فهم لإسم علم فقد دلالته . ولما كان يعتبر أجنبياً فقد تم السعي لتحديد موقع نيزا في مناطق مختلفة . في أنشودة خصصت لديونيزوس وصفت بين الأناشيد المسماة هوميرية تعود إلى القرن الخامس ، على ما يبدو ، حدد موقع نيزا ، المسماة الجبل العالي ، والمغطاة بالغابات ، فيما وراء فينيقيا بالقرب من نهر مصر . وربما كان ذلك تحت تأثير إشارة هيرودوت الذي ذكر ، في منتصف القرن الخامس اوروتالت إلهاً ذكراً وحيداً للعرب (إلى جانب أليلات الإلهة العظيمة التي تتطابق مع أورانيا) . والإله المذكور يقابل ديونيزوس . وفي فترة لاحقة حدد ديودور موقع نيزا في الجزيرة العربية بالقرب من مصر ، وذلك من خلال سرده لحياة ديونيزوس ، المقابل لأوزيريس ، بطريقة أسطورية ، ذاكراً النشيد إياه . وقد أوضح ، في سطور لاحقة . أن هذه المدينة مصرية . ومع الإلياذة يصبح الملك تراسي ليكورغ عدو ديونيزوس ، ملك الجزيرة العربية ، لدى الكاتب انيماخوس دوكولو فون في القرن الخامس قبل الميلاد . وقد نتج هذا الأمر عن تحديد مكان إقامة ديونيزوس في الجزيرة العربية . وفي فترة متأخرة جداً ، تؤكد لنا كتابات اغريقية وجود إله يدعى ليكورغ يعبد في منطقة حوران . ومن المحتمل جداً أن يكون هذا الإله العدو اللدود

لديونيزوس ؛ وقد نقل إلى هذا المكان الغريب ، ومن الممكن أن يكون هذا الإله المقابل للإله العربي سيد القوم . ويبدو أنه قد نسب إليه تحريم الخمر في الأعراف والدين في مختلف مناطق الجزيرة العربية . ونفهم على هذا الأساس ، ما قام به المصري الإغريقي نونوس دوبا نوبوليس ، في آخر العصور الوثنية ، من تحديد لموقع المعركة الملحمية بين ديونيزوس ولوكورغ في الجزيرة العربية .

ومهما تكن أسطورة طائر الفينيقوس ، فان هذا الطائر الأسطوري هو كائن شمسي بشكل أساسي . فقد ارتبط ، منذ أقدم الإشارات الإغريقية ، بالطيوب وبالجزيرة العربية . وحتى لو كانت هذه الأصول حكاية إغريقية كُيفت مع أساطير مصرية في المركز الطقسي الشمسي في هليوبوليس ، أو كانت تحريفاً هلنيستياً بسيطاً لهذه الأساطير ، فانها تحدد أصل هذا الحيوان ومكان إقامته الدائمة في الجزيرة ؛ غالباً — هذا ما كان يردده كهان هليوبوليس لهيرودوت — وكانوا يرددون له أيضاً أنه كان ينقل جثة أبيه مغلفة في شرنقة من المر ، حتى معابدهم . وقد فصلت تحسينات كثيرة القصة ونوعتها وطورت دلالتها الرمزية أو غيرتها . وقد أضيفت طيوب عربية أخرى إلى المر ، مثلاً ، وذلك لتشكل غذاءه أو الوقود الذي أحرق جثته (مانيليوس وأوفيد) . وقد حدد مقر إقامته في الهند أحياناً ، وهي بلد آخر يظهر فيه أثر الشمس الأعظمي ونمو الطيوب ، ومن غير المستحيل ، كما سنرى ، أن يكون المقصود هنا الجزيرة العربية . وبما أن الطيوب قد ارتبطت بطائر الفينيقوس ، فلابد من أن تخلق مباشرة ، أساطير تجري في الجزيرة العربية . وكما أن الطيوب العربية التي كان الإغريق يرمونها في النار

المقدسة للوصول إلى الآلهة ، تتوجه نحو أسطورة « صاعدة » مع طائر صاعد نحو الشمس ، فان الطيوب التي تثير التقارب الجنسي ، والمستخدمة في طقس الزواج ، بشكل معتدل ومعدل ، تخلق أسطورة « أفقية » تربط المر بتنظيم الاتحاد الجنسي . هذا ، على الأقل ، التفسير الذي يقدمه العالم البنيوي مارسيل ديتيين . وقد أظهرت لنا أسطورة إغريقية ، « ميرا » أو « سميرا » ، (الأسماء الإغريقية للمر) على صورة امرأة شابة ، هي ابنة ملك سورية ، ثياس ، أو ملك قبرص الأول ، ذي الأصل الفينيقي المدعو كينيراس . تشعر ميرا بحب كبير نحو أبيها وتنجح في خداعه وتمضي عدة ليال معه . غير أن الأب يدرك أخيراً حقيقة شريكته ، ويأخذه الهلع نتيجة لهذه العلاقة غير الشرعية ، ويلاحق ابنته ، محاولاً قتلها بسكين في يده . فتهرب ، هلعة ، طالبة النجدة من الآلهة ، فتأخذ الشفقة الآلهة التي تحولها إلى شجرة المر . أما الدموع التي تذرفها بسبب فعلتها ، فهي القطرات التي تخرج من الشجرة . إن ميرا حامل ، ويسبب لها حملها ألماً شديداً بسبب ضغط قشرة الشجرة . ولم يكن بامكانها أن تلد دون مساعدة الآلهة (أو أن يقوم الأب بشق الشجرة بسيفه) . وقد نتج عن هذه العلاقة غير المشروعة الإله الجميل أدونيس ، الذي يؤكد اسمه أصله الفينيقي والشرق أوسطي ، وذلك رغم أن أسطورته قد عدلت وفق اتجاهات مختلفة في بلاد الإغريق .

على كل حال تشكل العربية الجنوبية ، التي تتطابق مع شبه الجزيرة كلها ومع الشرق الأوسط أيضاً ، مسرحاً لهذه الأسطورة في كثير من رواياتها . فقد قدم لنا أوفيد ميرا هاربة عبر واحات النخيل العربية مجتازة حقول بانخيا ، متوقفة ، وقد أعياها التعب ، في الأرض السبئية .

هل تطورت هذه القصة بشكل كامل في بلاد الإغريق ، أم أنها استخدمت عناصر شرقية ؟ إننا لا نعرف شيئاً عن ذلك . ولنشر إلى أن ربط أدونيس بميرا غير موجود في رواية أسطورية أخرى . ذلك لأن بقية الأساطير تشير إلى أن أدونيس قد ولد من زوجة كينيراس الشرعية .

العصور المسيحية :

إن اعتناق الأمبراطورية الرومانية للمسيحية لم بشكل دافعاً لأبحاث جديدة حول الجزيرة العربية . بل على العكس من ذلك ، لقد تراجع الجهد العلمي بشكل واضح . غير أن التقاليد الأدبية قد حافظت على ذكر النماذج القديمة مع إضافة بعض الخلط إليها . فحوالي عام ٤٠٠ مثلاً ، لم يخش الشاعر كلودين من التأكيد أنه لدى الميديين والسبئيين السخفاء ، بحكم جنس النساء ؛ وذلك تحت تأثير انتصار الملكة العربية « ماوية » على القوات الرومانية ، مازجاً بين هذه الواقعة وذكرى درنو سترابون حول تعدد الأزواج لدى السبأيين .

لقد قلت أهمية الطيوب ؛ بسبب الاستعمال المعتدل لها في الطقوس المسيحية وكذلك بسبب الفقر العام لعالم البحر الأبيض المتوسط الذي أدى إلى تقليص الاستهلاك المترف عموماً . وأصبح الاهتمام بالعربية الجنوبية مرتبطاً بأسباب استراتيجية وعقائدية ، إضافة إلى أن موقعها إنما يحدد الآن في علاقتها مع المعتقدات المسيحية .

ويتلون الصراع الأزلي بين روما وإيران من الآن فصاعداً بالطابع الديني : المسيحية ضد المزدكية المقاتلة لدى الساسانيين . وانسجاماً مع القانون الاستراتيجي الأبدي الذي يدفع للبحث من أجل كسب

ود أعداء الأعداء . فقد سعى الأعداء الايديولوجيون الداخليون للأصولية المسيحية والموجودون في بيزنطة إلى كسب تأييد إيران وحصلوا عليه . كما حصلوا على تأييد اليهود المسيحيين النسطوريين . وقد أثار اعتناق الطبقات الحاكمة في مملكة أكسوم ، حوالي عام ٣٥٠ للمسيحية مشكلة إعادة ترتيب العلاقات السياسية الايديولوجية في البحر الأحمر .

لقد توجه الاهتمام ، في تلك الفترة ، إذن إلى الوضع الديني للعربية الجنوبية أكثر من توجهه إلى منتوجاتها أو دراسة عاداتها وتقاليدها . وقد أقلق الرومان تطور أعداد أنصار اليهودية في هذه المنطقة . وهكذا أخذت إرساليات الأكسوميت ، من الطرف الآخر للبحر الأحمر الطابع الديني حينذاك . إضافة إلى ذلك ، فقد أثيرت أسباب اقتصادية ، ذلك أن العربية الجنوبية راحت تلعب دور محطة انتقال محتمل في تجارة الحرير الصيني .

انسجاماً مع هذين المنظورين الاستراتيجي والإيديولوجي ، أرسل قسطنطين الثاني ، حوالي عام ٣٤٠ م سفارة إلى العربية الجنوبية بقيادة صانع المعجزات الأسود تيوفيل ، الملقب بالهندي . وكان هذا الرجل من الأنصار المتحمسين للتيار الأنومي (١) . ويعود الفضل إلى هذا السفير ، الذي تعود أصوله إلى هذه المنطقة (موطنه هو جزيرة ديبوس المعروفة الآن باسم سوقطرة) ، بالمعلومات الجوهرية التي حصل عليها سكان البحر الأبيض المتوسط حول الجزيرة العربية الجنوبية . فقد اعتمد

(١) الأنوميون : تيار ديني يمثل ، في القرن الرابع ، أقلية مدانة بسبب هرطقتها التي كانت ترى أن الأب والابن مختلفان من كل الوجه .

المؤرخ الأنوني ؛ فيلوستروغ ، على تقريره في النص الذي كتبه (حوالي ٤٢٥ - ٤٥٠ م) حول هذه السفارة . الحميريون ، يعودون لديه ، إلى إبراهيم من زواجه بعطرة ، وحاضرتهم سبأ كانت عاصمة الملكة التي زارت سليمان . وكانوا يمارسون الختان في اليوم الثامن . إنهم وثيون يعبدون الشمس والقدر والآلهة الأخرى . غير أن هناك أعداداً كبيرة من اليهود تعيش في المنطقة . ورغم معارضة اليهود ، استطاع تيوفيل - الذي جلب العديد من الهدايا الثمينة : مئتا جمل من كابادوس . أن يقنع الحاكم بالسماح له ببناء ثلاث كنائس ، بنيت إحداها في العاصمة ظفار وأخرى في مرفأ عدن .

بعد نص فيلوستروغ هذا ، لم يصلنا ، عملياً ، عن الجزيرة العربية الجنوبية ، قبل الإسلام ، سوى معلومات تاريخية ودينية . لقد دفعت الإهتمامات السياسية والإيديولوجية الامبراطورية ، في عهدي جوستان (٥١٨ - ٥٢٧) وجوستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) إلى إرسال سفارات ، مثل سفارة جوليان ونونو زوس ، إلى الجزيرة الجنوبية ، كما أرسلاها إلى الحكام العرب ، والملوك الأكسوميت . وكانت هذه السفارات تحلول القيام بتحالفات أو إجراء اتفاقات عسكرية وتجارية وتبادل المجرمين . فهل حملت هذه السفارات معلومات أساسية ؟ إننا لا نعرف ، للأسف ، من رواية نونو زوس إلاّ المقتطف الذي احتفظ به فوتيوس . يركز هذا النص على مملكة أكسوم والقضايا العربية ، إلى جانب مقطع حول منطقة فرسان التي تمثل جزر فرسان . وفي إحدى هذه السفارات ، استطاع السفير البيزنطي أن يتفحص شعباً من السود بدا له على درجة عالية من الهمجية . فقد كان الشعر يكسو جلدهم

بشكل كثيف ، وكانوا يعيشون عراة إلاّ مما يستر العورة أما بروكوب (٥٠٠ – ٥٦٢) ، الذي يعرض بعض التفاصيل حول الأحداث العسكرية والسياسية والتجارية ، فانه يقول لنا فقط إن الحميريين كانوا منقسمين إلى وثنيين ويهود وإن أرصهم كانت خيّرة جداً . وأوضح أن التجار الايرانيين القاطنين في مرافئهم (ومرافيء اثيوبيا) كانوا يحتكرون تجارة الحرير الذي يشترونه من التجار البحارة الهنود لينقلوه ويرسلوه إلى الأمبراطورية الرومانية .

في تلك الفترة ، قلّ الاهتمام بقضايا الجزيرة العربية الجنوبية لأن المنطقة بدأت تفقد هويتها وخاصيتها في أنظار شعوب البحر الأبيض المتوسط . فقد اعتبرت هذه الشعوب أن هذه المنطقة منفصلة عن البلدان العربية والجزيرة العربية بشكل واضح . وفي الواقع ، إذا اعتبر شمال شبه الجزيرة ووسطها أراض للتبشير ، فقد بدا هذا الشمال وهذا الوسط مخترقتين بالدعاية المسيحية والتأثير الروماني . ولم يكن المطلوب سوى تعميق هذين الأمرين وتوسيعهما .

أما في جنوب هذه المناطق ، فهناك عالم آخر . إنها تلك البقعة الواسعة من العالم المأهول التي تحازي سواحل بحر أريتيريا ، أي البحار التي تقع في جنوبي شرقي الأمبراطورية الرومانية . إن هذه المنطقة المجهولة تتوجه نحو الهند ، ونجد فيها العديد من التجار والبحارة الهنود ، والمستعمرات الهندية ، كما يمارس فيها التاثير الهندي في كل مكان ، ولو بدرجات متفاوتة . إنها ، بخاصة ، المنطقة التي تجوبها ، ومنذ زمن طويل ، السفن التجارية التي تبادل منتجات البحر المتوسط بالبضائع التي ينتجها الهنود

وينقلونها . وسادت تسمية المحيط الهندي على « الخليجين » المعروفين الآن بالبحر الأحمر و « العربي » ، ونفهم بعد ذلك ، السبب الذي من أجله علينا أن نعدل المفهوم القديم عن المحيط الوحيد الذي يحيط بالأراضي المأهولة كلها ، ونحدده . ولذلك فقد سمي سكان هذه المناطق بالهنود من قبل عدد من الكتاب ، كما دعوا بالعرب الجنوبيين والاثيوبيين .

إن مفهوم الهند المبهم هذا ، قد حدد واستبدل بتسميات اخرى ، وفاقاً للمستوى الثقافي للكتاب وبيئتهم وتوجهاتهم ، وكذلك وفاقاً للتقاليد المتبعة . ومهما قلنا عن هذا الأمر ، فان الهند القريبة تشير إلى السواحل الإفريقية للبحر الأحمر ، لدى روفان (الذي كتب حوالي عام ٤٠١ — ٤٠٣) أما فيلوستروغ (الذي كتب حوالي عام ٤٢٥ — ٤٥٠) فقد ماثل بين هنود المناطق الداخلية وبين الشعب الذي كان يدعى في الماضي سبأ ، وفق اسم عاصمته ، وهو معروف الآن بالحميريين. في حوالي عام ٤٠٠ ، كتب طبيب غالي (١) شعراً ميز فيه بين الهندي العربي . . . والسبئي الغني . وما من شك في أنه كان ينسخ نصوصاً أكثر قدماً . بعد قرن ونصف ، أي حوالي عام ٥٤٧ — ٥٤٩ ، تاجر بحار ، يدعى كوسامن انريكو بلوستيس ، بجولة في البحر الأحمر ، وميز بوضوح ، وفق مصادر أكثر دقة ، بين الهند التي نعرفها ونسميها الهند الداخلية ، وأثيوبيا وأكسوم و « بلاد الحميريين » التي كانت تسمى في الماضي « العربية السعيدة » . كما ميز ضمن شبه الجزيرة

(١) نسبة إلى تسمية فرنسا في العصور القديمة : غاليا .

العربية (الجزيرة العربية كلها) بين « تلك التي من طرفنا » و « تلك المسماة سعيدة » .

غير أن الاهتمام بأحداث الجزيرة العربية الجنوبية قد ازداد كثيراً في الأواسط المسيحية الشرقية في عهد بروكوب ، إلاّ أنه اقتصر على الصراع القائم في المنطقة بين اليهودية والمسيحية . ذلك أن الاضطهاد الذي مارسه الملك ، المعروف تحت اسم « ذو نواس » ، ضد المسيحيين ، خصوصاً في نجران حوالي عام ٥٢٠ ، قد أثار الاستنكار في كل مكان . وكان الانتصار اللاحق لدولة أكسوم ، بطلة المسيحية ، بمساعدة السفن البيزنطية قد ملأ العالم المسيحي فرحاً واعتزازاً . وقد مجّد شاعر من البلاط يدعى أغاثيا السكولاستيكي (عام ٥٣٦ — ٥٨٢) الهيمنة المسيحية على البحر الأحمر . وباعتباره أحد رعايا الأمبراطورية البيزنطية التي يطابق بينها وبين إيطاليا ، شعراً ، ويعتبرها أصلاً له ، يقول :

« ليس من مكان مستعصٍ عليّ . . . . حتى لجيج بحر أثيوبيا تضرب فيه مجاذيف السفن الإيطالية موجاً لطيفاً » .

وقد انتشرت سلسلة من الروايات ، تفاوتت فيها درجة الأمانة ، وراحت تسرد الأحداث الدراماتيكية لهذا الصراع والنصر الأكسومي البيزنطي الذي تحول بسرعة إلى خيبة . وتحتوي هذه الروايات القليل من المعلومات غير الدينية عن هذا البلد . وقد تحولت هذه المعلومات ، في الأواسط المسيحية ، إلى خرافات لا أصل لها ، كما كان حال الكتاب الذي يزعم أنه قد احتوى على « القوانين الحميرية » الذي اعتمده عدد من العلماء الذين يفتقرون إلى الفكر النقدي ، واعتقدوا أن باستطاعتهم

أن يقدموا صورة عن الظروف الاجتماعية في نجران في القرن السادس . أما في الجزيرة العربية ، فقد وجدت ذكريات هذه الأحداث صدى لها في القرآن الكريم . لقد تحولت هذه الأحداث ، التي أضفى عليها الشعور الوطني اليمني والإبداع الخيالي جمالاً ، إلى روايات صادقة نسبياً من جهة ، وإلى مآثر تمجد نضال اليمنيين — وخصوصاً نضال شخصية هي في الأصل تاريخية ، إنه سيف بن ذي يزن — ضد الاثيوبيين السود .

على الرغم من أن تحديداً آخر للمواقع قد اقترح ، كما رأينا ذلك ، ووجد بعض القبول ، إلا أن من المنطقي أن يطابق المسيحيون واليهود بين العربية الجنوبية ومملكة سبأ هذه ، التي جاءت منها الملكة التي زارت سليمان ، وفق سفر الملوك الأول . وعلى الرغم من أن هذه الكلمة لم تكن مستخدمة ، فإننا نعرف أنها كانت الاسم القديم لهذا البلد . ومن جهة أخرى ، وفي عام ٥٤٣ ، يعلن أبرهة نفسه ، في كتابة موجودة على سد مأرب ، « ملكاً لسبأ وذي ريدان » . لقد تمت المطابقة بين هذه المنطقة والمملكة القديمة ، قبل قرن على الأقل من قيام القرآن بذلك . ولقد تطورت ، في هذه الأجواء وانتشرت الخرافات حول هذه المملكة العظيمة . ولقيت هذه الخرافات رواجاً كبيراً بين أواسط اليهود . كما اعتمدت من أجل إضفاء الشرعية على السلالة الحاكمة في أثيوبيا ، بعد القرن الثالث ، ويتطلب هذا الأمر تحديد موقع افريقي لهذه المملكة .

لقد هيمن الغموض على سلسلة الخرافات حول الجزيرة العربية الجنوبية بشكل عام ، فيما عدا أواسط محدودة . لقد حولت التعديلات ، التي أدخلها المسيحيون على رحلات « السعداء » إلى الشرق الأقصى ،

الجزيرة العربية إلى جنة عدن . وقد كتبت هذه الرحلات وفق النماذج الخيالية للملحمة الاسكندر ، وذابت الجزيرة العربية الجنوبية فيها في هند غير معروفة المعالم ، تصل حدودها حتى بلاد النوبة .

ولقد هيمن الغموض نفسه على السلاسل الخرافية التي ترفع إلى المستوى الأسطوري الجهد التبشيري الكبير لنشر الانجيل في العالم أجمع . وكانت نقطة الانطلاق الدعوات الواضحة والملحة من المسيح نفسه ، أو ما نسب إليه من قبل المسيحيين الأولين ، قبل بعثه أو بعده . فقد دعا تلامذته على النحو التالي : « هيا إذن كوّنوا تلامذة من كل الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس ، وعلموهم اتباع كل ما أرشدتكم إليه » . وهكذا فقد اتسع ، شيئاً فشيئاً ، الأفق الجغرافي للأقاليم التي يمكن أن يتم فيها التبشير بالانجيل . في حوالي عام ١٧٠ ، بعث الفيلسوف الرواقي بانتيت ، الذي اعتنق المسيحية وأسس أول مدرسة لتعليمها في الاسكندرية ، إرسالية تبشير بالانجيل حتى « الهنود » .

من خلال العودة إلى كتاب مفقود ألفه اوريجين (١٨٥ — ٢٥٤) ، يتحدث اوزيب متيسارية ، حوالي عام ٣٠٠ — ٣١٠ ، عن تقسيم للمناطق الجغرافية التي يتوجه إليها التبشير ، بين الحواريين . وقد قام روفان أكيلي بترجمة هذا الكتاب من الاغريقية إلى اللاتينية عام ٤٠٢ — ٤٠٣ ، وأضاف إلى البلدان التي ذكرها أوزيب « الهند القريبة » ، محاولاً تحديد الفقرة الواردة سابقاً والتي ذكر اوزيب فيها أن بانتيت قد وجد هنوداً قد تأثروا بدعوة الحواري بارتيلمي . ويبدو أن هذا الحواري قد ترك لهم النسخة العبرية من انجيل متى . أما روفان ، فقد أكد الحكاية التي تقول إن الحواريين قد تقاسموا التبشير في البلدان عن طريق القرعة .

عن أي هند يجري الحديث هنا ؟ نحن هنا في نقطة انطلاق لأدب غزير وكثيف حيث يظهر الخلط المتنامي بين المفاهيم الجغرافية في كل المناطق الجنوبية ، وحيث تزدهر الخرافات . إننا هنا بصدد جنس أدبي يعرف باسم الأعمال غير المحققة » للحواريين وتنعكس في هذا الجنس ، الذي اعتراه التأخير والخلط والإهمال ، توجهات الإرساليات التبشيرية وفاقاً للأوضاع السياسية .

لقد اعتبرت الهند مجالاً تبشيرياً للقديس توما تارة ، ومجالاً للقديس بارتيلمي تارة أخرى . بالنسبة للقديس توما ، كان المقصود امتداداً نحو شرقي المنطقة التي أوكلت إليه في الأصل : « الأسروين » ثم « البارثي » . إن الرواية التي تتحدث عنه تشير إلى الباكتريان والشمال الغربي من شبه الجزيرة الهندية . أما بالنسبة لهند بارتيلمي ، فالغموض هنا أكبر . فهي تشير بوضوح أحياناً إلى أثيوبيا (المعروفة حالياً) والنوبة وتايلاند . غير أن نصوصاً أكثر حداثة تؤكد أنه كان يبشر (أيضاً أو بشكل رئيسي) في العربية السعيدة . وربما كان هذا ما فهمه روفان . وتذهب سيرة حياة أرمنية بهذا الحواري إلى عدن . إن هذه التوضيحات النسبية هي بالطبع دون أية قيمة وتنتج عن افتراضات خاطئة لعلماء في سير القديسيين غير أكفاء وقليلي الاهتمام بالجغرافية . لقد كان لبارتيلمي ، في حملته التبشيرية في الجزيرة العربية الجنوبية ، منافس : إنه خصي الملكة « مروة » الذي هداه الكاهن فيليب إلى المسيحية ، في طريق غزة . وبما أن سيرته كانت تدعى في « الأعمال » و ملكة الاثيوبيين » فقد كان مغرباً ، بسبب مرونة هذا المفهوم ، أن تجري المطابقة بين مملكتها وكل المناطق على البحر الأحمر وما وراءه .

ويمكننا أن نفترض أيضاً ، في إطار منطق السير ، أن هذا الخصي الذي تأثر بالانجيل ، قد سعى إلى التبشير بالكلام المقدس في هذه المناطق . ويروي أنه قد بشر في الجزيرة العربية الجنوبية ، من بين مناطق أخرى .

خاتمة :

كيف أنهي هذه اللوحة التي لم أسع مطلقاً كي أجعلها شمولية ، بل سعيت لكي أذكر وأقدم للقراء المعطيات الأكثر دلالة والموجودة في النصوص التي وصلتنا ؟ والحق يقال ، إن هذه اللوحة قد شوهها غياب العديد من المؤلفات المفقودة في كارثة فقدان الأدب القديم . على أي شيء احتوت كتب جوبا وغلوكوس وأورانيوس ونونوزوس ، خارج نطاق بعض المقاطع الباقية منها ؟

يمكننا أن نستنتج بعض الأفكار العامة التي تؤكد ما تعلمنا إياه الصور التي تتكون لدى شعب ما حول الشعوب الأخرى . إن علينا أولاً أن نذكر دائماً — لم يقم الأخصائيون بذلك دوماً — أنه ليس هناك أبداً صورة وحيدة ، بل صور عديدة مختلفة ، ومتناقضة أحياناً : وفاقاً للمستوى الثقافي والمعارف الخاصة التي تتولد عن الاختصاصات . أضف إلى ذلك : أن هذه الصور تتطور وفق المواقف التاريخية ، وفي أولها العلاقات المحسوسة للشعوب التي تلاحظ والشعوب الملاحظة . وتتأثر هذه الصور بالانفعالات والأحاسيس التي تثيرها هذه العلاقات .

إن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الطرق التي تأخذها المعرفة والأساطير حتى تصل إلى عالم الكتّاب لتسجل في الأعمال الأدبية . ويجب أن يؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار أكثر حين يتعلق الأمر بثقافة نخبوية .

ولابد أن يكون العديد من المتوسطين قد أقاموا اتصالات مباشرة مع أهالي الجزيرة العربية الجنوبية الذين زاروا البحر الأبيض المتوسط . وربما أقامت بعض الجاليات الإغريقية في تلك المنطقة ، كما أشار إلى ذلك بلين .

إن بعض الأعمال الفنية ، ذات الطابع الهلنستي والتي اكتشفت في الجزيرة العربية الجنوبية — وحتى تلك التي نقلت من مصر أو بلدان أخرى — هي من إنتاج فنانين أو حرفيين متوسطين يعملون فيها ؛ أو من إنتاج أقرانهم السكان الأصليين . لابد أن كل هؤلاء قد تحدثوا وكتبوا ، ولابد أن يكون سكان الجزيرة العربية الجنوبية الذين سافروا إلى البحر المتوسط ، وعاشوا في بلدانه والذين وجدنا ، بمحض الصدفة ، بعض آثارهم ، قد تحدثوا عن بلادهم أيضاً . ولكن ماذا بقي من كل هذا ؟ الشيء القليل قد انتقل إلينا ، على ما يظهر ، عبر الكتابات التي وصلتنا .

لقد اختلطت الأسطورة والخيال بالمعلومات المحسوسة والدقيقة اختلاطاً شديداً وقد فسرت هذه المعلومات وحرّفت كي تنسجم مع التصورات العامة والمسبقة وحين جاء عصر الايديولوجيات التوسعية ، مثل المسيحية حصلت الطفرات في اتجاه تبريري واضح . لقد تفوقت أهمية الإيمان الجديد ، على نقل المعلومات التي لم تكن تحظى بالاهتمام الكبير للرهبان الجدد ، إلاّ إذا كانت تتعلق ، بشكل مباشر ، استراتيجية التبشير التي ارتبطت في الحال باستراتيجية الدولة التي أصبح فيها هذا الإيمان مهيمناً .

لقد قام الأدباء بالاختيار ، من بين ما كانت تقدمه لهم التقاليد من معلومات وصور غير دقيقة ومشوهة ، ومن أساطير ، وذلك وفاقاً لمعارفهم واهتماماتهم التي يمكن أن تكون محدودة جداً وشكلية جداً . ولقد لعبت معوقات القوافي والايقاع والصور البديعية دوراً في نقل هذه المعلومة أو تلك وفي إعطائها وقعاً مثيراً .

لقد كانت المعتقدات المسيحية واليهودية المسيحية الأكثر تواجداً وطغت على غيرها ، بسبب هيمنة العقيدة المسيحية واعتمادها على العهدين القديم والجديد . ما من شك في أن ملكة سبأ والملوك المجوس قد أثروا في المخيلة الأوربية ، حتى أيامنا هذه . ولكننا لا نعرف ، بالضبط ، أين تقع سبأ التي لم تأخذ أهمية كبيرة إلا في زمن الثقافة الحديثة . لقد عرف جر فيزدو تيلبوري (حوالي عام ١١٤٠ — ١٢٢٠) أن بلد الملكة الشهيرة تقع في الجزيرة العربية ، غير أن ماركو بولو (١٢٥٤ — ١٣٢٤) لم يعثر عليها حين طاف بأرجاء الجزيرة العربية الجنوبية وقد ظن أنه قد وجد اسم سبأ في اسم المدينة الفارسية « ساوا » التي خرج منها الملوك المجوس ، في رأيه .

وفي النهاية ، لقد سيطر موضوع الطيوب الإغريقي الروماني — وهو الأكثر حضوراً في الأدب القديم من حيث الكم — حين كان يجري الحديث عن الجزيرة العربية . ولمدة طويلة وحين كان يجري الحديث عن شبه الجزيرة الشاسعة هذه ، فرضت تقاليد محترفي الأدب على الذاكرة الجماعية الصورة التي تركها هيرودوت وبلين والشعراء . وقد أكد شيكسبير ذلك ، فتابع ذكريات الأدباء حين قال :

« إن كل طيوب الجزيرة العربية لن تستطيع أن تعطر هذه اليد الصغيرة » (١) .

(١) ماكبث ، الفصل الخامس ، المشهد ١ / ٤٢ .

تقنيات الفك والربط في الخطاب المنطوق والخطاب المكتوب

« دراسة لسانية نقدية أدبية »

د. مازن الوعر

مدخل :

الكلام والكتابة نشاطان لغويان مختلفان على نحو واضح. فعندما يتكلم المرء فانه يصدر ضجيجا من الأصوات من حنجرته وفمه ، وعندما يكتب فانه يسجل علامات معينة على الورقة . وفي حالة الكلام يتوقع ان يكون هناك شخص ما على مقربة من المتكلم لكي يستقبل هذا الضجيج الصوتي من أجل أن يفهمه ويفسره ومن ثم يرد عليه سواء أكان هذا الرد لغويا أم غير لغوي . أما في حالة الكتابة فانه يتوقع

قدم هذا البحث في الملتقى الدولي حول «مناهج البحث في اللغة والادب» الذي اقيم في المعهد الوطني للتعليم العالي للغة والادب العربي تلمسان ـ الجزائر (٢٣ ـ ٢٥ تشرين أول ١٩٨٩) .

(١) ادين بهذا البحث الى عالم اللسانيات الأمريكي والس تشيف . فقد استفدت كثيرا من النتائج التي توصل اليها في بحثه المقدم الى المؤتمر الثاني للاتحاد العالمي للدراسات السيميائية الذي عقد في فيينا ١٩٧٩ ، تحت عنوان :

Chafe , Wallace (1979) « Integration and Involvement in spoken and written Languag » Draft of apaper presented at the 2nd congress of International Association for Semiotic Studies , Vienna .

أن يكون المرسَل اليه بعيداً عن الكاتب في الزمان والمكان فينتقل الخطاب اليه ليفهمه ويفسره ويرد عليه ردا غير مباشر .

لقد اهتم الباحثون اللسانيون اهتماما واضحا بهذه المسألة وتوصلوا الى ان التقنيات التي تصوغ المعاني في اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة انما هي مختلفة في الشكل والجوهر . هذا الاختلاف نابع من طبيعة كيفية صياغة اللغتين المنطوقة والمكتوبة ووظيفتهما .

ان الهدف من هذا البحث التعرف الى الفروق الجوهرية بين تينك اللغتين ومناقشتها وصفيا وتحليليا على نحو تفصيلي (٢) .

١ – الفروق القائمة بين اللغتين المنطوقة والمكتوبة

بادىء ذي بدء سأقدم هنا مصطلحين مهمين وأساسيين للتفريق بين اللغتين المنطوقة والمكتوبة . هذان المصطلحان كان قد اقترحهما اللساني الأمريكي والس تشيفوهما « الربط » (Integration) الذي يسم اللغة المكتوبة و « الفك » (Fragmentation) الذي يسم اللغة المنطوقة .

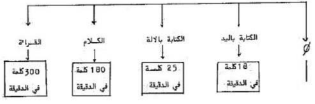
ونعني بهذين المصطلحين ان اللغة المكتوبة أكثر ترابطا ووحدة عضوية من اللغة المنطوقة ، وان هذه الأخيرة أكثر تفككا وتجزئة

---

(٢) هذا البحث هو استمرارية لموضوعنا « اللسانيات وموقفها من اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة » الذي نشر في مجلة المعرفة التي تصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي . العدد ٢٩٢ حزيران ١٩٨٦ .

انظر بهذا الشأن أيضاً كتابنا : دراسات لسانية تطبيقية ، (الفصل الثاني) . دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق ١٩٨٩ .

وتناثرا من اللغة المكتوبة . ان هذا الاختلاف بين ما هو منطوق وما هو مكتوب نابع من طبيعة هذين النشاطين اللغويين من حيث الصياغة والوظيفة المتعلقتان بالمرسِل أو المبلغ . فالواضح أن استعمال عنصر الزمن ليس واحدا في كلا النشاطين اللغويين وذلك لان الكتابة ابطأ من الكلام وبطؤها هذا يتناسب طردا مع السرعة الفائقة للقراءة . فقد اثبت والس تشيف ان متوسط سرعة الكلام (الانكليزي) ١٨٠ كلمة في الدقيقة الواحدة وان متوسط سرعة الكتابة (باليد) أبطأ بعشر مرات من متوسط سرعة الكلام . ويختلف هذا الأمر بالطبع عندما نستعمل الآلة الكاتبة (الراقنة) ، اذ يقترب متوسط سرعة الكتابة هنا من متوسط سرعة الكلام ولكن بأقل من ثلاث مرات بطئا (أي ان متوسط سرعة الكتابة على الآلة الراقنة أبطأ بثلاث مرات من متوسط سرعة الكلام) . وبما ان القراءة نشاط لغوي يرتبط بالنشاطين اللغويين السابقين (أي الكلام والكتابة) ، فانه من المفيد جداً ان نسجل ما توصل اليه تشيف في هذا الشأن . فقد خلص الى أن متوسط سرعة القراءة قد بلغ ٣٠٠ كلمة في الدقيقة . اي ان متوسط هذه السرعة هو أكثر بمرتين من متوسط سرعة الكلام . توضح الصورة(١) متوسط السرعة في النشاطات اللغوية السابقة على النحو التالي :



صورة (١) متوسط سرعة الكتابة والكلام والقراءة .

والس تشيف (ص ٣ – ١٩٧٩) .

يقترح والس تشيف ان اللغة المنطوقة تصاغ من خلال ما دعاه بـ (الوحدات المعلوماتية . . . . Idea Units) التي تنساب على نحو مفاجيء وفي اطار من السياق المنسجم والمتناغم . اضف الى ذلك ان هذه الوحدات المعلوماتية تصاحبها ترددات ووقفات متناثرة ومبعثرة قلما تأتي في تراكيب نحوية متماسكة .

وقد توصل تشيف من خلال تجاربه الميدانية إلى ان اللغة المنطوقة قادرة على توليد حوالي ٣٠ وحدة معلوماتية في الدقيقة الواحدة ، وان الانتقال من معلومة فكرية الى اخرى يستغرق حوالي ثانيتين ، الأمر الذي يدل على معدل السرعة في التفكير العادي وجريانه في الدماغ الانساني .

وسواء أكانت هذه الفرضية صحيحة أم خاطئة فان متوسط سرعة التفكير عملية اعتدنا عليها عند تفكيرنا باللغة نطقا وكلاما وعند تفكيرنا باللغة أيضاً ونحن في حالة الصمت .

هذا بالطبع يختلف عن النشاط الكتابي الذي يأخذ مسارا مختلفا . . وكما أشرنا من قبل فان الكتابة تحتاج الى زمن أطول يبلغ طوله عشر مرات سرعة الكلام . هذه الحقيقة تطرح السؤال التالي : ماذا يمكن ان يفعل هذا الزمن الاضافي في تفكيرنا عندما نكتب ؟ فاذا افترضنا ان هذا الاضافي لا يذهب كله للكتابة فان هذا يعني ان زمنا لا بأس به يذهب للتفكير نفسه وبهذا فان افكارنا من خلال هذا الزمن الاضافي يمكن ان

تُهذّبّ وتُشذّب وتُنقّح قبل ان نعبر عنها كتابة ، الأمر الذي يجعلها مختلفة جداً عن الأفكار التي نعبر عنها بواسطة اللغة المنطوقة . وهذا يعني أيضاً ان هذا الزمن الاضافي في الكتابة يجعلنا « نربط » أو « نوحد » انسياب الأفكار في بنية لغوية منسجمة ومتماسكة ، الأمر الذي لا يمكن ان يتم في اللغة المنطوقة التي تنتج وحدة معلوماتية واحدة كل مرة رابطة بينها وبين الوحدة المعلوماتية الأخرى بحرف العطف .

أما النشاط الكتابي فانه يسمح لنا ان نصوغ سلسلة من الوحدات المعلوماتية الفكرية في بنية لغوية مضغوطة ومتماسكة وذلك من خلال اختيارنا العديد من الادوات الواصلة التي تحكم هذه السلسلة الفكرية وتجعلها أكثر ربطا وانسجاما .

ومما يلفت النظر هنا ان القارىء الذي يسرع سرعة فائقة في القراءة أكثر منها في الكتابة والكلام يستطيع ان يعالج في دماغه سلسلة من الوحدات المعلوماتية الفكرية دفعة واحدة . وهذا يختلف عن السامع (المتلقي) الذي لا يستطيع ان يعالج هذه السلسلة الفكرية الآتية من المتكلم دفعة واحدة بل لابد من معالجة وحدة فكرية معلوماتية واحدة كل مرة على حدة .

هذه الحقائق تجعلنا نستنتج كما يذكر تشيف ان السرعة الزائدة في القراءة تتناسب طردا مع البطء الشديد في الكتابة ، ولهذا السبب فان فان معظم اللغات المكتوبة تملك ما يدعى بـ « تقنيات الربط » (. . . . (Integration Techniques) بالمقارنة مع ما تملكه اللغات المنطوقة والذي يدعى بـ « تقنيات الفك (Fragmentation Techniques)

٢ ــ أمثلة تطبيقية (٣)

اريد أن اعرض هنا محادثة كانت صاحبتها قد تكلمتها نطقا . وقد قُطِّعت طبقا للوحدات المعلوماتية الفكرية التي اقترحها تشيف . وقد طُلِب من المتكلمة ان تكتب هذه المحادثة على الورقة . وبعد ذلك بدأنا بتحليل النصين المنطوق والمكتوب طبقا لفرضيات تشيف المقترحة . ولكن قبل تحليل هذين النصين لا بد من وصفهما حسب الوحدات المعلوماتية الفكرية ، مثال :

أ ــ النص المنطوق (بالانكليزية)

(1) Um ...I was staying with George's Family in ... in Crete ?
(2) ... and um ... we were sitting around you know
(3) ... We were sitting around the dinner table
(4) ...all of them
(5) ... all of us you know .
(6) his his parents

ب ــ النص المكتوب (بالانكليزية)

لقد قامت بكتابة هذا النص السيدة نفسها التي كانت قد قالته محادثة والذي سجل في الفقرة (ا) يتبين للوهلة الاولى ان الوحدات الفكرية المعلوماتية في النص المكتوب جاءت مترابطة مع بعضها بعضا ترابطا سياقيا منسجما لتؤدي وظائف مختلفة :

(٣) الأمثلة التطبيقية الواردة هنا مقتبسة من بحث اللساني الامريكي والس تشيف . لمزيد من الاطلاع على هذه الأمثلة انظر بحثة السابق : (تشيف ــ ص ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٩٧٩) .

(36) while staying with a family on the island of crete

(37) I found that no matter how early I a woke,

(38) my hostess managed to have a plate of scrambled eggs sitting on the table for me by the time I was up and dressed

(39) and at dinner every evening

(40) dessert included a pile of purple seeded grapes.

(41) Now I don't happen to like seeded grapes or Scrambled eggs.

(42) But I had to eat them both.

(43) Because they had been set out - - at great inconvenience to my hosts - - especially for me.

جـ – الترجمة العربية

(٣٦) عندما كنت مقيما مع عائلة في جزيرة كريت

(٣٧) اكتشفت ان ليس هناك كبير اهتمام في استيقاظي من النوم مبكرا .

(٣٨) فالناس الذين استضافوني كانوا يحضرون لي صحنا من البيض المقلي على الطاولة حالما أستيقظ من نومي وألبس ثيابي .

(٣٩) وكانوا كل مساء وعند العشاء يحضرون لي

(٤٠) التحلية التي تحوي رزمة من العنب الارجواني اللون ذي البذرة الواضحة .

(٤١) وعلى الرغم من انني لا أحب البيض المقلي ولا العنب هذا

(٤٢) الا انه كان علي ان آكل كليهما .

(٤٣) وذلك لانهما حُضّرا لي على نحو مرتب بعيدا بعيدا عن متناول المضيفين أنفسهم .

د ـ التحليل

لقياس درجة الربط العضوي في النص المكتوب والمنطوق سأتبع الطريقة التي استعملها اللساني تشيف . سأفترض ان درجة الربط الدنيا تمثل الرقم « ٠ » ، وهكذا كلما اكتشفنا تقنية للربط أو الوصل فاننا سنعطيها رقماً متسلسلا (١ ، ٢ ، ٣ . . . الخ) وبعد ذلك يمكننا ان نحصي عدد تقنيات الربط في النص المكتوب لكي نقارنها مع تقنيات الفك في النص المنطوق .

١ ـ لنقارن مثلا التركيب المنطوق (١) مع التركيب المكتوب (٣٦) . يتبين من المقارنة ان التركيب المكتوب يستخدم اداة الربط الظرفية (While) في بدايته ، وهذا يدل على ان التركيب المكتوب يشكل وحدة معلوماتية غير مستقلة بنفسها بالمقارنة مع التركيب الاول المنطوق الذي لا يستخدم هذه الاداة الرابطة وبذلك فانه يشكل وحدة معلوماتية مستقلة بنفسها (نحويا) .

٢ ـ من تقنيات الربط مثلا ظاهرة الحذف ((deletion) . فالتركيب المكتوب (٣٦) يدل على ان فاعل الفعل (staying) هو محذوف ولكن هذا الفاعل لم يحذف في التركيب المنطوق (١) لذلك فانه ذكر في بداية التركيب (I was staying) .

٣ ـ ومن تقنيات الربط في النص المكتوب ما يسمى ظاهرة الدمج (embedding) فغالباً ما يتم دمج وحدتين

معلوميتين منطوقتين في وحدة معلوماتية مكتوبة واحدة وذلك من خلال التداخل أو الدمج اللغوي المنظم . وهكذا فالوحدتان المعلوميتان المنطوقتان (٩) و (٨) تم دمجهما في وحدة معلوماتية مكتوبة واحدة كما هو الشأن في التركيب المكتوب (٤٠) .

(8) ... And ... Um ... for dessert
(9) ... they brought out this big plate of grapes

↓

(0) dessert included a pile of purple seeded grapes .

وكذلك الشأن في التراكيب المنطوقة (١٤) و (١٧) و (١٨) حيث عبرت السيدة المتحدثة عن عدم حبها للعنب والبيض المقلي في ثلاث وحدات معلوماتية فكرية مستقلة ، فهذه الوحدات المعلوماتية المنطوقة عُبِّر عنها في وحدة معلوماتية مكتوبة واحدة وذلك من خلال تقنية الدمج السالفة كما هو الشأن في التركيب المكتوب (٤١) .

(14) caused it wasn't the kind of grapes that I liked
(17) And I don't like that kind
(18) ... No I hate em.

↓

(41) Now I don't happen to like Seeded grapes or scrambled

ويمكننا من جهة اخرى ان نعبر عن فكرة معلوماتية منطوقة واحدة من خلال مجموعة من الأفكار المعلوماتية المكتوبة والمثال على ذلك التركيب المنطوق (٣١) الذي صاغته صاحبته كتابة من خلال عدة أفكار معلوماتية مجمعة ومضغوطة كما هو الحال في التركيب المكتوب (٣٨).

(31) there were eggs sitting on the table for me.

↓

(38) my hostess managed to have a plate of scrambled eggs sitting on the table for me by the time I was up and dressed.

لقد تبين من خلال رصد تقنيات الربط والفك في النصين المنطوق والمكتوب انها قد بلغت ١٧ اداة رابطة في النص المكتوب بينما انخفضت في النص المنطوق لتبلغ اداتين اثنتين فقط . وبذلك فان نسبة الربط بين النصين هي ١٧ / ٢ .

هذه النتيجة تجعلنا نفترض مع تشيف فرضية ـ اظن انها صحيحة ـ وهي ان الربط الزائد المكثف في النص المكتوب يعود للتأني وللبطء الشديد في الكتابة ، وان البطء في الكتابة يتناسب طردا مع السرعة الزائدة والمكثفة في القراءة . فكما ان الكاتب يملك وقتا كافيا لتوحيد الخطاب اللغوي وربط افكاره في صيغ لغوية متماسكة كذلك يملك القارىء المقدرة السريعة لقراءة هذا الخطاب وهضمه في وقت سريع جداً .

هناك خلاف اساسي اخر بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة يظهر من خلال العلاقات القائمة بين المتكلم والكاتب من جهة وبين المستمع والقارىء من جهة اخرى . فالمتكلم يتوجه عادة بالخطاب الى شخص مستمع يتحدث معه مباشرة وهذا يعني ان هناك معرفة أو شفرة مشتركة بين المتكلم والمستمع . هذه المعرفة أو الشفرة المشتركة يغذيها السياق الكلامي الساخن الذي يجري بين المتكلم والمستمع ذلك لان المتكلم هنا يستطيع ان يتحكم بتأثيرات المحادثة الواقعة على المستمع وان هذا الأخير بدوره قادر على ان يشير باشارات جسمية تدل على انه يفهم الحديث

المنطوق وانه قادر أيضاً على ان يسأل مباشرة من أجل ايضاح مسائل غامضة . وهناك سمة مهمة جداً في هذا السياق يتسم بها المتكلم وهي انه مجبر اثناء الحديث على ايصال ما في ذهنه الى المستمع في طريقة تعكس غنى أفكاره وتجربته الشخصية المتعلقة بسرد تفاصيل الواقع المعقدة . وهكذا فان المتكلم هنا لا يهتم بالسرد المنطقي المنسجم والثابت بقدر ما يهتم بالسرد المتفكك والمتناثر والساخن الذي هو ابن ساعته ووقته . أما في حالة الكاتب فالأمر مختلف تماماً اذ ان قارىء الخطاب المكتوب بعيد عن الكاتب في الزمان والمكان (أي ان عنصر السياق مفقود هنا) اضف الى ذلك ان الكاتب لا يعرف من هو القارىء ، اذ ليس هناك معرفة مشتركة بينهما ، والنتيجة ان الكاتب لا تهمه التجربة الشخصية الفنية المتناثرة بل يهمه ان يكون خطابه منسجما وثابتا ومتماسكا ومنطقيا يمكن الدفاع عنه في كل زمان ومكان كما يذهب الى ذلك أولسون (١٩٧٧) (٤) .

هذه النتيجة التي توصل اليها اولسون (١٩٧٧) تجعل تشيف يقترح مفهومين جديدين في هذا المجال الأول : مفهوم الفك المتبـادل (Involvement) القائم بين المستمع والمتكلم من جهـة ومفهوم الانفصال (Detachment) القائم بين المستمع والكاتب من جهة اخرى وبالطبع ليس كل ما هو منطوق ينطبق على مفهوم الفك المتبادل ،

---

(4) Olson , D (1977) (From utterance to text; the bias of Language in speech and writing)
Harvard Educational Review . 47:3 .

وليس كل ما هو مكتوب ينطبق على مفهوم الانفصال ذلك لأن هذين المفهومين اللسانيين متداخلان في الصفات :

١ – فمفهوم الفك في النص المنطوق يتصف بانه يمكّن المتكلم من أن يتحكم بقناة الاتصال الموجودة بينه وبين المستمع . اضف الى ذلك أن المتكلم يستطيع ان يتأكد باستمرار من صحة عمل هذه القناة على نحو سليم ، ويتأكد بالتالي من ان المستمع يفهم ما يقال له . واذا حصل أي ضجر أو تقاعس من المستمع فان المتكلم يستطيع ان يحثه ويحفّزه على الاستمرار في ملاحظة ديناميكية جريان الكلام والمعلومات الواردة من خلاله .

من الامثلة على هذه الديناميكية المتبادلة بين المتكلم والمستمع ارتفاع طبقة الصوت ونغمته في نهاية التركيب (١) (in .. in crete ?) وعبارة (you know) في التركيبين (٢) و (٥) ومحاولة تذكير المستمع ببعض المعلومات كما هو الشأن في التركيب (١١) .

(you you heard the story when I told the thing)

٢ – يتصف الفك المتبادل بين المتكلم والمستمع بالميل نحو سرد التفاصيل الملموسة (concreteness) والتصويرية (imageability) . يقابل هاتين الصفتين في اللغة المكتوبة صفة الانفصال أي انفصال الكاتب عن المستمع الذي يكتب اليه ليصل في خطابه الى مرحلة من التجريدية (abstract) . لنقارن التركيب المنطوق (٣٠) بالتركيب المكتوب (٣٧) وذلك لتبيان هذه الصفات التي تحدثنا عنها :

(30) no matter what time I got up .

(37) no matter how early I a woke .

أن عبارة (getting up) الفيزيائية هي أكثر حسية وملموسية وتصويريــة من عبارة (awakening) وكذلك الشأن في عبارة (What time) ذات الطابع الحسي الملموس بالمقارنة مع العبارة (how early) ذات الطابع التجريدي المعتمد على علاقة زمن معين بزمن معين آخر .

٣ - تتصف ظاهرة الفك في اللغة المنطوقة بالتفصيل في الخصوصيات (particularity) أي التركيز على حدث معين وبيان مكوناته الزمانية والمكانية والشخصية أكثر من التركيز على مجموعة من الأحداث المتعددة . فالرواية التي كانت تتحدث عن العشاء في النص المنطوق (٣) كانت أكثر خصوصية وتفصيلا من تلك الموجودة في النص المكتوب (٣٩) والتي جاءت سلسلة احداثها دفعة واحدة :

(3) We were sitting a round the dinner table .

(39) at dinner every evening .

٤ - يتسم الفك أيضاً بالتوكيـد على الأفعـال الحركيـة (Action verbs) أكثر من الأفعال الثبوتية (State verbs) أي التركيز على الفاعلين الذين ينفذون حدثا ما أكثر من التركيز على الموضوعات الثابتة التي يُعمل من أجلها . ففي حين نجد في التركيب المنطوق التالي حركية وفعلا وفاعلا .(they brought out this big plate of grapes) فان التركيب المكتوب يعبر عن الفكرة نفسها بصيغة ساكنة وثابتة لا حركية في فعلها وفاعلها :

dessert included a pile of purple seeded grapes)

فكلمة (dessert) في النص المكتوب ليست فاعلا وانما موضوعا وكلمة (included) ليست فعلا حركيا وانما فعلا ثابتا .

٥ – ويتسم الفلك أيضاً بانـــه شخصي (personal) أي ان المتكلم يعرف درجة اهتمامه بالناس الذين يتحدث معهم ويعرف بالتالي العلاقات القائمة بينه وبينهم . ففي التركيب المنطوق (١) على سبيل المثال فان الصفة الشخصية للمتكلم واضحـــة في عبارة (George's family) ولكن هذه الصفة مفقودة في النص المكتوب عندما تكتب الكاتبة فقط عبارة (a family) . وفي التراكيب المنطوقة (٤ – ٧) فان المتحدثة تذهب أكثر من ذلك لتتأكد أن المستمع يعرف الناس الذين يجلسون معه على مائدة العشاء :

(all of them .... all of us you know his ... his parents ... a --nd ... George and me) .

وفي المقطع المنطوق الذي لم يسجل هنا على الورقة فان المتحدثة استعملت تعبيرا شخصيا (his mother ...) بالمقارنة مع التعبير غير الشخصي الذي ورد في النص المكتوب وهو (my hostess)

٦ – آخر صفة يمكن ان تسم ظاهرة الفلك المتبادل بين المتكلم وبين المستمع في النص المنطوق هي التجربة الغنية والمتألقة للمتكلم (experience) . ذلك ان المتكلم أو المتحدث يهتم أكثر من الكاتب بالصفات الفريدة والخاصة لتجاربه الغنية التي مرّ بها وبذلك فانه يقلل من الاهتمام بالمألوف ويركز على ما هو خاص ومتميز في تجاربه . فالمتحدثة عند العشاء وحين يقدّم اليها العنب تتولد في ذهنها صور عديدة من تجاربها الشخصية الغنية . اضف الى ذلك ان عملية

الاتصال وجها لوجه تحثّ المتكلم لايصال تجاربه الغنية بنوع من ألق الحديث وحرارة السياق . وقد فعلت المتحدثة هذا الشيء في التراكيب (٢ — ٢٦) بالمقارنة مع التراكيب المكتوبة المتصفة بالانفصال والتركيز والمتمثلة في (٣٩ — ٤٠) . يتجلى غنى التجربة عند المتكلمة من خلال استعمال تعابير المبالغة الحيّة (exaggerted expression) كما هو الحال في التركيب (٣٥) حيث تقول :

انني أكره البيض المقلي = (Scrambled eggs) (I hate em)

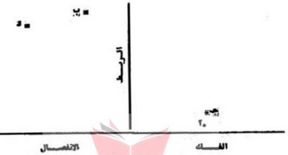
أما في التركيب المكتوب (٤١) فانها تسجل فقط ما يلي :

(Now Idon't happen to like ... Scrambled eggs)

لقد ذكرنا من قبل انه يمكننا ان نحصي المواضع التي تحدث فيها تقنيات الربط والوصل في النص المكتوب وذلك لتأسيس فهرس منظم لهذه التقنيات الرابطة . ويمكننا بالطريقة نفسها ان نحصي المواضع التي تحدث فيها التقنيات التي تستخدم في عملية الفك في النص المنطوق وذلك للوصول أيضا الى فهرس منظم لهذه التقنيات .

لقد تبين من خلال تقصي النصين المنطوق والمكتوب ان المتحدثة استعملت عشر تقنيات للفك في النص المنطوق واستعملت ككاتبة ثلاث عشرة تقنية رابطة في النص المكتوب . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ان هذه السيدة اظهرت درجة عالية من الفك عندما كانت تتحدث واظهرت في الوقت نفسه درجة عالية من الربط والانفصال عندما كانت تكتب . يمكننا ايضاح درجات الربط والفك اللغويين في الصورة (٢) حيث ان النقطة (أ) تمثل النص المنطوق مظهرة ربطا

منخفضا وفكا عاليا . أما النقطة (ب) فتمثل النص المكتوب مظهرة ربطا عاليا وفكا سلبيا منخفضا .



صورة (٢) : (والس تشيف : ص ١٣ ـ ١٩٧٩) .

وعلى الرغم من ان هذه الدرجات المتفاوتة لعمليتي الربط والفك مألوفة في اللغتين المنطوقة والمكتوبة الا ان الأمر ليس كذلك في بقية الحالات التي تظهر تمازجا بين تقنيات الربط وتقنيات الفك سواء أكان ذلك في النص المنطوق أم في النص المكتوب . والمثال على ذلك ان المحاضرة الرسمية لا يمكن القاؤها في أسلوب منطوق مألوف بين صديقين حميمين ، أضف الى ذلك أن العينة (ج) والتي لم تسجل هنا تمثل تمازج تقنيات الربط والفك على الرغم من ان هذه العينة جاءت مكتوبة ، في حين أن العينة (د) تمثل تقنيات الربط خير تمثيل مبعدة كل تقنية يمكن للفك ان يتصف بها (٥) .

(٥) لمعرفة هاتين العينتين أي (ج) و (د) راجع : والس تشيف (ص ١٤ وص ١٥ : ١٩٦٩) .

وهكذا يتبين انه حتى في النصوص المكتوبة نفسها تختلف درجات الربط والفك اختلافا عظيماً . وكذلك الشأن في النصوص المنطوقة التي يمكنها ان تقلّد النصوص المكتوبة وتستعير تقنياتها الى درجة معينة .

٣ – نتائج البحث

ان هذا البحث يطرح نتائج مفيدة ومهمة يمكن حصرها فيما يلي :

اولاً : يدفعنا هذا البحث للنظر على نحو منظم ودقيق في الاستعمالات المختلفة للغة ، وبالتالي يدفعنا لتحديد العوامل التي تسبب هذه الاستعمالات المختلفة .

ثانياً : ينبغي علينا التعرف الى المظاهر المختلفة لعمليتي الربط والفك وذلك لكي نستطيع ان نفهم على نحو أفضل الشروط المختلفة للغة التي تأتي في سياقات زمانية ومكانية واجتماعية وحضارية مختلفة .

ثالثاً : هناك علاقة واضحة بين هذا النوع من البحث وبين البحث المتعلق باكتساب اللغة عند الأطفال ذلك لان المراحل المبكرة لاكتساب اللغة عند الأطفال تدل على ان اللغة المكتسبة هي لغة تتصف بانها تستخدم تقنيات الفك الى أقصى درجاتها ، ثم انها لغة عفوية ساخنة يعمل السياق فيها عملا مهما لتقريبها من صفات اللغة المنطوقة عند الكبار . أما تقنيات الربط فان الطفل يتعلمها على نحو تدريجي ، اذ ان هناك تقنيات للربط لا يمكن ان يتعلمها الطفل الا عندما يتعلم الكتابة .

وهكذا يمكن لمناهج تعليم الكتابة وتدريسها ان تستفيد من تقنيات الربط في النصوص المكتوبة .

رابعاً :واخيراً هناك نتيجة مهمة جداً يطرحها الأمريكي اللساني والس تشيف في صيغة هذا السؤال :

هل تفقد اللغات التي لم يتم تدوينها (كتابتها) بعض تقنيات الربط التي أسستها اللغات التي دُوّنت وكُتبت منذ زمن بعيد ؟ الواقع ليس عندنا أية فكرة واضحة فيما اذا كان الجواب عن هذا السؤال بنعم أو لا .

نأمل ان يبين البحث في المستقبل فيما اذا كانت تقنيات الربط المعروفة في الكتابة تؤثر على العملية اللغوية الجارية في الدماغ البشري في طريقة ما . واذا كان ذلك كذلك فكيف ؟

←

مراجع البحث :

1 - Chafe, W (1980) The pear Stories : cagnitive, cultural and Linguistic aspects of narrative production .
Norwood, N.J : Ablex publishing Co .

2 - Chafe, W (1979) (Integration and InvoLvement in Spoken and Written Language) Draft of a paper presented at the 2nd congress of International Association for Semiotic Studies, Vienna .

3 - Chafe, W (1970) Meaning and the Structure of Language. The University of Chicago press.

4 - Olson, D (1977) (From utterance to text : the bias of Language in speech and writing.) .
Harvard Educational Review . 47:3 .

5 - Tannen, D (1982) Spoken and Written Language :
Exploring Orality and literacy . Norwood, NJ : Ablex .

٦ — الوعر ، مازن (١٩٨٩ — الفصل الثاني) دراسات لسانية تطبيقية .

دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر — دمشق .

★ ★ ★

ابـــــداع

شعـر

نشـــيد الحجـارة والجـلّنـــار

سمـــيرة الكسراوي

قصـة

اللعبـــــــة

محـمّد كامـل الخطيب

شعر

نشيد الحجارة والجلنار

سميرة الكسراوي (*)

(*) تعريف موجز بالكاتبة :

- مولودة في ٢٥ جوان ١٩٥٧ بالجمهورية التونسية .
- نشر لي أكثر من ٣٠٠ عمل أدبي بالصحف التونسية والعربية .
- صدر لي ديوان شعر بعنوان « بلاغات شعرية في الرفض والحرية » المنشأة العامة للنشر ليبيا ١٩٨٢ .
- صدر لي ديوان شعر ثان بعنوان « ملحمة الموت والميلاد في شعبي » تونس ١٩٨٣ .
- لي عدة مخطوطات شعرية ونثرية تنتظر النشر

أيتها الصّمت البنفسجي
انتشر في مدى الأرض
لغة قادمة من آلاف السّنين
صمتاً يتحوّل في جسد المتعبين
لغةً قاتمة
لمّ حقلاً من شذى الجلّنار
أيّهذا الحزن العظيم
عبرَ مدارات القرون المظلمة
تتشكّل فينا
لحظةً هائلة
لحظةً ينفجر فيها صمتنا
ونمدّ أيدينا للكواكب فرحين
نفضح اللّغة القديمة
ونفتّش في ظلّ الأرض عن ظلّ لنا
ونفتّش في ظِلّ القبر عن شمسٍ
لأمواتٍ لنا
ظلّوا أحياء بلا شمس
بلا فرح

ظلّوا أمواتاً بلا شجر يغطّيهم
بلا ضوء
بلا جنّات تحييهم
وكنّا كما كانوا . . .
ثمّ أنقسمنا كما تنقسم الخلايا
وانكسرنا كالشظايا
وتكرّر وجهنا الواحد عبر ملايين السّنين والمرايا
وتكرّرنا كالهزيمة في فم الدّهر
ومررنا عبر جسرٍ من دموعٍ ودماء
ألماً هائلاً
يتشكّل لحظةً للإنفجار
من عصرِ العبودية إلى عصرِ الثّورات الصّاخبة
ونمدّ أيدينا للسّنابل والمعادن والبحارْ
كي نقطف وردة الشّمس اللاهبة
ورحيق الجلّنار .

. . .

قد تحلم الوردة الحالمة بالمطرْ
قد تهمس لعيون القمر

من خطوهم تنبت سنبلة
من جرحهم يعلو الشجر
من حقدهم يهطل سيل الحجرْ .

. . .

توغـّل . . توغـّل بعيدا في مدى التـّاريخ
كي نستوعبَ منكـّر العبارة
وأدخل . . أدخل عميقاً في مدى الأرض
وأقتلع منها الحجارة
وأرحل . . ارحل فسيحاً في مساحات الزّمن
حاملاً رايات نصرك والبشارة
ياجسدَ الفلسطيني ياهذا المنارة
وسطَ الظلمة يسبح هذا العصرْ
لولا دمكَ قد أضاء الحجرَ النّاعس فوقَ التّراب
وخطاكَ حملتكَ
إلى حيث تكون الإنفجار
لا اليانكي المريض
لا أساطيل الغزاة
تملك الآن القرار

دملُكَ الفراشةُ والغمامةُ
ارخبيلُ الغضبِ القادمِ فينا
من برتقالِ الإنتصارْ
من لسعةِ هذي الأساطيل
التي سكنت بعضَ البحارْ . . .
من شوارعنا . . .
من أزقّةِ الموتى والأحياءِ فينا
من باعةِ الخضرِ الجياع
من المتسوّلين على الرّصيف
حقّهم في الحياة
نمتدُّ من زمنٍ قديمٍ إلى زمنٍ قديم
نمتدُّ من أوّلِ الشّهداءِ فاتحةَ هذا القرن
إلى آخرِ الشّهداء
في قافلةِ الإستقلالِ المزيّف
دماك الفراشة والغمامة
يملكُ الآن القرارْ
ياأحمدُ الطّفلُ البطل
لم يبقَ سواكَ
ليجيدَ درسَ اللّغةِ والعبارة

وحينَ تغادر الصفَّ
تتقنُ درسَ الحجارة
في أزقّةِ عكّا وغزّة وكلَّ الخيامْ
حينَ تغطّي الدّموع سماءَ الكلامْ
وحينَ يلفّ الدّخان وجه الغمامْ
وينتشر الجندُ على وجنتيها
تستبدلُ الخذروفَ بالمولوتوف
وتلقي رأسكَ المتعبَ بين يديها
ستصطاد لها لؤلؤة من جيدِ القمرْ
وحينَ يمرّ الرّصاص
فاصلاً بينكَ والوطنْ
ينمو البنفسج في قلبك . . . والشجرْ . .
متلعب بالحجرْ
ثمّ تبصقُ في وجه الجنودِ
دمعتكَ . . وسواقي المطرْ .

. . .

حملتُ خطايَ إلى دمي
حملتُ القلبَ على الحجرِ
وقلتُ

لا سماءَ سوى سمائي
ولا أرضَ سوى أرضي
ولا حلْمَ سوى حلمي
تقدّم يابرتقالَ يافا
ويا نجمةَ داوود إنطفئي
سأشعلُ هذا الهواءَ عليكم
وألقاكُم على حجري
جثة التّاريخ ومزبلةً في مراحله . . .
سأشعلُ هذا الهواءَ عليكم
ومن دمي تهطلُ غيمةُ المطرِ
سألقاكم، نجمةُ داوودَ إنطفأتْ
ودولتكم رماداً
أسفلَ المنحدر .
استيقظ الحجر
فأستلقوا على الأرض بدالته وتجمّدوا
عربُ الذّهب / عربُ الخطب / عرب الكراسي والخشب
عربُ الحطبْ
لكنّما نارُ الحجارة والغضبْ .

ستلتهمُ هذا الحطبْ .

• • •

أحتاجُ الآن مسطرةً فقط
كي أخطَّ الفاصلَ
بينَ دقائق الموتِ العنيفةِ
وهدوء الرّخامْ
أحتاجُ الآن مسطرةً فقط
كي أرسمَ الجبلَ القاطعَ
بينَ الخيانةِ والسّلامْ
أحتاجُ الآن الحجرَ الشعبيّ
حجرَ الغبارِ والخيامْ
كي أشرحَ الفارقَ بين بيوتِ الطّين
وسلالم الذّهب وأبواقِ الكلامْ
نحتاجُ الآن ما يحتاجه التّاريخ
حينَ تدقّ نواقيس المرحلة
من هنا مرّ الشّهيد
ليكونَ جوابَ المسألة
من هنا مرّ الشّهيد

كي يسألنـا علينـا
كي يسأل غابات البنفسج فينا
هلْ نحن نيامٌ
أم هل سقطنا وأضعنا البوصلة
من هنا مرّ الشّهيد
كي يسألنا علينا
كي يسألَ غابات البنفسج فينا
وزهور الحقدِ
عن موعدٍ لاغتيالِ المهزلة

. . .

ها وجهنا الواحدُ
يتكرّر عبر ملايين السّنين والمرايا
ألماً هائلاً
يتشكّل لحظة للانفجارْ
من عصرِ العبودية إلى عصرِ الثّورات الصّاخبة
ونمدّ أيدينا للسّنابل والمعادن والبحارْ
كي نقطف وردة الشمسِ اللاهبة
ورحيقَ الجلّنارْ .

الكاف . جويلية ١٩٨٨

قصة

اللعبة

محمد كامل الخطيب

كانت الساعة تقارب الثانية عشر ليلاً ، وكان ضوء البيت يبدو مطفأً . تمتم بينه وبين نفسه « حتماً هما نائمتان » واقترب من باب البيت . كان ضوء القمر ساطعاً ، فرأى بوضوح في الممر احواض الورد المتفتح « انهما تسقيان الورود ، تتسليان » قال في دخيلته وهو يعبر الممر المعرش ، بينما رائحة ياسمين نفاذة تملأ الجو « هل ادق الباب أم افتحه ؟ اذا فتحته فستخافان أكثر » ناقش نفسه بينما هو واقف أمام الباب يضع يده اليسرى في جيب سترته وفي اليمنى يحمل كيسا بلاستيكيا ، ولبرهة ، خطر له أن يضع الكيس على الباب ويعود من حيث أتى . نظر الى ازهار

الحديقة وأشجارها ، فلاحظ ثمار المشمش الناضجة ثم نظر عبر الحقول ونحو السماء فرأى القمر بدراً ساطعاً ، ورأى اخضرار الحقول الجبلية تحت الضوء القمري . نظر إلى ساعته فرأى العقربين يتطابقان فوق رقم الثانية عشر ، وعندها دق على الباب ثلاث دقات خفيفات ، فسمع أصوات حركة استيقاظ ، ثم صوتا ناعسا ، خائفاً ، يجيب :

— من ؟ . . من ؟

— نجم ... نجم ... أنا نجم يا فهيمة ... افتحي .

رأى ضوءاً يشعل ، ثم انفتح الباب بسرعة عن صدر مكشوف ويدين ممتدتين للعناق .

— تعال إلى المطبخ . . هي نائمة . . اتعبتني قبل أن تنام .

قالت فهيمة وهي تسحبه من يده اليمنى ، بينما يده اليسرى ما تزال مشغولة بالكيس البلاستيكي . مشى وراءها كالمستسلم وسمعها تسأله :

— متى وصلت ؟

— الآن . . . كما ترين .

— اقعد . . اقعد . . ها كرسي . . هل تأكل ؟

وضع الكيس على الأرض ، وقعد ، بينما جالت عيناه في نظرة خاطفة على جدران المطبخ وأنحائه .

— لا . . شكراً . . لست جائعاً . . كيف حالها ؟ كيف حالك أنت ؟

ـ شيطانة . تزداد ملعنة ، تذكرك كثيراً .

كانت تقتعد كرسي قش صغيراً ، ترتدي منامة واسعة قصيرة ، ومن فتحة المنامة بان صدرها الأبيض ونهداها . مد يده إلى صدرها ، فأحس دفء ما بين النهدين ، بينما كانت هي تضع يديها على كتفيه وتنظر إلى وجهه .

ـ ذقنك طويلة . . عادتك . .

لاحظت مبتسمة ، ابتسم وسألها :

ـ تعذبك كثيراً ؟

ـ ملعونة . . . ملعونة . . تعذبني كثيراً وقت الأكل ووقت النوم .

ـ تخرج من البيت كثيراً ؟

ـ هي تتمنى لكني أخاف عليها . . حيات . . حجارة ، أشواك . . تعرف . . .

وضع يده الثانية حول رقبتها ، بينما أخذت عيناه ترنوان إلى عينيها السوداوين .

ـ وأنت . . . كيف حالك ؟

سأل وظلال أسى واشتياق شفيفين تزيد في رقة صوته ، بحيث بدأ صوته وكأنه نداء أكثر مما هو سؤال .

ـ مليحة . . افتقدك كثيراً . . مشتاقة لك . . لا تقدر . . . كم . . .

– العسكرية صعبة هذه الأيام يا فهيمة . . الحرب قد تقوم في أي لحظة . . والإجازات ممنوعة منعاً باتاً

قال وكأنه يعتذر عن ذنب يرتكبه عامداً .

– اجازتك طويلة ؟

سألت ورنة أمل ممزوج بالخوف تلون صوتها ، لكنها رأت ارتباكاً في عيني نجم وهما تهربان من عينيها .

– ليست طويلة . . ليست اجازة . .

صمتا معاً ، وعادا يحدقان في عيني بعضهما ، بينما كانت ايديهما قد اسبلت في الفراغ جانب الجسد وكأنها زوائد ثقيلة لا قيمة لها ولا عمل .

– يا فهيمة . . لن أطوّل . . قطعتنا منتقلة إلى الجبهة . . وقد مررنا في طريقنا قرب القرية ، فطلبت اذن ساعة ، وبعدها ألحق القافلة في محطة الاستراحة .

– ساعة واحدة ؟

تساءلت مندهشة ، فتابع :

– الضابط طيب معي . . أعطاني السيارة .

– ساعة واحدة . . ساعة بعد أربعة أشهر يا نجم ؟ ؟

– ليس ذنبي يا فهيمة . . الظروف صعبة هناك مجندون لم يأخذوا اجازة منذ عشرة أشهر . . . الاستنفار شديد وطويل . . .

ـ ألا تريد أن تراها ؟ . . هي نائمة .

قالت فهيمة بلهجة يائسة .

ـ سأراها . . سأراها . .

ـ أوقظها ؟

وفكر : ما الفائدة من ايقاظ الطفلة . . لن تتعرف علي بسرعة بعد استيقاظها في الليل ، ربما خافت .

حدق برهة إلى فخذ فهيمة الأبيض ، ثم وضع يده عليه ماسحا اياه باتجاه منطقة التقاء الفخذين ، صمت برهة ثم قال :

ـ لا توقظيها . . لا . . لا . . ليس هناك وقت . . تعالي . . سأراها .

أمسك بيده اليمنى يد فهيمة ، وباليسرى تناول الكيس ، ثم سحب فهيمة باتجاه الغرفة . كانت الطفلة ترقد مطمئنة . نظر في وجهها ورغب في أن يقبلها لكنه خاف أن يوقظها . مد يده متمهلا حتى لا تسمع نأمةً لأي حركة ، وفتح الكيس ثم اخرج علبة كرتون صغيرة ووضعها على السرير قرب رأس الطفلة . اشارت فهيمة بيدها اشارة تعني « ما هذا » ؟ ، فوضع نجم سبابته على فمه باشارة تعني « صمتا » . تأمل وجه الطفلة النائمة مليا ثم سحب بيده اليمنى زوجته خارج الغرفة عائدين إلى المطبخ ، بينما حمل باليسرى الكيس البلاستيكي ، وعندما دخلا المطبخ فتح الكيس ثانية وقال :

ـ هذا لك . . بلوزة بيضاء . . . أنت تحبين الأبيض .

— شكراً . . شكراً . .

كانت تريد ان تقبله ، لكنها لا تعرف لماذا لم تجرؤ على المبادرة هذه المرة ، سادت برهة صمت مرتبك قطعها قائلا :

— ستفرح باللعبة ؟

— ستفرح كثيراً . . غريب ، الأطفال لا ينسون شيئاً .

— أعرف ذلك . . ولهذا جئت باللعبة . . لا أريد أن أكذب عليها .. اتذكركما كثيراً .

— ونحن نتذكرك . . دائماً تسألني عنك وتقول : متى سيأتي لي يا بابا باللعبة ؟

— صحيح ؟

قال بابتهاج ، فضحكت وقالت :

— مرة قالت لي متى يأتي بابا واللعبة . . أحياناً تتحدث عنك وعن اللعبة كشخصين تعرفهما وتشتاق لهما .

— ولعبها الأخرى . . ؟

— عندها ألعاب كثيرة . . خالتها تشتري لها ألعابا كثيرة ، وعمها محسن . . لكنها تريد لعبة بابا . .

— تريد بابا أم اللعبة ؟

قال ضاحكاً ، ثم أضاف :

ـ ماذا ستقول غدا عندما ترى اللعبة ؟

ـ ما رأيك بفنجان قهوة .

سألت وكأنها تريد ان تشترك مع نجم في فعل شيء ما .

ـ لا داعي للقهوة . .

قال وتناول الكيس ، ثم اخرج منه كيسا ورقيا .

ـ نسيت معي كرز . . اغسلي صحن كرز . .

ـ كرز ! ؟ آه حزيران ، هذه أيام الكرز ... مشمشتنا حاملة هذا العام .

قامت وغسلت الكرز . وضعت الصحن بينهما وأخذا يأكلان .

ـ كنت أتمنى أن تأكل . . طبخت اليوم فاصولية خضرا . . أعرف . . تحبها . .

صمتت برهة ثم سألت وهي تمد يدها إلى صحن الكرز :

ـ لماذا لم تخرج اللعبة من العلبة أتراها بعد ان تستيقظ ؟

ـ دعيها تفتحها هي . . ماذا ستقولين لها . . من أحضر اللعبة ؟

ـ لا أعرف . . ربما أقول لها أتى بها العصفور .

ـ قولي لها اتى بابا .

ـ ولكنها ستسألني عنك . . لن تصدق . . ماذا سأقول لها . . ؟

نظر إلى عينيها ، ونظرت إلى عينيه ، حدقا مليا في عيون بعضهما . كانت عيناها تلمعان وهما ترنوان إليه ، وكانت عيناه تبرقان وهما تجولان ما بين عينيها ونهديها العامرين وفخذها الناصع البياض .

وضع يده على بياض فخذها وبعد برهة رفع يده الثانية ونظر إلى ساعته .

ـ أنها الواحدة . . تأخرت . . ستبتعد القافلة . . يجب أن ألحقها قبل أن تبتعد .

ـ صحيح ؟ . . ألا تستطيع أن تبقى ؟

ـ أتمنى . . تعرفين . . سأحاول أن أحصل على اجازة عندما . .

وقف ، فوقفت معه كمن يودع ضيفاً ، نظر في عينيها ونظرت في عينيه ، وكانا كالمستسلمين لما تجري به الأحداث ، وحتى يقول شيئا يتشاغل به عن حرج الصمت ، قال على الباب :

ـ لم تقولي لي . . ماذا ستقولين لها عندما تفتح العلبة . . ؟

مشت معه إلى خارج الباب باتجاه السيارة . كانت صامتة ؛ يدها في يده ، تتذكر الحديث الذي دار بينها وبين الطفلة منذ يومين . فتح باب السيارة وجلس وراء المقود . أبقى الباب مفتوحاً بينما كانت فهمية تقف إلى جانبه ، قال :

ـ لم أقبلها حتى لا أوقظها ، تعالي لك قبلة ولها أخرى عندما تستيقظ .

– منذ يومين سألتني عنك وعن اللعبة ، قالت لي متى يأتي بابا واللعبة سألت .

قاطعها سائلا :

– صارت تفسر الكلمات جيدا ؟

– تنطق بشكل مضحك . . قالت لي متى يأتي بابا . . هل سانتظره حتى أكبر . . اذا كبرت هل يأتي بابا باللعبة ؟

كان قد أدار محرك السيارة . ابتعدت عن الباب ليغلقه ، ووقفت قرب النافذة ، ثم اتكأت عليها وهي تتكلم في هدأة الليل وتحت القمر الساطع ، بينما رائحة ياسمين البيت تملأ الجو الليلي العذب .

– ابتعدي . . سأمشي .

قال بحزم بدا لها قاسيا .

– سأبتعد . . سأبتعد . . الله معك يا نجم .

قالت بأسى ، وصمتت فترة ثم سألت :

– اذهب . . اذهب . . لكنك لم تقل لي . .

وصمتت .

– لم أقل لك . . ماذا . . ؟

– لم تقل لي ماذا سأقول للطفلة عندما تستيقظ ، لم تقل لي ماذا سأقول للطفلة اذا . .

وتحركت السيارة مبتعدة يعلو صوت محركها على صوت فهيمة التي صمتت فترة رأت خلالها أضواء السيارة تبتعد حتى غابت كنجم يهوى في الليل ، ثم سمعت صوت السيارة يتخافت إلى أن أختفى في صمت الليل وضوء القمر وخضرة الجبال وشذا الياسمين ، عندها أسبلت يديها وأطرقت رأسها ، ثم مشت باتجاه بيتها ، وهي تتمتم بصوت مسموع وكأنها تحدث نفسها تتمة ما كانت تفكر به :

– اذا . . اذا . . لم ترجع أبداً يا نجم ؟ ؟

١٩٨٧

* * *

من وزارة الثقافة صدر حديثاً

الضياع والمجتمع الصناعي

من الفكر الاقتصادي (١١)

تأليف
فرانسوا بيرو

ترجمة
د. ناجي الدراوشة

★ ★ ★

الاقتصاد العربي

منجزات الماضي وآفاق المستقبل

من الفكر الاقتصادي (١٢)

تأليف
يوسف ا. صايغ

ترجمة
د. عز الدين جوني

آفاق المعرفة :

نحن والاستشراق:

علاقة إشكاليّة

بقلم : د. عبد النبي اصطيف

نجيب محفوظ

وإهمال الأدب القديم

بقلم : د. كمال نشأت

نافذة

على العالم

ترجمة وإعداد : كمال فوزي الشرابي

نموذج الحرب

في القصّة الفلسطينية القصيرة

أحمد حسين حميدان

نحن والاستشراق:

علاقة اشكالية (*)

بقلم: د. عبدالنبي اصطيف

يحسن بالمرء بادىء ذي بدء أن يقوم بشيء من تحديد لموضوعه فيشير إلى الصوى التي تجدد ميدان بحثه حتى يساعد متلقي نصه على رسم آفاق توقعاته على نحو أكثر دقة من ناحية ويحفزه على مسايرة هذه الآفاق بكل ما يمكن أن يحمله استشرافها من رضى أو خيبة من ناحية ثانية، ويتحلل، بوصفه منتجاً لهذا النص من تبعات سوء الفهم الذي تستدعيه موضوعات اشكالية لتوها كالاستشراق.

١- أول ماينبغي توضيحه هو أن المقصود بمصطلح «الاستشراق» Orientalism الذي سيستخدم في ثنايا هذا البحث «كل معرفة ينتجها الآخر Other عن

(*) القسم الأول من بحث مكون من ثلاثة أقسام قدم إلى المؤتمر العالمي «آفاق العلاقات الثقافية العربية الأوروبية: الماضي - الحاضر - المستقبل» الذي عقد في جامعة غرناطة بين ٤ - ١٢ من شهر اذار ١٩٩٠ بدعوة من المعهد المصري للدراسات الإسلامية ومعهد التعاون الدولي مع العالم العربي في مدريد، وقرئت خلاصته في الجلسة الختامية.

الوطن العربي بغض النظر عن صورتها التي تتخذها لنفسها . و معنى هذا أن الاستشراق يشمل ما أنتجه هذا الآخر من إنشاءات discourses (سياسية و اعلامية و تاريخية وجغرافية وانتروبولوجية وادبية ونقدية و سيرية و بيلوغرافية) وأعمال فنية (موسيقية وتشكيلية) . ولما كانت قسمة كهذه للمعرفة الاستشراقية (إلى إنشاءات مختلفة وأعمال فنية) تقتضي من الناظر فيها درجة دنيا من التخصص البحثي فان الاهتمام سوف ينصرف في هذا البحث إلى الانشاءات المعرفية الاستشراقية دون الأعمال الفنية ، التي ينبغي أن تترك لمتخصص في الموسيقى و الفنون التشكيلية و العمارة و تاريخها ، خبير بفصول المواجهة العربية ـ الغربية يستطيع أن يتفحصها بعين الخبير ويحكم عليها حكم العالم المتبصر بظروف انتاجها والواعي بوظائفها المختلفة التي توختها المجتمعات الغربية المنتجة فيها . و ربما كان من الموضوعية و الصدق في آن معا أن ينوه بداية بأن الصورة المقدمة للاستشراق في هذا البحث ستكون محكومة على نحو أو آخر بأمرين .

١) ـ بالإنشاءات الاستشراقية التي تيسر لصاحب هذه السطور الاطلاع عليها خلال العقدين الاخيرين في أثناء إقامته في الغرب للتحصيل العلمي و قبلها و بعدها ، وهي على أي حال ليست مادة محدودة بسبب طبيعة مواجهته لهذا التقليد التي شملت فيما شملت الاحتكاك الشخصي بمنتجي هذه الإنشاءات من أفراد و مؤسسات ، و المتابعة الدائبة لمختلف ما ينتجه كلاهما ويبثه عبر قنوات نشر المعرفة الاستشراقية كالكتب ، و الدوريات ، و السلاسل العلمية ، و الترجمات و حلقات البحث ، و المنتديات ، و المؤتمرات ، و الأحاديث الاذاعية و

التلفزيونية ، و المشاركة المعتبرة فيها(١) ؛ و الكتابة و الحديث عن بعض ذلك ومناقشتة ، وتقويمه،في مرافق النشر العربية المختلفة(٢) إضافة إلى الإذاعة والتلفزيون في سورية (٣) .

٢) – بطبيعة تخصصه و هو ميدان النقد المقارن (العربي و الاوروبي) إذ أنه معني أساسا بالفكر الأدبي العربي في القرنين الأخيرين بشكل خاص ، و بطرق تشكله ، و عوامله ، و مكوناته الداخلية و الخارجية ، و معنى هذا أنه على بينة من واقع المواجهة الشاملة بين العرب و أوربا ، وواع لمختلف وجوهها وعقابيلها ، وظروفها و مدى تأثيرها الكبير في عملية إنتاج الإنشاءات الاستشراقية من جهة و الانشاءات العربية من جهة أخرى ،ولكنه ربما كان أكثر اهتماما بالدراسات المتصلة بالشؤون الثقافية و الأدبية منه بسواها ، وذلك أمر طبيعي إذ لا يمكن للتكوين الثقافي للباحث أو لمجالات عمله إلا أن يترکا أثراً ما في اختياره لمادته أو في طريقة تناوله لها .

١ – ب :

أما ثاني ما ينبغي تبينه لأي ناظر في هذه الإنشاءات الاستشراقية فهو أنها تشكل تقليدا ثقافيا (يتمتع بحد أدنى من التماسك و الانسجام الداخلي والعراقة النسبية) ارتبطت نشأته بحاجات مجتمع الآخر The Other في مواجهته للمنطقة العربية عبر القرون وبالوظائف المختلفة التي أسندت له في عملية المواجهة هذه ، و بالتالي فان هذه الانشاءات يجب أن تدرس في سياق من هذه الوظائف و تلك الحاجات و تطورها المحفوز بوقائع المواجهة العربية – الأوربية و كذلك

فانها ينبغي أن تعامل على أنها إنتاج خارجي An Outsider يكتب بوصفه خارجيا مهما كانت درجة ارتباطه بالوطن العربي وثيقة . فالمستشرق باحث مدين بتكوينه الثقافي لمجتمعه ، يمارس — عندما ينتج أية معرفة عن الوطن العربي — دوره الاجتماعي الذي أسنده اليه هذا المجتمع ، و يقوم بالوظيفة التي اختارها لنفسه ضمن هذا الدور ، و هو لذلك يتوجه إلى هذا المجتمع بنتاجه ، و ينتظر صدى معينا له ماديا أو معنويا ، و بالتالي فان هذا المجتمع هو الذي يرسم آفاق التوقعات التي تحفز إنتاج إنشاءات المستشرق . صحيح أنه قد يلبي هذه التوقعات وقد يحبطها ، ولكنها ستظل ماثلة في ذهنه في أثناء عملية الإنتاج و ستترك آثارا معينة فيما ينتجه ، ومع أن المرء لا يمكن أن يستبعد تماما دورا للإرادة الفردية في تحدي ما تفرضه أية مؤسسة ثقافية من قيود و أنظمة و أعراف و معايير و قيم و إجراءات إلا أنه من جهة أخرى لا يستطيع أن يبالغ كثيرا في الهامش المحدود و المتيسر لهذه الإرادة ، صحيح أنه يمكن أن يتجاوز قليلا «الرقص في السلاسل» و لكنه لا يمكن ان يبلغ اجتراح المعجزات ، فزمن المعجزات انتهى و العمالقة قلائل في زمن سيادة المؤسسات . ذلك أن ميادين المعرفة و التعلم ، كما يشير إدوارد سعيد بحق ، تخضع لضوابط محدودة و لفاعلية تأثير عليها من «المجتمع و التقاليد الثقافية و الظروف الدنيوية ، و المؤثرات التي تمنح الثبات كالمدارس ، و المكتبات ، والحكومات ، » وأن كلا من نمطي الكتابة المتفقة و التخيلي ليس حرا أبدا ، بل هو محدود في صوره ، و افتراضاته ، و نياته ،(٤) صحيح أن إمكانيات العمل متاحة في الثقافة لنقل عظيم

أصيل ليست أبدا دون حدود «ولكن» الموهبة العظيمة تشعر باحترام إيجابي سليم لما انجزه الآخرون قبلها ، و لما يحتويه حقل الدراسة الذي تعمل فيه »(٥) .

و هكذا فان المرء يميل إلى تأييد سعيد فيما ذهب اليه من أن :

«اعمال الأسلاف ، والحياة المؤسساتية لميدان من ميادين البحث، و الطبيعة الجماعية لأي مشروع متفقه ، تميل . . . إلى تقليل تأثير إنتاج الباحث الفرد . . وأن ميدانا كالاستشراق ليمتلك هوية تراكمية وجماعية هوية ذات قوة خاصة في ضوء ارتباطه بالمعرفة التقليدية (الدراسات الكلاسيكية ، الكتاب المقدس ، فقه اللغة) ، و بالمؤسسات العامة (الحكومات ، و الشركات التجارية ، و الجمعيات الجغرافية الجامعات) ، وبالكتابة التي يحدد طبيعتها الجنس الادبي الذي تنتمي إليه (كتب الرحلات ، و كتب الاستكشاف ، و الاستيهام الوصف الغريب المدهش) .–وقد كانت النتيجة بالنسبة للاستشراق تبلور نوع من الإجماع : إذ بدت أشياء معينة و أنماط معينة من التقريرات ، و أنماط معينة من الأعمال ، صحية في نظر المستشرق و قد بنى هو عمله و بحثه عليها ، ثم ضغطت هي بدورها بشدة على كتاب و باحثين جدد»(٥) .

لقد غدا الاستشراق بهذا الثقل التراكمي الهائل «نهجا من الرؤيا و الدراسة ، و الكتابة المنظمة المقننة (أو المشرقنة) ، تسيطر عليه الضرورات الحتمية و المنظورات و الأهواء العقائدية ، الملائمة ظاهريا للشرق . فالشرق يدرّس ، و يبحث ، و يدار ، و تصدر

عليه الأحكام بطرق معينة خفية محترسة(٥)» بوحي من هذا التقليد العريق و المتماسك . و بعبارة أخرى ان الإنشاءات الاستشراقية التي أنتجها ، وينتجها ، وسينتجها ، المستشرقون الأفراد، هي في نهاية الأمر ، نتاج مؤسسة كاملة خلقتها المجتمعات الأوربية للتعامل مع الشرق (بما فيه الوطن العربي) ـ «التعامل معه باصدار تقريرات حوله وإجازة الآراء فيه ، وإقرارها ، وبوصفه وتدريسه والاستقرار فيه(٦)».. وهذا النتاج بالنسبة للعربي ، المقيم في الوطن العربي بشكل خاص، يتجسد أساسا في هذا الكم الهائل(٧) من الكتب التي تنطوي على معرفة لها (مصداقيتها وتماسكها ومرجعيتها) موضوعها هو نفسه ، تاريخه وتراثه ، وثقافته ، وأدبه، ولغته، ومجتمعه، واقتصاده، وشؤونه ماجل منها وما صغر ، يتمثل بهذه المكتبة التي لا سبيل لأي باحث داخلي (من العرب) Insider أو خارجي (من غير العرب) Outsider أن يتجاهلها في رحلة تكوينه الثقافي . إنها أشبه ما تكون بمحطة متحركة متنامية لاغنى للمرء عن التوقف عندها باستمرار و التزود منها لمتابعة رحلة الكشف ، و زيادة الآفاق الجديدة ، و ليس ثمة من حاجة بالمرء إلى الإشارة إلى دور هذه المكتبة في تكوين الكثرة الكاثرة من مثقفينا معرفيا و فكريا و ثقافيا ، فنحن قوم مستهلكون للمعرفة بوجه عام ولا ننتج منها إلا القليل ، حتى تلك المعرفة المتصلة بأدبنا ولغتنا وثقافتنا وتاريخنا و تراثنا و مجتمعنا ، و كل شأن من شؤوننا لا نكاد ننتج منها ما يكفي أو يليق ، وهو على أي حال اقل مما ينسجم وحجم إسهام أجدادنا من جانب ، أو حجمنا الحالي في العالم المعاصر .

فماذا عن علاقتنا نحن العرب بهذه المؤسسة التي يشير إليها عنوان البحث ؟ ماذا عن «نحن» عن «الاستشراق» ؟

٢ ـ علاقة إشكالية :

٢ ـ ١ ـ نحن :

أما نحن فأمة عريقة تتمتع بجميع شروط الوحدة والقوة والفاعلية والقدرة على معاودة الإسهام الحضاري الذي عهده عنها العالم الوسيط وعالم عصر النهضة ، ولكنها اليوم أمة مفككة مجزأة قواها موزعة على كيانات تنوف على العشرين لكل منها أوضاعه وظروفه وحدوده ونشيده الوطني وعمله ومشكلاته وعلاقاته ، وعلى الرغم من أن عدداً من هذه الكيانات قد خطا مؤخراً خطوات واعدة نحو تعزيز الروابط القومية فيما بينها من خلال مجالس متعددة ، إلا أن المرء يلاحظ أن لبعض هذه الكيانات من العلاقات الخارجية مع بعض الدول المجاورة ما هو أوثق من علاقاتها مع كيانات مجلس ما غدت عضوا مؤسسا فاعلا فيه .

وهي كذلك أمة تحاول النهوض مما هي فيه من تخلف تنتمي إليه الدول النامية التي تسعى لتطوير جميع وجوه الحياة فيها لتلحق بركب العالم المتقدم الذي خلفها وراءه منذ أكثر من خمسة قرون . وهي في محاولتها في النهوض تحتذي أنموذجا مباينا للأنموذج الذي عهدته ، وتجد نفسها لذلك موزعة بينهما وغالبا ما تصطرع في داخلها شتى القوى الجاذبة والنابذة في صلتها مع أي منهما .

وهذه الأمة المفككة المجزأة الساعية إلى النهوض مجتذبة في ذلك أنموذجا لم تألفه ، غير متأكدة من هويتها الآنية . إنها تعرف ماذا كانت وهي واثقة من ذلك تمام الثقة ولكنها ليست على الدرجة نفسها من الثقة عندما يأتي الأمر إلى ماهي عليه الآن ، أو ما ستكون عليه في المستقبل .

والحقيقة أن عملية المثاقفة التي عاشتها أمتنا العربية في القرنين الماضيين قلقلت كل وجوه الهوية العربية التي ألفتها في نفسها على مدى القرون ، وحسب هذه الامة قلقلة أنها تسير وعينها على مستقبل ما تتوخاه وتسعى إلى بنائه محتذية نموذجا ما ، وعينها الأخرى على ماض حاضر أبداً من خلال لغتها وتراثها وأعرافها ، وتقاليدها وتاريخها الشامخ .

وكأن هذه القلقلة لم تكفها ، فتداعى العالم لتعزيزها ؛ وكأن هذا التوزع المتكافىء الضدين لم يزلزلها ، فجاء العالم ليعمقــه ؛ وكأن هذا الخطر الداخلي الكامن لم ينل منها بما فيه الكفاية ، فآزره خطر خارجي . والحقيقة أن هذه الامة ، على الرغم من جميع دواعي الثقة بالنفس المستلهمة من ماض متألق ، وحاضر واعد بالقوة ، أمة مهددة في وجودها السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وغير ذلك ، صحيح ان كل كيان عربي يشعر بالتهديد في وجه محدد من هذا الوجود أكثر من الوجوه الأخرى ، ولكن لايكاد يخلو كيان عربي واحد من الشعور بأنه مهدد على نحو من الأنحاء ، ولربما تنامى هذا الشعور ليبلغ درجة شعور «أخيل» بنقطة ضعفه الكامنة بعقبه ، وليصبح مصدر إحساس بالخطر شامل وعميق .

وواقع الحال ان هذا الإحساس الشامل والعميق ربما كان مصدره أن هذه الأمة ، منذ حملة بونابرت على مصر ، في حالة مواجهة مع الآخر مواجهة شاملة — لايكاد يفر منها وجه من وجوه حياة هذه الامة ، فهي مواجهة عسكرية حينا ، واقتصادية حينا ثانيا وسياسة حينا ثالثا ، واجتماعية حينا رابعا ، وثقافية حينا خامسا وفكرية حينا سادسا ، وادبية حينا سابعا — وخطيرة غالبا مايكون موضوعها الوجود العربي في جانب من الجوانب ، إن هذا الشعور بالخطر، المتزامن مع المواجهة، يجعل الأمة ، بشكل أو بآخر ، في حالة استنفار مرهق ومضن ، وتوتر لايفسحان المجال الكافي للتفكير بروية في أولوياتها أو في أهدافها القريبة أو البعيدة ، وفي سبل تحقيقها انطلاقا من الإمكانات المتاحة بالقوة أو بالفعل . إنه يقودها إلى نوع من التفكير الآني يسود كل وجه من وجوه حياتها، تفكير لاينظر إلى أبعد من موقع الخطو إن تدانى وإلى أبعد من مستوى الانف إذا تسامى، وبالطبع فان أحداً ما لايمكن أن يقنع لأمته بهذا النوع من التفكير لأنه تفكير منشغل بلحظة الحاضر القلقة المقلقلة ، والزمن الحاضر وجود عابر ، لأنه لحظات تقبع في حجب الغيب سرعان ما تتزلق في هوة الماضي السحيقة .

وما يهمنا في هذا الحديث الصريح عن «نحن» هو أننا لم نستطع خلق تقليد ثقافي متماسك ومتسق يمكن أن يضارع التقليد الثقافي الذي طوره الآخر عبر القرون، فنحن مهما بالغنا في تقدير أهمية الدراسات العربية الحديثة المتصلة بمختلف وجوه حياتنا ، ومستواها لانستطيع أن نزعم أنها بلغت منزلة تستطيع معها أن تزاحم تقليد

الاستشراق في مستواه ونوعيته ، وحسب المرء أن يقارن بين المؤسسة العربية التي تقوم على إنتاج المعرفة المتصلة بالأمة العربية ماضيا وحاضرا ومستقبلا وبين المؤسسة الثقافية التي خلقها الآخر لإنتاج المعرفة عن هذه الأمة ؛ حتى نتفهم الفارق في الجدية والمستوى والنوع بين حصيلة هذه وتلك ؛ ومعنى هذا أننا نظل نحس بنوع من عقدة النقص تجاه هذه المعرفة التي ينتجها الآخر عنا ، إضافة إلى الشعور بتكافؤ الضدين في نظرتنا إليه وعلاقتنا به وموقفنا منه . فعلى الرغم من كل ما يمكن للمرء أن يقع عليه في التقليد الثقافي الموسوم بالاستشراق من مثالب وعيوب ونواقص ، وما يلمسه في قراءاته له من أهواء ونزعات مغرضة ، ومع كل ما يمكن أن يقال عنه أنه كان شريكا للأنظمة السياسية في الغرب في استعمار الوطن العربي والتحكم بمقدراته ومصائر أهله ، وفي وضعه للمعرفة في خدمة القوة ؛ وبل وتسويغ استخدامها ضد الآخر — الضعيف فإنه لايمكن إلا أن يعترف ، وبأسف شديد حقا ، بأن دارس العرب والشرق عامة يظل يتحرك ضمن بيئة خلقها الآخر الخارجي(٨) .

فقد نجح هذا الخارجي ، على الرغم من كل شيء ، في خلق تقليد ثقافي متماسك له تاريخه العريق ويستطيع لا أن يشكل عقلية الدارسين الغربيين فحسب ، وإنما عقلية الدارسين الداخليين أيضا من العرب أنفسهم في أحايين كثيرة سواء أدرسوا في الغرب أم في مؤسسات الوطن العربي الأكاديمية المختلفة . وما ذلك إلا لأنه استطاع أن يقدم حصيلة ثقافية على قدر معقول من الموضوعية ، وعلى حد أدنى من مقتضيات البحث وشروطه ، لم يكد يصلها إلا عدد محدود من

الدراسات التي أنتجها الداخليون ممن يدعون الغيرة الشديدة على تراثهم وثقافتهم .

وربما كان مما يثير الشجون في النفس ان يرى المرء ان معظم الدارسين العرب المحدثين كانوا وما زالوا عالة على الآخر ، ليس فقط في مجال العلوم البحتة والعلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية المختلفة وحدها ، وإنما في ميادين الدراسات المتعلقة بتاريخهم وأدبهم وثقافتهم وحضارتهم بشكل عام . فنحن نستورد هذه الدراسات المكتوبة بالإنكليزية أو الفرنسية أو الالمانية أو الروسية أو الاسبانية أو الإيطالية أو غيرها من اللغات مثلما نستورد كتب الطب و الهندسة و الفيزياء والرياضيات وغيرها وبالطريقة التي نستورد فيها الطائرة والسيارة والآلة الحاسبة والمدفع والدبابة والحاسوب وغير ذلك .

وبالطبع لاحاجة إلى القول بأننا في كثير من الأحايين لانرضى عما فيها من آراء ونظريات ، ننعتها باستمرار بأنها متعسفة أو مغرضة أو غير موضوعية أو متحيزة أو عنصرية أو غير مستقصية أو غير شاملة أو سواها من الصفات ، (وقد تكون كذلك حقا) دون أن نستطيع أن نقدم البديل عنها ، فنحن حتى يومنا هذا لم نتمكن من فرض أنفسنا ، من خلال إنتاجنا العلمي والثقافي بالطبع ، حجة في دراسة شؤوننا المختلفة . وإذا كان عجزنا عن إنتاج سيارة أو طائرة أو دبابة أو حاسوب مسوغ بسبب طبيعة الظروف التي مرت بها الأمة العربية خلال القرون الماضية ، فان من غير المسوغ على الإطلاق أن نظل عاجزين عن تقديم دراسات جادة وعميقة وحديثة ومنتمية للعصر عن أدبنا وثقافتنا وتاريخنا وحضارتنا يمكن أن تنهض للمقارنة

كما وكيفا مع ما ينتجه الآخرون من أشياء تتعلق بنا ونحن أولى بها منهم .

ومقابل هذا الإنتاج البحثي والعلمي والثقافي المتواضع ، نجد تقليد الاستشراق العريق نسبيا و المتماسك والواسع النفوذ . فماذا نلاحظ في نظرتنا اليه ؟

٢ – ب – الاستشراق :

أول ما يمكن أن نشير إليه في هذا التقليد أنه تقليد ثقافي أجنبي ينتجه الآخر وليس نحن ، وبالتالي فاننا لانملك من سبل التدخل في شؤونه ، أو التحكم في مادته الأولية ، أو في نتاجه النهائي ، أو في عملية إنتاجه نفسها أي دور ، مالم نجلس مجلس هذا الآخر ، ونرتدي قبعته ونغدو جزءاً من آلته ، وعندها ربما لن ننتج إلا شيئا قريبا منه شكلا وروحا ، مبنى ومعنى .

وربما كان من المفارقة حقا أننا على الرغم،من كوننا موضوع هذا التقليد الثقافي ، لانكاد نميز انفسنا فيه عندما نقرؤه ، فنحن موضوعه افتراضا ، ولسنا موضوعه واقعا . فنحن كما نتجلى في الاستشراق مجرد نظام من التمثيلات مؤطر بطقم كامل من القوى التي قادتنا إلى مجال المعرفة الغربية والوعي الغربي ، وفي مرحلة تالية الامبراطورية الغربية . فالاستشراق ومدرسة للتفسير حدث أن كانت مادتها الشرق بحضارته ، وشعوبه ، وأقاليمه المحلية ، واكتشافات الاستشراق الموضوعية . . . كانت دائما وما تزال مشروطة محددة

بكون حقائق الاستشراق مثل أية حقائق أخرى تنقلها اللغة ، متجسدة في اللغة ، وأي حقيقة هي حقيقة اللغة ، كما قال نيتشة مرة ، سوى :

جيش متحرك من الاستعارات ، والكنايات ، والتشبيهات المجسمة ، وبايجاز ، خلاصة من العلاقات الانسانية عمقت ، ونقلت ، وزخرفت ، شعريا وبلاغيا ، وصارت ، بعد استعمال طويل تبدو صلبة ، شرائعية ، وملزمة لشعب ، الحقائق ايهامات نسي المرء انها كذلك .

قد يصدمنا رأي كرأي نيتشه هذا بوصفه مغاليا في العدمية ، لكنه على الأقل يجذب انتباهنا إلى أن الشرق ، من حيث وجد في وعي الغرب ، كان لفظة تنامى لها فيما بعد حقل واسع من المعاني ، والترابطات والتضمينات ، وأن هذه جميعا لم تكن تشير . . بالضرورة إلى الشرق الحقيقي ، بل إلى الحقل المحيط باللفظة(٩) » .

وبكلمات اخرى كان الاستشراق مجرد «حقل» لايوجد معادل مطابق له في الشرق نفسه(٩) ، كما يقول إدوراد و سعيد .

نحن إذن موضوع الاستشراق ولسنا موضوعه في آن معا ، وربما كان هذا وراء معاناتنا من عقابيله ، فقد كان هذا الاستشراق معرفة وظفت في السيطرة علينا واستلابنا من سيادتنا السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والادبية ، بل وتطهير أرضنا منا كما يحدث اليوم في فلسطين المحتلة .

لقد اشتملت هذه المعرفة على شريحة من المعتقدات المذهبية حول الوطن العربي حولت الاوربي في علاقته بنا إلى عنصري عرقي

إمبريالي ، والى درجة كلية تقريبا ، عرقي التمركز . وهكذا دفع الوطن العربي ، ويدفع ، وربما سيظل يدفع الكثير الى أن تتبدل هذه المعرفة الراسخة عنه وتتغير جذريا .

ونحن كذلك نقطة الارتكاز في هذه المعرفة ، التي أنتجها باحثون نذروا أنفسهم لها ، تحظى بكل اهتمامها ، ومع ذلك فنحن نشعر بقدر كبير من النقص تجاهها ، وتجاه منتجيها الذين يعرفون عنا عن لغتنا ، وتاريخنا ، وثقافتنا ، وتراثنا ، وعقائدنا ، ومجتمعنا وكل شؤوننا اكثر مما نعرفه نحن عن كل ذلك . ومع ذلك فانها معرفة لانستطيع أن تقيم جسورا حميمة معنا ، إنها معرفة تغربنا ، تذكرنا بضعفنا ، فالمعرفة قوة ، ونحن لانملكها فمن أين لنا بالقوة . لأنها أولا كتبت بلغات غير لغتنا ، ونحن بحاجة إلى تخطي هذا الحاجز قبل أن نقيم أي تواصل معها ، ولأنها ثانيا مكتوبة لغيرنا لانقع منها موقع المتلقي ولذلك فانها لاتعنى بتوقعاتنا ، أو بأحاسيسنا ، أو بأهوائنا أو برغباتنا ، أو بعواطفنا ، ولاتبدي حساسية كافية تجاه عقائدنا ، وأعرافنا وقيمنا بل إنها كثيرا ما تتجاهلها ، ولربما تمسها على نحو من الانحاء ، وبدل النشوة التي تنتهي بها أية تجربة قراءة لمادة تتصل بالذات القارئة تجد الإحباط والخيبة والمرارة وما شابهها ، وغني عن البيان الإشارة إلى أن هذه المعرفة تتخذ لنفسها أشكالاً من الإنشاءات وأجناساً من الكتابة مباينة بوجه أو بآخر لأشكال الإنشاءات وأجناس الكتابة التي عرفتها الثقافة العربية حتى مطلع ما يسمى بعصر النهضة العربية أو بداية المواجهة الخطيرة والشاملة مع الآخر بالحملة الفرنسية على مصر . وهكذا نرى أن كل شيء في هذه المعرفة يمثل اشكالا

بالنسبة للعربي ، ومن هنا كان موقف العربي من هذه المعرفة التي ينتجها الآخر عنه أو الاستشراق إشكاليا ، إنه إشكال المعرفة بالقوة الذي يحكم علاقتنا «نحن» بتلك المعرفة التي ينتجها الآخر عنا التي نسميها «الاستشراق» الذي كان الإفصاح عن إرادة أقوى في مواجهة عالم مختلف ولكنه أضعف — الإفصاح الذي رسخ مساواة اختلاف الشرق بضعفه(١٠) ، وسعى إلى إبقائه ضعيفا ليبقى متخلفا ، مجرد مجال لممارسة الإرادة الأقوى مهما بلغت فداحة الثمن الإنساني .

حواشي البحث :

(١) شارك صاحب هذه السطور في العديد من المؤتمرات والندوات وحلقات البحوث التي عقدت في المملكة المتحدة بين عامي ١٩٧٦ – ١٩٨٣ .

(٢) نشر صاحب هذه السطور مشاركاته في الدراسات العربية في الغرب ومتابعاته لها بالعربية والانكليزية في العديد من الدوريات من بينها مجلة مجمع اللغة العربية (دمشق) . والتراث العربي (دمشق) ، ودراسات تاريخية (دمشق) ، والموقف الأدبي (دمشق) ، والمعرفة (دمشق) ، والبعث (دمشق) ، وتشرين (دمشق) ، و Syria Times (دمشق) ، والمستقبل العربي (بيروت) ، والطريق (بيروت) ، واليرموك (إربد) ، والأقلام (بغداد) والدستور (لندن) ، و UR (لندن) ، AZURE (لندن)، و British Society for Middle Eastern Studies Bulletin (أكسفورد)، و Journal of Arabic Literature (ليدن) ، وغيرها .

(٣) كان اخر ما قدمه صاحب هذه السطور في هذا المجال عدداً من الاحاديث التلفزيونية تحت عنوان « نحن والعالم ثقافياً » من خلال برنامج المجلة الثقافية الذي تبثه القناة الأولى في التلفزيون العربي السوري مساء كل أربعاء .

(٤) ادوارد سعيد ، الاستشراق : المعرفة ، السلطة ، الانشاء ، نقله إلى العربية كمال أبو ديب ، (مؤسسة الأبحاث العربية) ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص (٢١٣) .

(٥) المرجع نفسه ، ص (٢١٤) .

(٦) المرجع نفسه ، ص (٣٩) .

(٧) يذكر سعيد في الاستشراق . . . ، أن حوالي ٦٠,٠٠٠ كتاب تتعلق بالشرق الأدنى قد كتبت بين ١٨٠٠ و ١٩٥٠ في الغرب . وانظر المرجع السابق ، ص (٢١٦) .

(٨) في الأفق بوادر مشجعة وواعدة من إسهامات الداخليين من العرب أنفسهم .

(٩) سعيد ، الاستشراق . . . ، ص ص (٢١٤ – ٢١٥) .

(١٠) المرجع نفسه ، ص (١٠) .

نجيب محفوظ

واهمال الأدب القديم

بقلم : د. كمال نشأت

قرأت في مجلة (البيان — عدد يناير ١٩٨٩) التي تصدرها رابطة الأدباء في الكويت حواراً مع نجيب محفوظ أجراه الكاتب الصحفي مأمون غريب ، وكان من بين الأسئلة التي وجهها لنجيب السؤال التالي :

(أعتقد أن حضارتنا وثقافتنا هما في الواقع امتداد للماضي ، فالماضي خالد في ضمير الزمن ، والأعمال الأدبية الأغريقية مثلا ما زال رنينها في أذهان الأجيال المعاصرة فما رأيك في ذلك ؟ . .) .

وكانت اجابة نجيب محفوظ التي أثارت دهشتي وتعجبي قوله (الواقع انني لا أؤمن بخلود الفن رغم

المتعارف عليه في هذا المجال ، والدليل في ذلك أننا لا نتذوق فنا قديماً إلا اذا تذوقناه من خلال حضارته ، ولذلك فنحن الآن فيما عدا الدارسين المتخصصين لا حاجة بنا إلى الأدب القديم أو الفن القديم ... بل انه قد يضرنا أكثر مما ينفعنا . وقد بث فينا رواسب حضارية . . الأجدر أن نتخلص منها إلى الأبد ثم ان الفن والأدب موضوع واحد لا يتغير إلا في القليل ، فما الحاجة إلى قراءته بأسلوب مهجور اذا ما استطعت أن اقرأه بأسلوب الزمان والمكان اللذين أعايشهما . . .

صحيح أن لكل عصر أدبه ، وهو ابن المؤثرات التي تعطيه لونها ، فالأدب كما نعرف جميعا هو ثمرة تفاعل بين الأديب المنشىء وبين بيئته وما يموج بها من تيارات ثقافية واجتماعية وسياسية الخ . . انه الزهرة التي تنبثق نتيجة تفاعلات بين البذرة والطين والماء وأشعة الشمس ، وحين نعترف بذلك فنحن نعترف أيضاً بأن هناك عنصراً انسانيا مشتركا يجمع بين آداب العصور المختلفة في التاريخ الأدبي للأمة الواحدة بل في آداب الأمم جميعاً وإلا أصبحت ترجمة الآداب القديمة عبثا لا طائل تحته . فالتجربة الشعورية الإنسانية باقية ما بقي الإنسان . . . تجربة الحب مثلاً وهي التجربة المحور التي تدور حولها آداب الأمم جميعا في الأغلب الأعم هي هي في الوجدان الإنساني مهما اختلفت الأزمنة وتباينت البيئات فما زلنا نهتز للحوار الشعري الذي أداره شاعر مصري فرعوني تفصل بيننا وبينه آلاف السنين ، فالحبيبة تقول (أخي .. ما أحلى الذهاب إلى البحيرة والاغتسال على مرأى منك لترى جمالي في ثوبي الكتاني الرقيق حينما يبتل ويلتصق بجسدي ، سأنزل معك إلى الماء ثم أخرج إليك بسمكة حمراء جميلة ... على أصابعي ترقد ..)

ويرد الحبيب قائلا : (ان حب أختي (حبيبتي) على ذاك الشاطىء ، ويفصل بيني وبينها الماء وتمساح على الشاطىء يربض ، ولكني حين أنزل في الماء وأسير على الفيضان يصبح قلبي جسوراً على المياه التي أصبحت يابسة تحت قدمي . . .) .

وكما اهتززنا للشاعر الفرعوني القديم نهتز لشاعر معاصر لنا مات منذ سنوات قليلة هو إبراهيم ناجي الذي يقول في تجربة الحب كذلك :

نامت رسائـــــل حبهـــــا
كالطفـــــل في أحلامهـــــا

صفراء غيرهـــــا البلى
كسحابـــــة يحمـــــامها

فحلـــــفت لا رقـــــدت
ولا ذاقت شهي منـــــامها

أشعلت فيهـــــا النـــــار
ترعى في عـــــزيـــــز حطامها

وبكـــــى الـــــرمـــــاد الآدمي
عـــــلى رمـــــاد غـــــرامها

وها هو شاعر عربي قديم تفصل بيننا وبينه مئات السنين يعبر عن تجربة الغربة والحنين إلى الوطن والأهل وهي تجربة انسانية خالدة أبدا عبر كل العصور :

وارحمتا للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فمـــــــا انتفعـــوا
بالعيش من بعده ولا انتفعـــــــوا

ان الأدب خزانة المشاعر الإنسانية ، وهو خالد بخلود الإنسان ، ولا شك في أن الأدب الذي يعاصره هذا الإنسان هو الأقرب إلى نفسه ، ولكن ليس معنى ذلك اهمال الأدب القديم فهو تراث انساني قومي ، وسجل تاريخي لتجارب الأمة الشعورية ، فيه تتضح معالمها الوجدانية وانفعالاتها تجاه الأحداث المهمة التي مرت بها فضلا عن الجانب الفردي في مجال التعبير عن الشخصية الفنانة المنفعلة بالحدث من موقف معين ومدى استجاباتها لمؤثرات البيئة وفي هذين المجالين متسع لدراسات نقدية واجتماعية ونفسية تحدد ملامح الأمة وبالتالي تحدد ملامح أدبها القومي الذي يميزها عن غيرها من الأمم في مجالات التعبير الأدبي . فضلا عن حاجة كل أديب وشاعر إلى دراسة تراثه الأدبي دراسة فاهمة ومستوعبة متذوقة لأنه لن يمتلك أداته التعبيرية إلا عن طريق هذه الدراسة لأنها هي التي ستعينه على معرفة أسرار لغته القومية ، ومواكبة العصر ، ومحاولات التجديد لا تتم إلا بعد دراسة التراث ، لأن التجديد الحق لا يأتي من فراغ وانما هو امتداد لهذا التراث وتجاوز مشروع له ، وما أصدق الشاعر الفرنسي بول فرلين الذي قال (ما الأسد إلا خراف مهضومة) ولنا أن ننقل هذا المعنى إلى مجال الشعر والشعراء فنقول (ما الشاعر الناضج إلا الشاعر الذي هضم التراث ..) وما أسخف الشاعر اللبناني الناشيء الذي اعترف في لقاء أدبي في جريدة (الوطن) الكويتية حين سأله يوسف الجنال : هل قرأت شعر الرواد ؟ كانت اجابته (لا ..) وهذه الإجابة تشي بثقافة هذا الشاعر الناشيء ،

فالذي يقول مفتخرا بأنه لم يقرأ شعر الرواد لا يمكن أن يكون قد قرأ شعر المتنبي والبحتري . . !

وهنا يبدهنا سؤال واجب هو :

هل يستطيع شاعر ما أن يدرك أسرار لغته القومية ويتشبع بايقاعاتها ويعرف عبقريتها الخاصة إلا اذا هضم التراث ؟ حكى توفيق الحكيم أنه كتب مسرحية باللغة الفرنسية وأنه أعطاها لناقد فرنسي وسأله أن يبدي رأيه فيها ... وبعد أيام قال له هذا الناقد : (يا بني أليست لك لغة قومية ... أكتب بلغتك فعنصر الإحساس باللغة الفرنسية غير متوفر لديك ..) . فاللغة الأم طبع تنميه وتغذيه الدراسة والإطلاع ، ومن خلال تعاملنا مع تراثنا الأدبي يكون فهمنا للغتنا ومعرفتنا بأدق أسرارها وبكيمائية تراكيبها وموسيقاها وقصة المستشرق الذي لم يملك نعمة الذوق والتذوق للغة العربية لأنه طارىء عليها معروفة .

فقد كتب إلى أحمد أمين يقول :

(لقد شربت من خرارة علمكم) والمسكين لا يعرف ايحاءات كلمة (خرارة) ، فالعربية ليست لغته ، وما أظن شاعرنا اللبناني الناشىء الذي لم يقرأ شعر الرواد ولا شعر الآجداد إلا نسخة أخرى لهذا المستشرق .

نافذة
على العالم

ترجمة وإعداد: كمال فوزي الشرابي

جيوسيبي أونغاريتي GIUSEPPE UNGARETTI
شاعر النبل والغموض ، بمناسبة مرور عشرين عاماً على وفاته .

ولد الشاعر الايطالي الكبير جيوسيبي أونغاريتي في الاسكندرية بمصر عام ١٨٨٨ وتوفي في مدينة ميلانو عام ١٩٧٠ . ينحدر من أسرة توسكانية مهاجرة . تلقن دروسه الأولى باللغة الفرنسية ثم أكمل دراسته الجامعية بهذه اللغة ، واستقر بباريس منذ عام ١٩١٠ حيث تابع محاضرات غوستاف لا نصون وجوزيف بيديه وهنري برغسون في الكوليج دو فرانس ، وعاشر الشباب المثقف في ذلك

العصر . وقد أثر ذلك كله في مسيرته الشعرية منذ أن بدأها كما صرح عام ١٩١٩ : « **كنت اعرف شارل بودلير وكذلك ستيفان مالارميه وأرتور رامبو وجول لا فورغ وكثيرين غيرهم عندما كانوا ما يزالون مجهولين بايطاليا منذ أكثر من خمسة عشر عاماً** » .

سيق إلى الجندية في الحرب العالمية الأولى فحارب في ايطاليا ثم في جبهة شامبانيا بفرنسا . وحين وضعت الحرب أوزارها عاد إلى باريس ، ثم احتفظ فيما بعد وإثر عودته نهائياً إلى ايطاليا (روما) بصلات صداقة وثيقة مع كل من الأديبين الفرنسيين جان بولهان وبنيامين كريميو ، كما أسهم في الكتابة لمجلتي (المجلة الفرنسية الجديدة) و (التجارة) ثم أصبح عضواً في هيئة إدارة مجلة (معايير) .

منذ بداياته ، أي منذ أن أصدر قصائد مجموعته (المرفأ الغائر) ، انطلق صوته جديداً وغريباً عن كل اشكالية الشعر الايطالي التي تجاوزت جميع محاولات ردود الفعل ضد الدانونزوية ــ نسبة إلى الشاعر الايطالي غابرييله دانونزيو (١٨٦٣ ــ ١٩٣٨) ــ المسيطرة ، سواء تعلق الأمر بـ (المستقبلية) التي كانت تلفظ نفسها الأخير ، أو بـ (الغسقية) في انطلاقة الشاعر الايطالي جيوفاني باسكولي (١٨٥٥ ــ ١٩١٢) .

فرضت الدقة والولع بالشعر على منوال مالارميه اسم اونغاريتي فوراً ، وأصبح على مدى عشر سنوات يبشر بنهضة شعرية أحياها الرباعي الكبير الذي برز في فترة ما بين الحربين العالميتين ونقصد به اونغاريتي نفسه، ثم اوجينيو مونتالي MONTALE ، وامبر توسابا SABA ، وسلفاتوري كوازيمودو QUASIMODO .

نشر اونغاريتي في عام ١٩٥١ ترجماته من الشعر الفرنسي تحت عنوان (حياة إنسان) . ويمكن أن نطلع على أهم أفكاره في مجموعة الكتب الخمسة التي جمعها عام ١٩٥٣ وهي على التوالي : [(الغبطة أو غبطة الغرقى ، ١٩١٤ — ١٩١٦) ويتضمن هذا الكتاب بين دفتيه مجموعة (المرفأ الغائر)] ، (الشعور بالزمن ، ١٩١٩ — ١٩٣٧) ، (العذاب ، ١٩٣٧ — ١٩٤٦) ، (الأرض الموعودة ، ١٩٤٧ — ١٩٥٠) ، وأخيراً (صراخ ومناظر ، ١٩٥٠ — ١٩٥٤) .

لم تكن أعمال اونغاريتي غزيرة ، ولكنها كانت تتسم بمنتهى التكثيف حيث يعيش الشاعر المجابهة الدائمة مع ما يسميه « الجوهري » ، وهو مطلق يستوحيه وتتفتح موهبته عليه . والمهم في هذه الأعمال هو اكتشاف الواقعة المأساوية التي قلبت حياة الشاعر رأساً على عقب ، ونقصد بها موت ولده عام ١٩٣٧ . وقد ألهمته هذه الكارثة ما نحسه ونسمعه من نواح يمزق نياط القلوب في قصيدته (صرخت بأنني أختنق ، ١٩٥١) ، وسيشكل هذا النواح هو ذاته نسيج مجموعته (العذاب) .

عين عام ١٩٣٦ أستاذاً للأدب الايطالي في جامعة سان باولو بالبرازيل . وتحتم على هذا التعيين هجرة جديدة امتدت حتى عام ١٩٤٣ ، وحين عاد بعد ذلك إلى إيطاليا عين أستاذاً في جامعة روما . وكانت هذه الحقبة غنية بالترجمات من صونيتات لشكسبير إلى أعمال لغونغورا GONGORA، وراسين ، ووليم بليك ، ومالارميه وحتى إيسّينين . ولم يكن يحب الكتابة نثراً ، ولكنه عاد إلى ممارستها في دراساته عن التصوير والمصورين ولا سيما فوتربيه FAUTRIER(١)، وكذلك في

كتابيه (الفقير والمدينة ، ١٩٤٩) و (مفكرة شيخ ، ١٩٦٠) ، وفي ذكرياته وتحقيقاته الصحفية التي نشرها في كتابه (انطلاقاً من الصحراء ، ١٩٦١) .

اعتبر اونغاريتي ، في أثناء السنوات العشر الأولى من إنتاجه النادر ، مجدداً للشعر الايطالي ، وانزوى في « عزلة ساطعة » يهيمن عليها إحساس حاد بالاستجمام والصمت . وبقيت أمثولة مالارميه في البحث عن المطلق حاضرة في ذهنه على الدوام . ولاشيء يضيئه أفضل من قصيدته الشهيرة والقصيرة « اتنور بالامتلاء » .

بقي اونغاريتي متأثراً في أعماله بلغته المضاعفة كمهاجر . وقد جعل منه ذلك ، قبل أي شيء وعلى وجه من الغرابة ، منفياً في وطنه ذاته . حتى انه حين ظهر شعراء آخرون في السنوات العشر اللاحقة ، وبحثوا عن تحديد لاتجاه الشعر الجديد تحت كلمة « الابهامية HERMETISME » اعتبر هو على الفور رائداً من روادها .

ما هي هذه الابهامية الأسطورية؟ يرى ل . أنشيسكي ANCESCHI ، وهو أحد النقاد الذين حاولوا أن يطوقوا مفهومها ، انها « **التعبير عن مناخ ما وعن بعض تعليلات الزمن الأخلاقي . . . لسور ما من اسوار الأشكال ، لسور ما من اسوار الانسان في واقع خشن ومحطم لا يتوصل الى العثور عن معناه** » .

وبتعبير آخر ان الابهامية ببساطة إنما هي طريقة باطنية شعرية غامضة تجمع شعراء يختلف بعضهم عن البعض الآخر اختلافاً كلياً ، وكل واحد منهم يحمل فرادته الخاصة .

أما بالنسبة إلى اونغاريتي في وضعه الطبيعي كمنفي على الأرض ، وفي وضعه المكتسب كمنفي في وطنه ، فانه كان يقصد إلى أن يقطع صلاته بكل المبالغات الكلامية السائدة التي نجدها لدى دانونزيو والمستقبليين ، وكذلك بالتكثيف الاختياري في الوحي والتعبير كما عند باسكولي والغسقيين . من هنا تبلور لديه عمل شكلي صارم نجده هو ذاته في سياق آخر ، وفيما بعد ، عند شاعر فرنسي كبير هو رنيه شار R.CHAR .

كان اونغاريتي مغرماً بالتصوير ، فكتب بصدده هذه الأسطر المعبرة: « **اعتقدت على الدوام بأنه يجب نعت المصورين بأنهم كبار حين يعرفون كيف يستعملون اللون الأبيض : فهذا اللون يملك جميع الأصوات. ان لمسة بيضاء تخلق في اللوحة تناسقاً ، ولمسة أخرى تجعلها تضحك كأميرة في بلاط ملكي . حين يتوصل اللون الأبيض ، في لوحة أو في قصيدة ، إلى اضاءة المعنى العميق للكلمات ، وسواء كان المبدع رساماً أو شاعراً ، فلا مجال لان يتعلم الانسان أي شيء** » .

ومن هذا السياق الذي يمكن بسهولة أن يتحرك كمنطق ، تقدم لنا أعمال اونغاريتي أمثلة عديدة ومضيئة تذهب حتى الكسوف الجذري لقصيدة الهايكو اليابانية ،مع ما يتبع ذلك من شفافية التشاؤم البطولي الذي يطبع بطابعه مجموعته (غبطة الغرقى) : « **الموت يسقط وهو يعيش** » ويحطم كل إبهامية في لحظة العذاب المؤسية الجارحة ، فيعطي صوت الشاعر صفاءه النهائي : « **كصلدى يمحي كل صوت آخر / منذ ان وجد صوت يدعوني / من اعالي القمم الخالدة** » .

– بعض أقوال النقاد فيه

(١) « ما من شاعر في عصرنا تفتحت عبقريته على مشكلة الكلمة الشعرية الايطالية وتعمقت فيها كأو نغاريتي » ل . أنشيسكي .

(٢) « يمثل اونغاريتي الشعر في تقدمه ، وبهذا الشعر وحده توصل في عصره الى الافادة من الحرية التي كان ينبض بها الهواء » أوجينيو مونتالي .

(٣) « قصائد اونغاريتي تعمل فينا : ظاهرها فقير ولكنها تغتني بتفكيرنا وتغتنينا . . . يقول ولا يقول ، « في كلتا الحالتين يفوق بقية الكتاب في تعبيره » ج . دي روبرتيس ROBERTIS .

(٤) « في شعره كثافة وانسيابية ، ونبل وغموض في الوقت ذاته » جان ليسكور J.LESCURE

– مختارات من قصائده

١ – نهاية كرونوس (٢)

أكثر من صرخة تموت
وفي حضن السماء
تنام الساعة الخائفة ،
وتتوّج الجبال بسناج(٣) ليلكي ،
وما تبقى يصمت .
أيتها الكواكب ، يابنيلوبات لا تحصى(٤)
الرب يحضنكن . . .

هو ذا الأولمب أيضاً ،
زهرة الرقاد الخالدة .
ايتها الضرارة (٥) ، ياانهيارات الليالي . . .

٢ — المرفأ الغائر

وصل الشاعر اليه ،
ثم عاد مع النهار بأغانيه .
وبعثرها .

. . .

من هذا الشعر بقي لي
هذا اللا شيء
من السر الذي لا ينضب .

٣ — الأنهار

أستمسك بهذه الشجرة البتراء ،
مهملاً في هذه الصدفة التي لها
طول سيرك ،
قبل العرض أو بعده .
أشاهد عبور الغيوم الهادىء
على القمر .

. . .

هذا الصباح تمددتُ
في حوض ماء ،
وكذخيرة استرحت ،
وكان نهر (الايسوندزو) وهو يجري
يصقلني كاحدى حصاه .

• • •

رفعت عظامي البائسة وانطلقت
كبهلوان على الماء .
جلست القرفصاء
بالقرب من اسمالي الحربية القذرة
وكبدوي انحنيت
لاستقبل الشمس .

• • •

هذا النهر هو (الايسوندزو) ،
وهو أفضل من أي مكان
فيه الى نفسي تعرفت
وتراً مطواعاً للكون .

• • •

عذابي أنا يكون
حين لا أعتقدني متناغماً مع ذاتي .

لكن هذه الايدي السحرية
التي تعجنني
تهدي لي غبطة نادرة .

• • •

راجعت مراحل حياتي
وتلك هي انهاري الأثيرة .
هذا هو (السيركيو)
حيث ذهب ليرده الف عام لربما
من عرقي الريفي ،
وكذلك أبي وأمي .
هذا هو (النيل) الذي رآني
أولد وأترعرع ،
واحترق جهلاً في السهول الفسيحة .
هذا هو (السين)
في مياهه الرنقة غطست .
ونفسي عرفت .
تلك هي انهاري الاثيرة
وقد استدللت عليها في (الايسونزو)
هذا هو الحنين الى كل منها
كما يظهر لي الآن
وقد وافى الليل ، وبدت لي حياتي
نَوْرةً من ظلام .

٤ — المتشرد

لا استطيع في أي مكان من الأرض
ان أستقر .
في كل مناخ ألاقيه
أجد نفسي أرْوَبَ (٦) ،
لانني كنت في الماضي
قد تعودت عليه .
ودائماً اهجره غريباً عن ولادته ،
عائداً من حقب
لطالما عشتها .
لو انني اتمتع لحظة واحدة
بالحياة الأولى !
أبحث عن بلاد بريئة .

٥ — تجلٍ

أستند الى كومة من الكلأ بلون البرونز .
تقلص لاذع يتشظى ويزدحم
خارج الاثلام الخصبة ،
فأشعر بأنني حقاً متحدر
من أناس الأرض .
أشعر بأنني في عيني الانسان المتنبهتين
لمظاهر السماء ، الانسان الخشن

كالقشر في شجرة التوت التي يشذبها .
أشعر بانني في الوجوه الطفلة
كثمرة موردة تشتعل بين الأشجار العارمة .
كغيمة أتقطر في الشمس .
أشعر بأنني أنتشر
في قبلة
تذويبني .
وتهدئني .

اكيلويه AKILOE ، رواية لفيليب كورفال
P.CURVAL / منشورات فلاماريون بباريس

« ليس للبشر داخل ، وليس لهم سوى خارج» ، هكذا قال كوني واليلو لابنه آكيلويه قبل أن يضربه على قدمه الجريحة ، لتتكون لديه فكرة عن آلام الولادة ويعرف أن « **الانسان ما دام في الداخل فذلك يعني العذوبة . أما الخارج فلا يعني سوى العذاب** » .

هذان المكانان يمكنهما أن يلخصا بشكل رمزي الرواية التي صدرت مؤخراً للكاتب الفرنسي فيليب كورفال ، على اعتبار أن الداخل هو عالم قبيلة الواياناس WAYANAS الهندية ، والخارج هو الحضارة التي أقيمت في هذه الناحية من الغويانا GUYANE الفرنسية .

بيديما PIDIMA قرية دمرها الطاعون ، وينسب ذوو الضحايا فيها هذه الكارثة إلى التوابيت الصغيرة التي يحملها السياح النادرون إلى المنطقة ، ويعنون بها « آلات التصوير السحرية اللعينة » . بين من

تبقوا على قيد الحياة بطل الرواية آكيلويه ووالده آرواني الذي أهدى إليه مذياعاً حصل عليه من أحد السياح وذلك « **للتحقق من ان روحه تستطيع مقاومة عدوى الخارج** » ، كما بقيت زوجتاهما العجوز كوي واليلو والصبية لايو التي ما لبثت ، بعد وفاة الأب بقليل ، أن فارقت الحياة وهي تلد طفلاً ميتاً . لم يبق أمام الأم والابن إذن سوى سلوك طريق المنفى ، وهكذا ودعا بيديما ورحلا إلى منطقة من البلاد تبدو فيها الأشياء ، لأبناء قبيلة الواياناس ، في سحر طبق يزهو بالبطاطا المقلية أو في تلألؤ أسلاك لا تنتهي بالمصابيح الكهربائية .

استقبلهما المتحضرون ، ووضعوا الابن في عهدة كلاريس وهي مدرسة شابة . وسرعان ما تأقلم الابن مع الجو الجديد ، وبدأ يتعلم ويدرس ويهتم بالأحداث الجارية . ويمكن تشبيهه بآخر الموهيكان MOHICANS (٧) . وقد طبعته الحداثة بطابعها فراح يتمثلها أكثر مما يجابهها . ولكن ها هو دوبشيوسكي DOBCEWSKI ينبثق في حياته ، وهو بولوني مخمور يدعي أنه من «المصلحين والفيزيائيين» ، ويقوم بادخاله « **عالم البيض وذلك لأنه كان يملك صفات سحرية تجعله يعبر حدود ما بين الواقعين ، واقع طفولته المتوحشة والواقع الذي روته له كلاريس في صور وهي تعلمه** » .

عند هذه النقطة من الرواية يظهر ترقب البطل الذي لم يكن في البدء يعيه . فكما أنه انتقل من الطفولة إلى المراهقة بعد أن أدرك هذا الانتقال ، كبالغ . كذلك انتقل من بيديما إلى المدينة حيث لكلمة المال معنى ، وحيث تحل الألعاب الالكترونية محل المعتقدات السلفية . ولكن إذا لم يكن لديك خيار للعودة إلى الطفولة ، فهل تستطيع العودة

إلى الأصول عن طريق غير طريق الكلمات حين تحس استقرارك في عالم جديد حيث تكتشف الجنس والحب ، وحيث يعلمك صديق طيب أن في هذا العالم أيضاً معسكرات للاعتقال ؟ ما يقرره أكيلوويه ليس ذا دلالة على فقدان العذرية والصفاء فحسب ، بل هو ذو دلالة أيضاً على خط السير الذي ينتهجه والذي يجعل للرواية حبكة مشوقة .

هناك إذن مبادرة مضاعفة : اكتشاف ما يفصل العصر الحجري عن العصر الذري ، وسلسلة من المغامرات لا تبدو فيها المجلوبية أو الاغرابية EXOTISME مجرد زينة .ويشد فيليب كورفال انتباهك من فصل إلى آخر شداً محكماً ، وذلك بلا تقريرية تعليمية ، ويطرح أسئلة لا تهم قبيلة الواياناس المرحومة فقط . وهو واقعي في سرده إذ نقع لديه على نهاية عراقية (اثنية) ، كما نكتشف مقاصد الاستعمار ، وكذلك العلاقات بين مختلف الكائنات ، وبمعنى آخر فان رواية (آكيلوويه) حكاية تهمنا جميعاً . ولكي لا نغدو (أواخر الواياناس) ، ألسنا جميعاً من قبيلة كبرى تدعى (قبيلة الانسانية) ؟ ثم ألسنا نجد على طريقنا ، في معظم الأحيان ، أناساً منحرفين كدوبشيوسكي ؟ وتوازناً مع تربية هذا الفتى « المتوحش » الذي يعبر العصور ومكتشفاتها في برهة تمتد من الطفولة إلى المراهقة ، فان تاريخ الانسانية بأسره هو ما يستلهمه الكاتب . وحين يتردد آكيلوويه بين الخدمة العسكرية الإلزامية التي يجب عليه كمواطن فرنسي أن يؤديها ، وبين العودة إلى مسقط رأسه بين الغابات والمياه والأزهار ، كيف لا نتساءل بيننا وبين أنفسنا : **ترانا نعثر ذات يوم على قرى هادئة بعيدة كقرية بيديما بلا طاعون نفيء** اليها من اضرار المدينة ومتاهاتها ؟

* * *

— المدعو الصغير، رواية لمارسيل مولودجي M. MOULOUDJI منشورات بالان BALLAND ، باريس .

مارسيل مولون جي ممثل ومغنٍ فرنسي شهير . ولد عام ١٩٢٢ . لكم أسكرنا بأغانيه العذبه وبصوته الذي لا يشبهه صوت آخر ! وها هو في روايته الأولى (المدعو الصغير) يرسم لنا دروب طفولته ومراهقته بريشة تتسم بالطواعية والشاعرية والدقة والعفوية التي تدعو كلها إلى الإعجاب . ويبدو ، وهو في الثامنة والستين من عمره ، كأنه طفل ما تزال تفتنه الحياة ، وما تزال تسعده دريهمات يشتري بها شيئاً من السكاكر .

ومع ذلك فأية بدايات قدمت له هذه الحياة ! كان والده ، وهو عامل قبيلي — من القبليين سكان المنطقة الجبلية في الجزائر — ، أمياً ، يقرأ صحيفته بالمقلوب لكي يظهر أنه يعرف القراءة . وكانت أمه ، وهي ربة بيت من بريتانيا غربي فرنسا ، تحب أخاه ولا تستلطفه هو ؛ بل لا تحبه على الاطلاق . وكانت مجنونة غالباً ما تزعق ، وتغلق الباب بعنف مئة مرة في اليوم . وحين كان الأب يضيء مصباحه في الليل كان يراها واقفة له بالمرصاد وبيدها موس حلاقة .

لا يذهبنّ القارىء إلى الاعتقاد أن البؤس والنكد اللذين عاشهما مولودجي قد خلقا منه متمرداً ! كلا ، فهو يستقبل الحياة على الدوام كما هي ، ويشع وجوده بالسعادة ، ويسكره الجمال في كل شيء . عمدته والدته ، ودفعه والده إلى الأخذ بالمباديء اليسارية ، وعلمه الرفقاء صراع الطبقات . . . ثم ألحت عليه أسباب العيش فاذا به تحت

رعاية الكاتب الفرنسي مارسيل دوهاميل ، والد « السلسلة البوليسية السوداء » المشهورة . وقابل الممثل الفرنسي الكبير جان — لوي بارّو BARRAULT فجعل منه مثله الأعلى في التمثيل ، كما قابل جان — بول سارتر وسيمون دو بوفوار والشاعر روبير ديسنوس وزوجته يوكي YOUKI والشاعر جاك بريفير ،وجميع من يتّرددون على عالم السان — جرمن — دي بري ومونبارناس ، وله معهم بأسرها حكايات وذكريات .

ومولودجي ممثل سينمائي ومسرحي . وهو يقص علينا في روايته فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية ، فيحملنا على أجنحة من الرغبة والحنين إلى تلك الأيام السعيدة .

جوهر هذا الانسان الفنان هو الفرح . وانه ليكتب بسلاسة وطواعية كما يغني . قلبه كبير ، وهو صديق وفي لا يتنكر لعاميه وأصدقائه وزملائه ، ويشكر جميع من ساروا معه على الدرب ، وجميع من وهبوا له ولو بعضاً من المساعدة والمتعة والسرور .

• • •

فنون

— ألبان بيرغ ALBAN BERG ،
سيد التحولات الصغرى في الموسيقا المعاصرة ،
دراسة للفيلسوف النمساوي تيودور ، أدورنو
T. ADORNO ، منشورات غاليمار ، باريس .

تشهد هذه الدراسة ، التي كتبها تيودور أدورنو عن الموسيقار النمساوي الكبير ألبان بيرغ ، على عبقريته الحقيقية حين يعبر عن أعمال

موسيقية أثرت في نفسه وتعمق في معرفتها . وهي ليست دراسة نظرية ووافية كالدراسة التي كتبهاعنالموسيقار الالماني ريتشاردفاغنرفحسب بل هي أيضاً وبخاصة دليل على تعدد النغمات وتفرعها POLYPHONIE لدى موسيقار كانت تربطه به علاقات مميزة تناقض العلاقات الصعبة التي كانت تقوم بينه وبين الموسيقار النمساوي ارنولد شونبرغ A. Schönberg (١٨٧٤ — ١٩٥١) . فمنذ التقائه ببيرغ عام ١٩٢٤ ، وقف ادورنو عليه نصوصاً تحليلية عديدة . وما أدرجه في مؤلفه من هذه النصوص يمتد على مدى عدة حقب ، ويتناول تحليل الأعمال التي ألفها بيرغ قبل عام ١٩٣٧ كما يتناول النبرة الخاصة به في أوبرته فوتسيك WOZZECK ، وذلك في الحسينات . وآخر هذه النصوص يسبق وفاته بقليل . ويدهشنا ما في تفسيره لأعمال بيرغ من وحدة وتكثيف . فمنذ عام ١٩٢٩ تعلق باظهار ما تمثله هذه الأعمال من تميز ، وما فيها من « طابع تعبيري » يبرز حساسية بيرغ وانسانيته . ولم يزده تحريم النازيين تداول ألحانه وسماعها إلا إعجاباً به ، الأمر الذي دفعه إلى الدفاع عنه أمام (مدرسة الموسيقيين) في دار مستاد ، وكانت هذه المدرسة أكثر عطفاً على موسيقار معاصر آخر هو انطون فيبرن A.WEBERN (١٨٨٣ — ١٩٤٥) ، النمساوي وتلميذ شونبرغ . وظل ادورنو حتى وفاته يصر على حداثة بيرغ ومقدرته الفائقتين .

ويحلل ادورنو النبرة الموسيقية لدى بيرغ فيعثر فيها على تقارب مع (سنفونية الوداع) لهايدن ، حيث تتوقف الآلات المختلفة عن العزف لتنطلق من ثم الواحدة بعد الأخرى . ويستند في هذا التحليل إلى أن بيرغ قد جهد «لتحويل الموسيقا ذاتها إلى صورة اختفاء،والقول

وداعاً للحياة بوساطة الموسيقا » . وعلى هذا فانه يكتشف شيئاً يتكرر في موسيقاه هو « مزيج من الحنان والعدمية والثقة بالزوال » . كما أن في هذه الموسيقا شيئاً يدل على طابع مدينة فيينا ، ويشبه نبرة الاستسلام التي نلمسها عند شوبيرت . ولقد بقي بيرغ بعيداً عن الصراع ضد فاغنر ، ولكنه أدخل إلى موسيقاه كثيراً من العناصر التي استعارها من المدرسة الأولى لفيينا ، كما استعارها من ديبوسي ومن المدرسة التعبيرية . ويشير ادورنو إلى أن ما يفصل بيرغ عن فاغنر إنما هو انعدام تمجيد الذات لديه . فموسيقاه تنتصر للضعفاء والمظلومين والضحايا ، سواء كان اسم أحدهم (فوتسيك) الذي تسوقه إلى القتل سادية الآخرين ، أو اسم إحداهن (لولو) التي كان المجتمع البورجوازي بأسره يتمنى اختفاءها .

ويلجأ ادورنو ، وكان تلميذاً لبيرغ في فيينا عام ١٩٢٥ ، إلى ذكرياته الشخصية عنه ، فيشير إلى رقته وتواضعه وسخريته السوداء . وبينما يستطيع الموسيقار ماهلر أن يستوحي مشهداً واقعياً حتى يحيط به ، كان بيرغ منصرفاً إلى داخل نفسه انصرافاً كلياً . وكان يميل كثيراً إلى قراءة الكتب الأدبية .

لاشك في أن تحليلات ادورنو لأعمال بيرغ تدل على مهارة وخبرة . وما يقوله عن اوبرتي (فوتسيك) و (لولو) لبيرغ جدير بالاعجاب . ونجد في مراسلاته اشارات إلى مدى تقديره وفهمه لبيرغ

كما في هذه الرسالة الموجهة إلى والتر بنيامين: «لقد تخطى بيرغ سلبية العالم بوساطة اليأس الذي ملأ مخيلته».

— نبذة عن ألبان بيرغ وأعماله

ألبان بيرغ موسيقار نمساوي، ولد في فيينا عام ١٨٨٥ وتوفي فيها عام ١٩٣٥. ينحدر من أسرة ألمانية. أنهى دراساته حتى الجامعة، وفي الوقت ذاته درس الموسيقا دراسة عصامية. واضطر بعد وفاة والده إلى ترك الدراسة الجامعية والعمل في إحدى الشركات حيث التقى بالموسيقار ارنولد شونبرغ، وذلك في خريف عام ١٩٠٤ وأصبح تلميذه. وسرعان ما شعر بأن بينهما روابط قوية من المحبة والتفاهم. وكان شونبرغ منظّراً للموسيقا الدوديكا فونية أو الامتزاجية وهي تقوم على مزج المقام الكبير — ماجور MAJEUR — بالمقام الصغير — مينور MINEUR — وبالعكس: DODECAPHONISME.

ويعترف بيرغ بتأثره بشونبرغ من الناحيتين الشخصية والفنية. على أن هذه العلاقة العميقة بينهما لم تمنع بيرغ من تطوير صفاته الخاصة والنزوع إلى الاستقلالية.

إلى هذه الحقبة يعود تاريخ ابتكار أعماله الأولى كالصوناتا للبيانو رقم ١ (١٩٠٨) والأناشيد (جمع أنشودة) الأربع رقم ٢ (١٩٠٨ — ١٩٠٩)، والرباعي رقم ٣ (١٩١٠). وتشهد هذه الأعمال على وجود تردد في طريقة التأليف لدى الموسيقي الشاب، وهو تردد قد لا يكون سوى انعكاس للتطور الذي طرأ على موسيقا شونبرغ نفسه: والواقع أن شونبرغ كان يمر من السلم اللوني أو اللونية CHROMATISME المضخمة لما بعد الفاغنيرية إلى تركيب النظرية الاثنى عشرية أو نظرية

العلامات الاثنتي عشرة أو ما يسمى بالموسيقا اللامقامية SERIELLE أي الانتقال بحرية بين هذه العلامات وهي : دو / ره / مي / فا / صول / لا / سي ، والتحويلات (جمع تحويلة) الخمس للرفع والخفض وهي : دو دييز / مي بيمول / فا دييز / لا بيمول / سي بيمول .

وقد تأكد هذا الاتجاه نحو المتناقضات في الأناشيد الخمس للاوركسترا رقم ٤ (١٩١٢) ، وفي القطع الثلاث للكلارينييت رقم ٥ (١٩١٣) ، والقطع الثلاث للاوركسترا رقم ٦ (١٩١٣ — ١٩١٤) . كما قاده هذا الاتجاه إلى كتابة أعمال أوبرالية مأساوية ، ويبقى أحد المظاهر الشخصية في موسيقاه .

والجدير بالذكر هنا أن بيرغ قد استوحى في الأناشيد الخمس للأوركسترا رقم ٤ (١٩١٢) أشعاراً كان الشاعر الالماني التقليدي بيتر ألتنبرغ PETER ALTENBERG يرسلها على بطاقات بريدية إلى أصدقائه وصديقاته . وكانت هذه الأشعار الجميلة الطريفة تهيء دائماً لمفاجأة . وإلى القاريء ، على سبيل المثال ، أشعار البطاقة الثانية التي أرسلها إلى صديقة : « **أرأيت الغابة بعد عاصفة ممطرة ؟ كل شيء يرتاح ويتألق أجمل مما كان . — انظري ، ياامرأة ،أنت أيضاً تلزمك عاصفة ممطرة** » .

وما إن أزف عام ١٩١٤ حتى انطبع فنه بطابع جديد . ففي ذلك العام قرأ (فوتسيك WOZZECK) للمسرحي الالماني جورج بوختر G. BÜCHNER ، كما أحس في أثناء وجوده بالجيش المرارة التي يحسها الجندي في الحرب . وتكاملت لديه هاتان التجربتان لتقدما لنا تحفته

الخالدة (فوتسيك) ، وهي فاجعة ذات أسىً لا يحد ، وتعبر « بقدرتها الغنائية المهلوسة » عن عزلة الإنسان التي لا فكاك منها .

في هذه الأثناء كان بيرغ يعمل في بضعة أعمال تؤكد تدرجه المتمكن المتماسك وثقته بنفسه في استعمال التقنية الامتراجية . ولنذكر من هذه الأعمال كونشيرتو الكاميرا للبيانو والكمان وثلاث عشرة آلة أخرى (١٩٢٣ — ٢٥) ، وقد كتبه بمناسبة الاحتفال ببلوغ شونبرغ الخمسين من عمره ، والمتتابعة الغنائية لرباعي الأوتار (١٩٢٦) وهي من أعمق أعماله وأكثرها حميمية .

في نيسان عام ١٩٢٨ بدأ يعمل في (روح الأرض) وفي (علبة باندورا PANDORA)وهما مسرحيتان لفرانز فيدكند WEDEKIND، وتؤلفان اوبرته الجديدة (لولو LULU) ، كما انصرف في فترات إلى تلحين بعض خمريات بودلير ، وقد ترجمها إلى الالمانية الشاعر ستيفان جورج ، واختار منها قصائد (روح الخمرة) و (خمرة العشاق) و (خمرة المتوحد) ، وانتهى من تلحينها عام ١٩٢٩ . ويمكن اعتبارها دراسة تمهيدية لتأليف الأوبرة المذكورة .

ومع أن بيرغ أقبل على تأليف (لولو) بنشاط يتناقض مع بطئه المعتاد في الابداع ، إلا أن الوقت اللازم لانهاء هذا العمل لم يتوفر لديه.وفي عام ١٩٣٥ توفيت ابنة آلما ماهلر ALMA MAHLERوهي في الثامنة عشرة من عمرها . وكانت تربط بينه وبين آلما ، أرملة الموسيقار غوستاف ماهلر ، وأجمل سيدة في فيينا آنذاك ، صداقة متينة وتعاون في السراء والضراء . فأهدى إليها الكونشيرتو للكمان والاوركسترا

متوّجاً بهذه العبارة « **الى ذكرى ملاك كريم** » ، وقد يكون هذا الكونشيرتو أكثر أعماله عاطفة وانفعالاً . وعجل هذا الحزن الكبير في نهايته بعد أن أنهكه مرض عضال تسلط عليه منذ سنوات . وهكذا توفي صبيحة يوم الميلاد من عام ١٩٣٥ . ولم تقدم (لولو) إلا في الثاني من حزيران ١٩٣٧ على المسرح البلدي لمدينة زيوريخ .

تحليل بعض اعماله : ١ ــ أدبرة فوتسيك

فوتسيك أو فويتسيك مأساة أو « قصيدة فاجعة » في خمسة وعشرين مشهداً للكاتب الألماني جورج بوخنر (١٨١٣ ــ ١٨٣٧) . ألفها عام ١٨٣٦ ونشرت للمرة الأولى عام ١٨٧٩ .

الجندي فرانز فويتسيك انسان بسيط ، تسكنه بشكل غامض فكرة الطيبة . وبما أنه ضعيف الشخصية ، فهو لا يعرف كيف يتقي ضربات القدر الرديئة ، ولا كيف يحذر ألاعيب زملائه ومؤامراتهم . وهو يعيش منذ مدة مع زوجته ماريا التي أنجبت له طفلاً ، ولكنها كانت تخونه مع أي إنسان يحلو في عينيها ، وبخاصة مع زميله العريف الأول الذي يعتبر دون جوان الفرقة . وكان فويتسيك عالماً بسلوك زوجته المشين ولكنه كان يسكت عنه ويتألم بصمت ، ويحتمل اذلال قائد الفرقة له ، كما يحتمل تعليقات زملائه القاسية الساخرة . ونضج عذابه ببطء ، واستبد بأفكاره وعواطفه .

ذات ليلة ، رأى زوجته ترقص مع العريف الأول فشعر بأن فكرة الجريمة تولد في أعماقه . واختفى بضعة أيام ثم عاد إلى بيته ، فوجد زوجته وحيدة مع ولده ، وهي مستغرقة في قراءة التوراة . فدعاها

إلى نزهة على ضفاف البحيرة . وطلع القمر متجهماً « كسلاح يغطيه الدم » . وتذكر أن هذه الليلة ذكرى زواجهما . وتحت تأثير العذاب بدأ فويتسيك يتحدث مع زوجته أحاديث شيطانية ، ثم قتلها بطعنة سكين وهو نصف غائب عن الوعي . ولجأ إلى مبغى حيث لفته أحدهم إلاّ أن كمه ملطخ بالدم . وكانت فكرة ارتكابه الجريمة مازالت مسيطرة عليه ، فعاد إلى البحيرة ، وحاول عبثاً أن يزيل بقعة الدم بغسل كمه ، ثم خوّض في مياه البحيرة محاولاً جهده أن يزيل أثر الجريمة ، ولم يلبث أن غرق . في تلك الأثناء كان ابنه يلعب في ساحة البلدة مع أترابه حين جاءه من أخبره بموت أمه ، ولم يظهر عليه أنه فهم ، وبينما كان الجمهور يهرع إلى مكان الجريمة ، تابع الطفل لعبه وحيداً .

– انتقى ألبان بيرغ خمسة عشر مشهداً من هذه المأساة تشيع فيها التناقضات المتوترة وتتسم بالطابع الابتداعي (الرومانتي) العنيف ، وصنع منها اوبرته التي اختصر اسمها الى فوتسيك بدلاً من فويتسيك ، وجعلها في ثلاثة فصول كل فصل منها ذو مشاهد خمسة . وقد الف موسيقاها ما بين عامي ١٩١٤ و ١٩٢٠ ، وقدمت للمرة الأولى في برلين عام ١٩٢٥ ، ثم على أشهر مسارح اوربا وامريكا بنجاح منقطع النظير .

تبرز موسيقا البان بيرغ بعض موضوعات بوخنر في المقام الأول ، وتضع البعض الآخر في المقام الثاني . وقد بنيت هذه الاوبرة على نظرة الى الوجود بالغة التشاؤم . فالشر ، بمظاهره التي لا حصر لها ، يسحق الطيبة والجمال ، وهو قضاء مرعب لامر د له . واراد المؤلف ان تكون

الموسيقا في هذه الأوبرة ذات قدرة خارقة ، ولذلك انزلها المنزل الرئيس ، فراحت تفرض ذاتها علينا بقوة نادرة المثال . كما اراد لها ان تسربل كل مشهد وتتغلل فيه ، وتمزج جميع العناصر المسرحية في تركيب رائع .

٢ – اوبرة (لولو)

تتألف هذه الأوبرة من مقدمة موسيقية وثلاثة فصول . وتعتبر من أفضل ما أبدعه .

انتهى بيرغ من تأليف موسيقا (لولو) خلال شتاء ١٩٣٥ فيما عدا الفصل الثالث الذي بقي غير مكتمل ، فأكمله شونبرغ بالاستناد إلى ألحان بيرغ نفسه ليكون جاهزاً للعزف من قبل الاوركسترا . وتتناول هذه الاوبرة الموضوع الرئيس في أوبرة (فوتسيك) : فالشر ينتصر على الدوام اينما وجد وبأية وسيلة كانت . ويتمثل الشقاء أو التعاسة في صورة امرأة تغوي من تقترب منه حتى الموت . ولقد عبر بيرغ بموسيقاه العنيفة عن القوة الشيطانية والغريزية التي تسكن هذه المرأة .

في المقدمة الموسيقية يعرض أحد المروضين لولو في مظهر أفعى أو مظهر مسخ لا عاطفة فيه . وهكذا نجد أن الفكرة الرئيسة في (لولو) هي إظهار المرأة كفاتنة لا تقاوم ، ولكنها تموت بالرغبة ذاتها التي تثيرها حولها . والواقع أن بيرغ لم يشأ أن يقص علينا حكاية فحسب ، بل استخلص منها عبرة توجيهية وأخلاقية ، نجد ما يماثلها أيضاً في اوبرة (دون جوان) لموتسارت .

يمكن تلخيص الأحداث والمشاهد في هذه الاوبرة كما يلي : تظهر لولو في البدء زوجة لطبيب ثم زوجة لرسام . وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة تسبب موت الزوجين . ماضيها غامض ومأساوي ، ثم لم تلبث بعد ذلك أن تقتل أحد عشاقها القدامى وهو الدكتور شون ، ويقبض عليها وتودع السجن . لكنها تبقى على فتنتها الطاغية التي تثير الرغبات . وحتّى ابن ضحيتها — ولعله قرين بيرغ نفسه — يقع في حبها . تخلصها من السجن كونتيسة غنية بدافع من الحب والحنان المتبادلين . وتصبح لولو منذئذ ضحية أناس مبتزين ونصابين ، ثم تنتهي مومساً في لندن حيث يقتلها المجرم الخطير جاك باقر البطون . وتُقتل الكونتيسة المذكورة كذلك .

الواقع أن محتوى هذه الاوبرة يعبر عن أعمال لا إنسانية قد يقدم على اقترافها بعض الناس ، كما يعبر عن الأهواء والنزعات التي يمكن أن توحي بها الجنسانية وتجدر الاشارة إلى أننا نجد فيها هجوماً لا هوادة فيه على المجتمع البورجوازي في ذلك العصر الذي لم يكن يعطي المرأة المغربة سوى دورين : إما دور العشيقة وإما دور المومس . والواقع أن بيرغ لم يكن يقصد إلى الهجاء فحسب بل إلى التعبير أيضاً عن نفسيات أشخاصه ونزعاتهم ، على اعتبار أن هؤلاء الأشخاص لا يجدون منفذاً للوضع الغارقين فيه إلا بالاستسلام لنزواتهم .

وصفوة القول أن مؤلفات ألبان بيرغ ستظل تفرض نفسها على مستوى الأعمال الخالدة لكبار الموسيقيين في جميع العصور . وتعتبر اوبرة (فوتسيك) أكثر مؤلفاته تميزاً وتعبيراً عن اكتمال موهبته الفنية .

ولقد عالج فيها المشكلة الأساسية العتيقة للاوبرة ووجد لها حلاً سعيداً يضعه في مرتبة العباقرة الذين رفعوا من شأن هذا الفن الجميل .

هوامش :

(١) جان فوتريه : مصور فرنسي ولد بباريس (١٨٩٨ - ١٩٦٤) . له أعمال اتسمت في البدء بالواقعية الكثيبة ثم بالاسلوب غير المجازي .

(٢) كرونوس CHRONOS : الاسم الأغريقي للزمن .

(٣) سناج (بكسر السين) : أثر دخان السراج في الحائط مثلا .

(٤) بنيلوب PENELOPE : زوجة أوليس ووالدة تيليماك . ظلت أمينة لزوجها في غيابه عشرين سنة على وفرة من تقدموا لخطب ودها والزواج بها . يضرب بها المثل في الأمانة الزوجية .

(٥) الضرارة (بكسر الضاد) : العمى .

(٦) أروب (بتسكين الراء وفتح الواو) متراخي العزيمة .

(٧) اخر الموهيكان THE LAST OF THE MOHICANS : رواية الكاتب الأمريكي جيمس فينيمور كوبر J.F. COOPER (١٧٨٩ - ١٨٥١).له روايات يفيض بالمغامرات وبوصف عادات الهنود الحمر وطبائعهم .

* * *

نموذج الحرب في القصة الفلسطينية القصيرة

أحمد حسين حميدان

نرى أكثر البحوث والدراسات اذا لم نقل كلها أن الخصوصية التي يتسم بها الأدب العربي الفلسطيني بصفة عامة نابعة من المعاناة اليومية داخل الأرض المحتلة من جهة ومن المعاناة اليومية الأخرى خارج حدود هذه الأرض من جهة ثانية . . وقد أكد بابلو بيكاسو ذات الرؤية قبل أن يغادر مرسمه ويرحل عن عالمنا عندما أشار إلى أن فنه المضاد ليس من صنع يديه أو من انتاج ألوان ريشته ، بل جرائم النازية هي التي نقشت معظم لوحاته بعد اندغام آثارها بين أصبغته كشاهد يقظ ودائم في ضمير الانسانية ووجدانها المعذب ! . .

هذه المقولة تحرقنا بوهجها كلما اقتربنا من الآداب الفلسطينية لأنها تحوي على كل سطر من سطورها آثار التآمر على الجسد الفلسطيني .. فضلاً عن مأساة العربي المقعد تحت المنشار الصهيوني الذي يأكله جيئة وهو في فلسطين المحتلة وذهاباً وهو في عموم وطنه العربي ؟ ! . .

واذا قدر لهذا المنشار الحاد أن يستمر بفاعليته الثنائية دون نهاية محددة فان الآداب العربية الفلسطينية نفضت كلتا يديها من العربي المتخاذل الذي رسمته الآداب الصهيونية برؤية ذرائعية . وكنا قد وجدنا بقاياه برواية « خربة خزعة » للكاتب الصهيوني « يزهار سيملا نسكي »(١). وقدمت هذه الآداب الفلسطينية كبديل عنه شخصية أخرى لا تعرف سوى البندقية والمقاومة المستمرة . . وبات الكاتب الفلسطيني بشكل خاص لا يستطيع تقديم أية كلمة أو أي شيء آخر إلى هذا العالم إلا من بوابة الحرب ونارها الكاوية لأنه لا يستطيع أن يبصر أحداً ما في الكون كله إلا من خلال فلسطينه المحتلة ! . . فقدم لنا نتاجات مختلفة حرص فيها على رصد المجابهة عند بطله المقاتل في حرب متعددة الوجوه خاضها ضد أعدائه . وقد استطاعت القصة الفلسطينية القصيرة نقل جانب كبير منها من خلال نموذجين اثنين . . . النموذج الأول مأخوذ من داخل الأرض المحتلة . أما النموذج الثاني فمستمد من حدود أرحب عبر ساحات الديسابورا الممتلئة بالتشرد والتشتت والضياع . . وسنحاول التعرف على ماكابده النموذج الأول في مقاومته للعدو المحتل من خلال قصص « نقوش على جدران الزنزانة » لوليد رباح بينما سنسعى للاطلاع على ما لقيه النموذج الثاني في معاركه الأخرى ضد العدو ذاته بعد النزوح إلى الأراضي العربية المجاورة وذلك من خلال مجموعة

قصص « المهرة » ومجموعة قصص « نورما ورجل الثلج » ليحيى يخلف(٢) .

١ – النموذج الأول

بقصص نقوش على جدران الزنزانة

ـ بدايات الحرب الفلسطينية قبل مرحلة الديسابورا :

بينّا في دراسة سابقة بأن الحرب ليست عسكرية فقط . انما هناك حرب أخرى ربما كانت أكثر شراسة وديمومة من سابقتها . . فهي تبدأ بجسد الفرد الواحد بين كرياته البيضاء والجراثيم العصرية المنتشرة تحت الأرض في الأقبية ودهاليز السجون حتى تصل إلى حدود الحلم وإلى كافة أشكال القهر وظروف الاستغلال ، فتشمل الوطن كله(٣) .

في سياق هذه الرؤية تأتي مجموعة قصص « نقوش على جدران الزنزانة »(٤) للكاتب الفلسطيني وليد رباح محاولاً فيها اظهار الشخصية الفلسطينية الفاعلة ضمن اطارها التاريخي ممثلة بأجيالها المتتالية التي يؤرخ لها الكاتب منذ عام – ١٩٣٦ – أي منذ الانتداب الإنكليزي الذي تلاه الاغتصاب الصهيوني مشيراً إلى توحد صيغهما الجوهرية في نمطية التعامل القائمة على أساس الاستلاب والقمع والخراب .

فالزنزانة التي استخدمها الانكليز في كم الأفواه الفلسطينية أيام الثورات الأولى يستخدمها الاحتلال الاستيطاني الجديد لذات الغرض في تعذيب المقاتل الفلسطيني الرافض . هذه الوحدة المكانية تتيح لبطل القصة قراءة النقوش المكتوبة على جدرانها وعندما يفعل يجدها وصايا

ثائر لم يعد يحتمل التعذيب فاعترف ببعض الأسرار لجلاديه من الانكليز لقاء خلاصه الموعود ، لكنه يكتشف اللعبة بعد فترة ويعرف أن هذه الوعود التي قطعوها له كانت خدعة ليس إلا ، لذا يحذر غيره كي لا يقع في الورطة نفسها قائلاً : « زرتها في الأول من تموز عام ١٩٣٦ .. عذبوني . . بحت في اليوم الأول باسم أمي وفي اليوم الثاني علموا اسم أبي وفي اليوم الثالث والرابع لم أكن أدري أحي أنا أم ميت »(٥) .

ان هذه النقوش التي قابلها بطل أكرم شريم بالصمت حينما وردته على شكل سؤال ضاع في الفراغ بمجموعة « السجناء لا يحاربون »(٦) اتخذ منها بطل الرباح موقفاً معكوساً يوضح أبعاده في قصة أخرى هي « لن يطول الليل » اذ يتجه بطل القصة إلى غرفة التعذيب ويتمدد على أرضها ملقياً بالحبل في وجه أحد جنود الاحتلال صارخاً به : « اربطني وعذبني كما تشاء » ! بهذا الشكل يحدد الكاتب وجه استفادة أبطاله من التراث النضالي الفلسطيني مستخدماً المناظرة التي عقدها منذ القصة الأولى بين جيل الثلاثينات الفلسطيني والأجيال الفلسطينية الأخرى التالية لهذه الحقبة التاريخية لذلك نجد الحدث القصصي عند الرباح لا ينفصل عن الحدث التاريخي الذي يظهر شيئاً فشيئاً ويتنامى مع تداعيات البطل وحواره ليشمل المادة القصصية كلها كما في قصة — نقوش على جدران الزنزانة والحبل — مما جعل المجموعة القصصية غنية بالمواقف البطولية التاريخية — الموضوعية — للمقاتل الفلسطيني على عكس المواقف التي قدمته بها الآداب الصهيونية . . .

واذا كان الملك ميدياس قد مات جوعاً بعد أن تحول كل شيء لمسه إلى ذهب كما تحكي الأسطورة فان الإنسان الفلسطيني في قصة

« قطعة سلاح يارب » لأكرم شريم يرغب بأن يتحول كل شيء يقترب منه إلى بندقية ! . . .

وهذه الرغبة تتحقق بالفعل عند وليد رباح عندما يستغني « حسان » بطل قصة « زينب تباع ببندقية » عن خطبة حبيبته – زينب – ويقتني بمهرها الذي جمعه من الموسم بندقية مؤكداً لنا في نهاية القصة أن البندقية تساوي ألف زينب(٧) ! . . .

بهذه الرؤية يتجاوز الكاتب كافة الطروحات الوجودية التي تقرر عجز الإنسان عن القيام بأي فعل دون حرية . . .

وبذات الرؤية ومع تعمق الحدث القصصي تتجاوز بطلاته أيضاً مقولات سيمون دوبوفوار في كتابها « الجنس الآخر » الذي تشير فيه أنها اكتسبت حركة بمقدار ما حققت من حرية .

فأم محمد العكرومية رغم الاحتلال كانت تقدم الزوادة إلى الثوار قائلة ان زوادة المدفع أولاً . والمرأة في قصة « الحبل » باعت – ذهب عرسها – كي تشتري لزوجها بندقية صواري وثالثة أدخلت أحد رجال المقاومة إلى بيتها كبديل عن زوجها الغائب حتى لا يقبض عليه(٨) .

إن بدايات المأساة الفلسطينية كما يراها الرباح ليست بالتشرد الفلسطيني وحسب بل من خلال تخاذل ملاك الأراضي أمام الشخصية اليهودية التي رسم مسارها بن غوريون وتيودور هرتزل وهذا الأمر لعب دوراً مهماً في تحقيق الآراء الصهيونية وأحلامها حسب قول هرتزل في مذكراته اليومية : « يجب أن ننتزع بلطف الملكية الخاصة من المقاطعات المخصصة لنا سنحاول أن ندفع بالسكان المعوزين عبر

الحدود ويتم ذلك بتأمين الأعمال لهم في البلدان المجاورة ومنعها عليهم في بلادنا ، أما الملاكون فانهم سيقفون إلى جانبنا » ضمن هذه الرؤية يخرج الملاك من إطار المقاومة متحولين إلى سماسرة وعملاء سريين وأدوات تنزع الملكية بشكل طوعي على حد تعبير هرتزل ويوضح وليد رباح لنا ذلك في قصته « الطيف » فنجد أن التاجر هو اليهودي والسمسار هو مختار القرية ! . . وعندما يرفض عبد الجواد بيع أراضيه لليهودي يطاله الأذى من المختار فيتدخل بطل القصة « محارب » الذي كان في الجبل ومعه بندقيته ويصرخ بوجههم : « قفوا حيث أنتم . . إلا أنه رفض أن يبيع أرضه لليهود .. تفوا عليك يا من بعت شرفك بالليرات»(٩).

يقدم الرباح ادانته لسلوك هؤلاء الملاك لأن تخاذلهم نتج عنه كردة فعل مقاومة فردية غير متكافئة عبر أزمة الصراع وهذا ما يرد على لسان أبو عبد الجواد الذي يقول بعد حادثة بيع الأراضي على الفور : « ملعون أبوك يا عبد الجواد الذي هو أنا . لِمَ لَمْ تصعد الجبل مع محارب لو كنت هناك وآخرون من القرية غيرك لما تجرأ أن يصبح سمساراً يبيع الأرض لليهود ..»(١٠) .

إن الشخصية الصهيونية تستخدم شتى الأساليب المكيافيلية لتحقيق أهدافها وغاياتها كما هي انتهازية يانكل في رواية غوغول « تاراس بولبا»(١١) وجشع شايلوك في تاجر البندقية لشكسبير . نجد جشع اليهودي ووصوليته بقصص الرباح .

وينبع رفض الكاتب للمقاومة الفردية أمام الشخصية الصهيونية تلك نتيجة عدم جدواها بمسألة الصراع ذاتها .

وبذلك يرسم وليد رباح المسار الفلسطيني عبر المقاومة الجماعية الواعية لكافة رموز وصيغ الاحتلال . .

ان مجموعة قصص « نقوش على جدران الزنزانة » تفتح آفاقاً رحبة أمام الشخصية الفلسطينية كي تنهي أزمتها الدياسبورية الخانقة .

من هذه الآفاق تستمد المجموعة قيمتها الدلالية بمسيرة الصراع العربي الصهيوني الطويلة . . .

٢ ــ النموذج الثاني

بمجموعة قصص المهرة

ــ متابعة الحرب بعد مرحلة الديسابورا :

رأينا فيما سبق كيف قدم وليد رباح عدة صور عرض فيها الحال الفلسطينية داخل الوطن المحتل . وقدم عدة نماذج بطولية عبرت عن مجابهة فردية غير منظمة لم تستطع ايقاف أو منع العصابات اليهودية الصهيونية ــ المدعومة من الدول الاستعمارية ــ من التوسع على حساب الأرض العربية الفلسطينية وطرد وتشريد سكانها إلى الدول العربية المجاورة ليعيشوا مأساة جديدة ومعاناة اضافية في ظل الأنظمة العربية المختلفة صوّر الأدب العربي الفلسطيني جزءاً هاماً منها نذكر على سبيل المثال رواية « الفلسطيني الطيب »(١٢) للشاعر الشهيد علي فودة التي عرض فيها وضع القضية الفلسطينية وهي تتعرض للممارسات التصفوية داخل المعتقلات الأردنية وقد أظهر لنا من خلالها الخيانة العظمى متمثلة بقمعية السلطة وتخاذل « عبد التواب الفواعرة » أمامها في حين أن الرئة

الفلسطينية بقيت تحيا وتتنفس بصمود « عثمان الأعرج » رغم مناخ أيلول — المجزرة — البارد بدهاليزه ورطوبة زنزاناته ثم يكمل البقية بعدئذ « بصابر مطر » الذي قرر متابعة المسير إلى الجنوب اللبناني .. ويعيدنا يحيى يخلف إلى هذه الأجواء مرة أخرى بمجموعة « المهرة»(١٣) عبر الفلاش باك موزعاً أبطال قصصه على عدة محاور متشابكة وموصولة بين الزنزانة — المأزق والحاجز — والمقاومة الفدائية المستمرة — التجاوز — كطريق وحيدة لا مناص من السير فيها باعتبارها جواز مرور الشخصية الفلسطينية إلى حيز الوجود وعلى الرغم من توحد مناخ العملين الروائي عند فودة والقصصي عند يخلف فاننا نجد الأول قد اعتمد على الحاجز — زنزانة أيلول — الذي منع أشخاصه الروائية من القيام بأي ردة فعل ازاء نبأ اغتيال غسان كنفاني كحدث أولي في الرواية مما سبب لهم النكوص واللجوء إلى المنلوج الداخلي لاعادة لحمة التوازن كتعويض مبدئي من الناحية السيكولوجية أما الثاني فقد اعتمد على المأزق والحاجز معاً وصور من خلالهما نكوص أشخاصه القصصية ليلتقي من جديد مع نظيره علي فودة بمسألة التعويض التي تمت بالعمليات الفدائية بمجموعة المهرة وانطلاقة صابر مطر إلى صفوف المقاومة الفلسطينية المتمركزة بالجنوب اللبناني برواية الفلسطيني الطيب . . .

وقد لاحظنا اكتمال الفصول الأولى للمأساة العربية الفلسطينية بالمقاومة الفردية التي صورها وأدانها وليد رباح . وحين عاق أمله بالأظافر الفلسطينية التي قدم لأصحابها وصايا الشيخ القائلة : بأكل كل طعام يحوي الكلس حتى تنبت هذه الأظافر قوية حادة تمزق كل شيء ...

فان هذا الأمل سرعان ما يتبخر دفعة واحدة عند يحيى يخلف وفي قصة « أيلول ذات الأظافر » اذ يخبر بطل القصة المرأة المتمددة على السرير نتيجة ما أصابها من انهاك وتعب – الوطن المحتل – قائلاً : « . . أجلسوني على الكرسي . . وربطوا يدي من الرسغ بالملازم . . أحضر خبير التعذيب كماشة . . كماشة عادية . . أغلق فكيها على أظافري واحداً واحداً وانتزعها وسال الدم بغزارة . . »(١٤) وخبير التعذيب الآنف الذكر الذي انترع الأظافر – الأمل الفلسطيني – ليس صهيونياً بل ترميز واشارة لايلول الأردن ولبنان الأنظمة العربية المتخاذلة بعد اكتمال الفصول الثانية للمأساة الفلسطينية والعربية . .

وشيخ الرباح تقابله صورة الجد بقصة يخلف « يوميات المواطن سين »(١٥) . . وفي الوقت الذي تقتضي فيه حكمة شيخ الرباح أن يستبدل حسان أظافره ومهر حبيبته زينب ببندقية نجد أيضاً أن حكمة جد يخلف قد اقتضت بأن يستبدل حفيده أظافره وأساور أمه ببندقية مماثلة بعد شتمه لأنه يجهل استعمال السلاح وهو البالغ من العمر عشرين عاماً ! . .

ويقدم الكاتب بقايا فصول المأساة بقصته « المشجب والعجز » .

ففي القصة الأولى ومن خلال الهزيمة الحزيرانية يؤكد البطل : « ... ان كل واحد فينا سيحاول أن يبعد عن نفسه التهمة ويلصقها بالآخرين وكل واحد فينا يبحث عن مشجب يعلق عليه أخطاء الهزيمة..»(١٦)

وفي القصة الثانية نجد البطل مشلولاً ويتحرك بفناء بيته بواسطة عجلات مستوردة وبينما كان يستمع إلى راديو ترانزيستور يُطرق

عليه الباب وعندما يفتح تدخل عليه فتاة فقيرة وجميلة تخبره بأن عملها تنظيف البيوت وهي مستعدة لتنظيف بيته اذا كان لا يمانع وعندما ينظر اليها بعد فراغها من تنظيف البيت يجدها رائعة لولا البثور التي شوهت وجهها وتساوره رغبة جامحة باحتضانها لكن عجلته لا تسمح له إلا بالحركة عبرها دون النهوض فتنتهي القصة بذهاب الفتاة ويبقى هو وحيداً مع سأمه .

ان يحيى يخلف بقصته هذه يطرح مسألة مهمة وخطيرة هي اتكاء الوطن العربي بكامله على القوى الأخرى غير العربية من أجل تحقيق كافة قضاياه المصيرية التي دخلت مرحلة الاستهلاك . هذا ما يتمثل بالشاب الضعيف المشلول الذي اتكأ على عجلته المستوردة كي يصل بمساعدتها إلى وطنه المحتل المجسد بالفتاة المليئة بالبثور — الاحتلال — لكنه يفشل كما ذكرنا ولا يستطيع بلوغ الهدف(١٧) .

بهذه الصيغ يطالب يحيى يخلف وطننا العربي بتصنيع كل شيء عربياً حتى يدخل مرحلة الفعل الحقيقي بصراعه الطويل والمرير مع أعدائه . لأن الحضارة الاستهلاكية التي نعيش على بقاياها من خلال الاستيراد لا تسمح لنا إلا بالحركة المحددة ضمن مسار صناع الآلة لا ضمن مسارنا الذي نريد وهذا التحديد فاصل شاسع بين الإنسان العربي وطموحاته وأهدافه القريبة منها والقصوى على حد سواء ! . .

من هذه النقطة ذاتها يلخص الكاتب مجمل المأساة الفلسطينية بحكاية الطائر الأخضر قائلاً : « . . أنا الطائر الأخضر . . مرة أبي ذبحني . .

أبي آكل من لحمي . . وأختي للمتني .. ولما طلع القمر . . صرت طراً أخضر . . ! .

وعلى الرغم من هذه النهايات تظهر الشخصيات عند يخلف غير يائسة أو قانطة كأبطال الكاتب العربي السوري أديب النحوي الذين لا يعرفون الهزيمة أو التخاذل قطعاً إذ أننا نجدهم منتصرين دائماً . وقد جاءت روايته الأخيرة « سلام على الغائبين » لتؤكد الرؤية ذاتها ، فالهزيمة الحزيرانية ومآسيها لا تطال أشخاصه الروائية لأن الشهادة أقرب لهم منها أو الأسر في أسوأ الأحوال(١٨) ! . .

وفي قصص مجموعة المهرة نجد بطل قصة المشجب رغم الاختلاف حول أسباب الهزيمة يكتب رسالة لأمه يقول فيها : « . . . أمي . . منذ اليوم سأكون رجلاً . . أقسم بتراب الوطن . . » وفي قصة المهرة التي احتلت عنوان المجموعة تزرع مجموعة فدائية لغماً في احدى الطرق داخل الوطن المحتل . وبعد زرعه يهطل المطر فتنزعج المجموعة من جراء ذلك وتحزن لأن اللغم سيفقد فاعليته نتيجة الرطوبة التي سببها المطر لكن الصوت الذي يصدر بعد قليل يعلن انفجار اللغم الفلسطيني رغم المطر تحت مجزرة اسرائيلية(١٩) !

ان كل الطرق كما ترسمها القصة الفلسطينية القصيرة – والأدب العربي الفلسطيني عموماً – مؤدية إلى البندقية والمقاومة والحرب المستمرة دون هوادة اذ لا يمكن للوجود الفلسطيني أن يقوم ويقف على قدميه إلا بهذه الرصاصة التي قدمها يحيى يخلف وبقدمها باستمرار مجموع أدباء القضية الفلسطينية . .

ونشير بأن يحيى يخلف بمجموعته القصصية « المهرة » استخدم شتى التقنيات والأساليب الفنية لبصدر عبرها الجراح الفلسطينية وحربها المشتعلة . . فاعتمد على السرد المباشر في قصة الطائر الأخضر واستخدم الرمز في قصة العجز واعتمد على التعبيرية في قصة « يوميات المواطن سين » وهذا ليس جديداً ولا تستمد منه قصص الكاتب أهميتها لأن القيمة التي تحظى بها هذه المجموعة القصصية آتية من الدلالة المعبرة عن مأساة وألم الفلسطيني — خارج الوطن المحتل — الذي تزداد مقاومته ضراوة وعناداً كلما اتسعت جراحه ! . .

٣ — النموذج الثاني

بقصص نورما . . ورجل الثلج

— متابعة الحرب في مرحلة لاحقة :

اطلعنا قبل قليل على يحيى يخلف بمجموعته القصصية « المهرة » وهو يرافق ويلات الشخصية الفلسطينية وهي تحيا على أرض شقيقتها الأردن . .

وبمجموعته القصصية الثانية « نورما ورجل الثلج »(٢٠) يتابع معها بقية الرحلة إلى الجنوب اللبناني . . وإذا كان قد انتزع الأظافر الفلسطينية في مجموعته الأولى وانتزع معها أمل وليد رباح المعلق بها في مجموعة « نقوش على جدران الزنزانة » فانه في المجموعة القصصية الثانية يقدم بديل هذه الأظافر بالغيمة التي تنذر بالطوفان مع الاحتفاظ بالبندقية كزوادة لا بد منها في الرحلة الفلسطينية الشاقة والطويلة التي

تمتد إلى أكثر من مكان وإلى أكثر من مسألة على حد قول بطل قصة « الدمية »(٢١) .

« . . وعندما كنا نمشي شرحت لها حكاية الدمية التي عشقتها في شارع صلاح الدين . . قريباً من السور القديم وباب الزاهرة عندما كنت طالباً في معهد المعلمين . .

ـ لكن هذا في القدس . . هززت رأسي لها . .

ـ من القدس إلى عمان ومن عمان إلى دمشق! . ومن دمشق إلى بيروت . . ومن بيروت إلى الأعوام الصعبة . . » .

وكما هي المجموعة عند الروائي السوري نبيل سليمان قد استطاعت قهر الثلج وازاحته عن الطريق في رواية « ثلج الصيف »(٢٢) نجد أيضاً سعيداً أبو جابر في قصة « نورما ورجل الثلج » التي عنون الكاتب يخلف مجموعته بها قد حفر وسط الثلج عبوراً لمجموعته الفدائية وشق طريقاً أمام الدوشكا الفلسطينية كي يكفل لها استمرارية العمل دون توقف أو اجهاض لفاعليتها ويأتي هذا الفعل كصرخة احتجاج في وجه كل من يحاول تضييق المسار أمام المد الفدائي الفلسطيني الذي يزحف دائباً دون هوادة إلى داخل الأرض المحتلة ليؤكد حضوره ويفضي إلى أعدائه بكل ذخائره . . هذه الصرخة الاحتجاجية المقدمة بمجموعة نورما ورجل الثلج توازي احتجاجية نبيل سيمان على سلطوية الحرب وهزيمتها الحزيرانية ثم تجاوزه لها فيما بعد من خلال متابعة سفر المجموعة ، رغم أن هذا التجاوز يبدو مستحيلاً كاستحالة الهزيمة في ذهنها وكاستحالة هطول الثلج صيفاً كذلك ! . .

عبر هذه الصيغ المستحيلة يدخل نبيل سليمان إلى الواقع العربي مغايراً ومتجاوزاً القوانين الطبيعية التي لا تقر إلا بثلج الشتاء . بينما هو قدم ثلجاً آخر لصيف حزيران ١٩٦٧ وهزيمته المدهشة . . ويتوحد يخلف مع ثلج زكريا تامر وتوقيته الشتوي الذي اختاره تامر ليعلن فيه عن حربه على العادات والتقاليد العشائرية بقصته « ثلج آخر الليل » إلا أن الاختلاف الزماني أو التوقيتي بمسألة رمز الثلج لا تلغي اقتراب مداليل هذا الرمزين نبيل ويخلف . . فالأول جسّد الخيانة وحرارة الهزيمة الحزيرانية بثلجه الصيفي والثاني مثّل برودة التآمر على القضية الفلسطينية وحربها المشروعة . ضد الاحتلال بثلجه الشتوي . . وكلاهما يقتربان مجدداً بالرؤية من خلال انتصار الشعب كحتمية تاريخية في رواية ثلج الصيف وانتصار المقاومة الفلسطينية بشق طريق وسط الثلج وايصال الدوشكا إلى التل لمواصلة الكفاح المسلح في مجموعة قصص « نورما ورجل الثلج » التي قدمت لنا الهمّ الفلسطيني بشكل أكثر تفصيلية وانفلاشاً على عكس ما جاء في مجموعة يخلف الأولى « المهرة » . .

وهذه التفصيلية وذاك الانفلاش يوازيان معاً خط الديسابورا الفلسطينية اللا محدودة . وبذلك يتضخم الهم الفلسطيني ويتوزع على امتداد وجوده . .

فأبطال قصص يحيى يخلف اضافة إلى همهم الذي ينصب حول قضيتهم المحورية يعيشون الهموم العربية المختلفة الأخرى ، باعتبارهم يبصرونها ويعانون منها بعد أن أضحت جزءاً من حياتهم العامة طالما يتواجدون على امتداد الوطن العربي . . هذا ما يتبدى في قصص

« البحر وأشجار الليمون وجواد أبيض ، وعربي المقهور ، والمطار ...(٢٣)
وفي قصة « البقاع » ينتقل يحيى يخلف من القضية الفلسطينية إلى مجمل المأساة اللبنانية من خلال شخصية « أبو حنا » الفقير الذي يعمل حارساً على قصر البيك الهارب من جحيم الأحداث وقذائفها المدمرة . ويحكي أبو حنا للمجموعة الفدائية هجران زوجته له مبيناً أسباب ذلك قائلا : « اختلفنا . . . إنها لا تريد أن تحبل وتلد طفلا خوفاً من الموت ، وكنت أريد طفلاً ، كانت تخاف الموت ، وكنت أحب الأولاد ، مرت سنوات طويلة ، وتحولت حياتنا إلى جليد فذهبت إلى أهلها ولم تعد »(٢٤) .

يتبين لنا من قول أبي حنا أن الزوجة هي المسؤولة عن مأساة ما حدث ، والمقصود بها جميع الشخصيات اللبنانية الطائفية التي تراهن على وجودها برصيد دمار الوطن وهجران الزوجة لأبي حنا وعدم انجابها لخشيتها من الموت يمثل خوف هذه الشخصيات الطائفية من النهاية والموت في المستقبل المتمثل بالطفل الذي لم ينجب بعد . .

ومن الواقع اللبناني يدخل يخلف إلى الواقع العربي بصفة شمولية مصوراً في قصة « مقامة من كتاب الزيت » تحول الثروة النفطية العربية إلى وباء ! . . ويكمن سبب هذا التحول المدهش إلى التخلف والتبعية العربية والضعف العربي الراهن الذي أتاح وما زال يتيح للأيدي الأجنبية الاستفادة المطلقة من الثروات العربية وخصوصاً النفطية التي ينقلونها بسفنهم ، مخلفين وراءهم وباء الزيت يطفو على امتداد بحر العرب(٢٥) ؟ ! . . .

ضمن هذا الشمول يطرح الكاتب وجهاً آخر للمرأة العربية في قصته « المطار » يختلف كلياً عن وجهها الايجابي الذي وجدناه في

مجموعة « المهرة » إنه الوجه الاستهلاكي لها الذي ما زال أسير الأصبغة والبارفانات المستوردة بعيداً عن معايشة واقعها المفروض بشكل فعلي وقضايا أمتها المصيرية متحولة إلى جسد إغرائي وكأنها ابنة مجتمع متربولي ! . . . هذه الشخصية الأنثوية المكيجة لاقت حتفها عند الكاتبة السورية قمر كيلاني في مجموعتها « امرأة من خزف » في حين أن غادة السمان بقيت تراوح معها في أكثر أعمالها الروائية والقصصية ، محاولة عبرها إعادة لحمة التوازن في المعادلة الانسانية وصيغها الناقصة دون جدوى ! . . .

إلا أن هذه المعادلة يعطيها يحيى يخلف قوامها « برجل الثلج » المنتمي إلى صفوف المقاومة و « بنورما » المرأة التي تتخلى عن أصبغتها وترقى من الأحمر الذي يصبغ الشفاه إلى أحمر دم الشهداء ومن الأخضر الذي يظلل ما تحت الحاجبين إلى أخضر عشب محتل . لتحيا قضاياها وقضايا أمتها المصيرية الكبرى ! . . . ولا بد من الاعتراف بعد هذه الصورة الايجابية . أن بعض قصص مجموعة « نورما » و « رجل الثلج » نالت كبوة مريعة من الناحية الفنية والتقنية خصوصاً قصة « البقاع » وهذه مردها إلى الكاتب يحيى يخلف لأنه أسير تنظيرات أيديولوجية ضيقة مارس عبرها فنه القصصي هذا الأمر حرم بعض أبطاله من الحركة الضرورية أثناء تجسيد الحدث القصصي ، فأوقعهم في شراك النمطية التي فرضها عليهم فرضاً . كحالة الحالة التي نراها عند أبي حنا بطل قصة « البقاع » الذي بقي حارساً أميناً على أملاك البيك رغم الخطر الداهم من جراء الحرب الأهلية اللبنانية ويتخذ قراراً بعدئذ بفتح باب القصر والدخول إليه متجاوزاً بذلك تعليمات البيك ذاته كعنصر أراد

أن يحرزه الكاتب لأبي حنا ضد السيد المالك لكنه في الحقيقة هزيمة كبرى المكابرة بها لا تجدي نفعاً لأن الحرب وقذائفها المدمرة لن توفر شيئاً على الاطلاق حتى حجارة القصر الفاره وحارسه الفقير البائس « أبو حنا » أما البيك فقد نفد بريشه وسيركب حصان العودة في أول فرصة سانحة ! ..

بالمقابل تبقى قصة « نورما ورجل الثلج » التي احتلت عنوان المجموعة أكثر اضاءة وتألقاً في المجموعة كلها ، اعتمد الكاتب في سياقها على الرمز ومن خلاله استطاع رجل الثلج — المنظمة الفدائية — محاكاة حبيبته النحيلة نورما — القضية والوطن — رغم الثلج — الحاجز وكان الكلام بينهما هو قذائف الدوشكا الفلسطينية ! . . . وتحار المجموعة الفدائية بالغيمة التي تنذر بالطوفان « فيقول المتطوع : غيمة بيضاء مثل الأرانب البرية ويقول يوسف : وإنها تسافر ولا تتوقف عن السفر .. ويقول أبو أروى : وإنها ستحلق فوق سماء المخيم .

ويقول سعيد أبو جابر : غيمة بيضاء وناصعة مثل فستان زفاف لامرأة طويلة ونحيلة وذات عينين زرقاوين ووجه مملوء بالنمش...»(٢٦).

عبر هذه الرؤية يعلن الأدب العربي الفلسطيني نهاية البطولة الفردية السوبرمانية وعدم جدواها بمسألة الصراع الصهيوني ليقف إلى جانب البطولة الجماعية فالحسم النهائي يظهر عند غسان كنفاني — بأم سعد وعائد إلى حيفا(٢٧) — لصالح المقاومة الفدائية التي تنتصر مجدداً عند اميل حبيبي وجبرا ابراهيم جبرا وما كان اختفاء «سعيد أبي النحس المتشائل»(٢٨) عند حبيبي و « وليد مسعود » عند جبرا إلا اختفاء الفرد لصالح المجموعة النضالية المنظمة التي قدمت قوافل من الشهداء كان منها

روح الشهيد عبد الرحيم محمود المحمولة على راحته حتى النصر ، وروح الشهيد راشد حسين المؤكدة قبل اغتيالها على عدم جدوى الأحلام خارج الساحة النضالية وروح الشهيد علي فودة وآخرون شكلوا معاً الرؤية النضالية الفلسطينية المعاصرة التي تلمّس جانباً منها يحيى يخلف في بعض قصص مجموعة المهرة ونورما ورجل الثلج بينما غابت عن بقية القصص الأخرى .

هوامش ومراجع

(١) للاطلاع على الصورة غير الحقيقية التي رسمها الكاتب الصهيوني يزهار سيملا نسكي للشخصية العربية عد الى رواية خربة خزعة – ترجمة توفيق فياض وطباعة دار الكلمة – بيروت ١٩٨١ .

(٢) راجع لأحمد حسين حميدان دراسات حول القصة الفلسطينية والمنشورة ضمن الأعداد التالية لجريدة تشرين السورية / ٢٣٢٥ – ٢٣٤٧ – ٢٤٢٠ / دمشق ١٩٨٢ – ١٩٨٣ .

(٣) للاطلاع على وجوه الحرب في القصة القصيرة عد الى دراسة : أحمد حسين حميدان المنشورة بمجلة المعرفة – الصادرة عن وزارة الثقافة السورية – العددان (٣١٦ – ٣١٧) دمشق ١٩٨٩ .

(٤) مجموعة قصص نقوش على جدران الزنزانة لوليد رباح – صادرة عن دار العودة – بيروت ١٩٧٤ .

(٥) نفس المرجع السابق – قصة نقوش على جدران الزنزانة ص ١٠

(٦) مجموعة قصص السجناء لا يحاربون لأكرم شريم – صادرة عن اتحاد الكتاب العرب العرب دمشق ١٩٧٢ .

(٧) مجموعة قصص نقوش على جدران الزنزانة – قصة زينب تباع بيندقية ص ٦٠

(٨) نفس المرجع السابق – قصة أعلان على جدار المخيم ص ٣٠ – وقصة الحبل ص ٤٥ وقصة السرداب ص ٦٦ .

←

(٩) نفس المرجع السابق – قصة الطيف ص ٩٣
(١٠) نفس المرجع السابق – قصة الطيف ص ٩٤
(١١) رواية تاراس بوليا – لغوغول – ترجمها الى العربية عوض شعبان – وصدرت بطبعة ثانية عن دار الفارابي – بيروت ١٩٨١ .
(١٢) رواية الفلسطيني الطيب لعلي فودة – صادرة عن دار ابن خلدون – بيروت ١٩٧٩
(١٣) مجموعة قصص المهرة ليحيى يخلف – صادرة بطبعة ثانية عن دار الحقائق – بيروت ١٩٨١
(١٤) نفس المرجع السابق – قصة أيلول ذات الأظافر ص ٥١ .
(١٥) نفس المرجع السابق – قصة يوميات المواطن سين ص ٣٤ .
(١٦) نفس المرجع السابق – قصة المشجب ص ٨٠ .
(١٧) نفس المرجع السابق – قصة العجز ص ٩٢ .
(١٨) رواية سلام على الغائبين لأديب النحوي – صادرة عن دار الوحدة – بيروت ١٩٨١
(١٩) مجموعة قصص المهرة ليحيى يخلف – قصة المهرة ص ٦٣ – وقصة المشجب ص ٨٤
(٢٠) مجموعة قصص نورما ورجل الثلج ليحيى يخلف – صادرة عن دار ابن رشد – بيروت ١٩٧٧ .
(٢٢) نفس المرجع السابق – قصة الدمية ص ٤٠ .
(٢٢) رواية ثلج الصيف لنبيل سليمان – صادرة عن دار الأجيال – الطبعة الأولى ١٩٧٣
(٢٣) هذه القصص المذكورة من مجموعة نورما ورجل الثلج ليحيى يخلف .
(٢٤) نفس المرجع السابق – قصة البقاع ص ٣١ .
(٢٥) نفس المرجع السابق – قصة مقامة من كتاب الزيت ص ٧١ .
(٢٦) نفس المرجع السابق – قصة نورما ورجل الثلج ص ٢٤ .
(٢٧) للاطلاع على هذه الأعمال المذكورة لغسان كنفاني – عد إلى الآثار الكاملة المجلد الأول – الصادرة عن دار الطليعة – بيروت ١٩٧٢ .
(٢٨) انظر – اميل حبيبي والوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل صادرة عن دائرة الاعلام والثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٨٠ .

★ ★ ★

ردود وتعليقات

إلى رئاسة تحرير مجلة المعرفة .

هذه بضع ملاحظات اردت تسجيلها حول مقال الأستاذ د . مسعود بوبو في مجلتكم المعرفة العددان ٣٢٠ آذار و ٣٢١ نيسان لعام ١٩٩٠ عسى ان تجد طريقها الى مجلتكم الكريمة .

«ينحو الكاتب منحى العرض السردي التاريخي تجاه ما عنون به مقالته النشاط اللغوي عند العرب في عصر النهضة ويقف كمراقب خارجي للاحداث وبشكل لا يخلو طبعاً من الاعجاب والتفاؤل الى درجة التسليم بعظمة هذه المنجزات التي انجزها رواد عصر النهضة مع ان المسألة

بحاجة إلى أكثر من قراءة متأنية وإعمال الأداة التحليلية العلمية وبشكل شامل وبالتالي كان لا بد من عدة ملاحظات يمكن أن تكون جديرة بالتسجيل نوردها هنا .

١ — ان ما يذكره الكاتب عند المؤثرات الفعالة التي ساهمت في اقامة صرح النهضة في ص ١٥ بقيت على السطح ولم تخترقه إلى العمق فالمدارس والعلم والتعليم كان ضيقاً لم يتجاوز اطار الخاصة على أبعد تقدير كما ان التمازج الثقافي مع الغرب لم يكن تمازجاً بقدر ما كان تماهياً ، فالغرب جاء كمستعمر محتل ، وبقي جذر الثقافة الغربية العقلاني ابروميثيوسي غائباً لم يقبض رواد النهضة عليه .

٢ — يرد في ص ١٨ « .. فهذه الجمعيات — المجامع هي التي كونت النواة الأولى للنهضة العربية التي نجني ثمارها اليوم في ميادين العلم والمعرفة . . . » .

ما هي هذه الثمار التي نجنيها اليوم ! في ظل غياب شبه كامل لجهاز مفاهيمي يحكم خطابنا اللغوي ؟

ان المهمة لم تكن تبدأ .

٣ — وإذا كان الكاتب يتبين وجهة نظر ابن باديس من خلال ما أورده له في ص ١٩ نجد ان المسألة بحاجة إلى نقد وأكثر من ايضاح « .. ان اللغة بكل تأكيد هي معطى سابق . . ولكن اللغة القومية هي معطى لاحق أنها بنت الوعي وليست أمه » جورج طرابيشي . الدولة القطرية في النظرية القومية ص ١٠٩ .

٤ — ان ما يتحدث عنه من اتساع الدوائر في ص ٢٠ لم يؤدِّ بالنتيجة إلى القضاء على الأمية ومحوها علماً بأن الفترة التي تفصلنا عن عصر النهضة كفيلة بأن تقدم النتائج التي تؤيد حجة الكاتب أو تنقضها فما زالت الأمية مستشرية ومتفشية بين الناس من المحيط إلى الخليج .

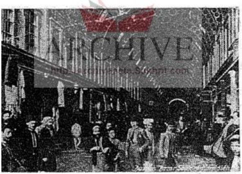
٥ — ان الانعطاف الحاسم والجديد في تاريخ اللغة العربية في العصر الحديث لا يكون بانشاء المجمع اللغوي العربي بالرغم من أهمية هذه المؤسسة العلمية ولكن الانعطاف الحقيقي فعلاً هو في الثورة على اللغة نفسها وايصالها إلى الملايين ، فمن غير الممكن ان يُطالب رجل الشارع العادي بنحو سيبويه وابن هشام ، يجب ان تنزل اللغة إلى الشارع وتخرج من برجها العاجي وذلك لا يعني بحال من الأحوال ابتذالها وتخليها عن جمالياتها بل على العكس غناها وتجددها ، ان العامية التي يتعالى عليها الكاتب ويزدريها ص ٢٣ و ص ٢٥ هي الوعاء النابض بالحيوية وهي الكفيلة بزرق اللغة بعنصر استمراريتها وتواصلها مع الناس .

٦ — مستقبل اللغة العربية غير مضمون في بطون الكتب والمجمعات والمؤسسات العلمية فقط ومع الاحترام لجهودها « فاللغة العربية لاتزال تحتفظ بكل صفات ومؤهلات اللغة القومية ولكن لا نستطيع إلا ان نلاحظ ان سيرورة تقطير هذه اللغة القومية هي سيرورة نامية ومطردة وذلك يحكم نمو الكيانات القومية » جورج طرابيشي الدولة القطرية في النظرية القومية ص ١٢٢ .

من وزارة الثقافة صدر حديثاً

أسواق دمشق القديمة

ومشيداتها التاريخية



الدكتور قتيبة الشهابي